

نجد الشمالي
رحلة من القُدس إلى عُنيزة في القصي
كارلو كلاوديو جوارمان
ترجمة وتعليق : د. أحمد إيبش

رُوّادُ المشْرِقِ العَرَبي

نجد الشمالي

رحلة من القدس إلى عُنيزة في القصيم
عام ١٨٦٤م - ١٢٨٠هـ

الرحّالة الإيطالي

كارلو كلاوديو جوارماني

ترجمة وتعليق

الدّكتور

أحمد ايبش



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ⓒ هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

جوارماني، كارلو كاميلو كلاوديو
نجد الشمالي: رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم في عام 1964/ كارلو كاميلو كلاوديو جوارماني؛ ترجمة أحمد أيبش. – ط 1 – أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، 2009.
160ص : 24 سم.- (سلسلة رواد المشرق العربي).
ترجمة كتاب : Neged Settentrionale Itinerario da Gerusalemme A Anizeh Nel Cassim
ت دم ك: 2-225-01-9948-978
1- شبه الجزيرة العربية – وصف ورحلات. 2- بلاد الشام – وصف ورحلات. أ – أحمد أيبش، مترجم – ب- العنوان. ج- السلسلة.

915.6 ديوي
ج و ن ج



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1430هـ 2009م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 300 6215 2 971+
publication@cultural.org.ae
www.adach.ae

الإهـــــداء

إلى عاصمة العرب الثقافيّة

أبـو ظـبـي

وإلى كلّ القائمين على أمانة

حفظ تراثنا وكنوز حضارتنا العريقة

في هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث

سلسلة
روّاد المشـرق العـربـي

تقدّم «هيئة أبو ظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربـي»، التي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربـي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في جالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربـي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنسانـي، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودترسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس جالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبو ظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائها بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها، وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والصّور والخرائط النّادرة.

هيئة أبو ظبي للثقافة والتّراث

مقدّمة

كارلو جوارماني ورحلته

هذه هي الحلقة الثانية من السّلسلة الثقافية الجديدة التي ترتادها «**هيئة أبو ظبي للثقافة والتّراث**»، بغية تأسيس مكتبة جديدة من نصوص أدب رحلات الروّاد الأوروبيين في مشرقنا تحت عنوان: «**روّاد المشرق العربي**»، نتناول من خلالها نصّاً شائقاً ونادراً لرحّالة إيطالي زار شمال جزيرتنا العربيّة قبل 145 عاماً، فقدّم رواية ممتعة وحافلة بالفوائد التّاريخيّة حول تراث جزيرة العرب. أجمل ما فيها مزجها الممتع ما بين أسلوبه الوصفي الحيّ، وروايته السّرديّة الشائقة التي تعبّر عن روح المغامرة والتّوق العلمي الأصيل. لم تكن الأنا الواضحة في روايته محوراً لتمجيد ذاته، بقدر ما كانت أداة تفاعليّة تمكّن من خلالها تقديم الأحداث بلسان شاهد عيان يرى ويحسّ ويشارك بأصالة ومصداقية.

هذا هو إذن رحّالتنا الجريء الجديد، الذي نصاحبه على متن رحلته الممتعة من القُدس الشّريف إلى عُنيزة وحائل، إبّان حكم أمير جبل شمّر الثانـي طلال ابن رَشيد، فكان واحداً من أشهر سبعة رحّالين أوروپيّين زاروا هذه المنطقة على التّوالي: الفنلندي جيؤرج آوجُست ڤالين، البريطاني وليَم جيفورد پالجريڤ، جوارماني، البريطاني تشارلز داوتي، البريطانيّان ولفريد وآن بلَنت، الألماني البارون إدوارد نولدِه. فسطّر اسم بلده إيطاليا على سجّل روّاد جزيرة العرب، في سلسلة لم تشمل كثيراً من الطليان، برز منها: الرّائد الأول لودوڤيكو دي ڤارتيما، وجوڤانّي فيناتي، ورِنتسو مانتسوني، وجوزيپّه كاپروتّي.

طالما أشار باحثونا إلى رحلة جوارماني هذه دون أن يُتاح لهم قراءتها، بسبب ندرتها وعدم صدورها مترجمة بالعربيّة إلى اليوم. فهذا ما يجعل لنشرتنا اليوم قصب السّبق، نرجو أن نكون وفّينا بها ما وعدنا به في الكتاب الأول.

ولد كارلو كلاوديو كاميلّو جوارماني[1] في ليڤورنو Livorno (التي تسمّى بالإنكليزيّة: Leghorn) بشمال إيطاليا، في 11 ديسمبر من عام 1828 م. كان والده يعمل في التّأمين والشّحن، ثمّ تعاطى تجارة الحرير، وبعد خسارته في التّجارة قرّر الهجرة إلى المشرق، فاختار بيروت التي كانت من أهمّ المراكز التجاريّة البحريّة في شرقي البحر الأبيض المتوسّط إبّان فترة عهد «التّنظيمات الخيريّة العثمانيّة»، وكان ذلك في عام 1850 م.

في بيروت اشتغل كارلو بالتّجارة، لكنّها لم تلائمه، فحصل على وظيفة ممثّل للبريد الإمبراطوري الفرنسي في القُدس. ومن موقعه الجديد هذا بدأ رحلاته في بوادي بلاد الشام، وركّز جهوده على دراسة سلائل الخيل العربيّة الأصيلة واشتغل بتجارتها. ويخبرنا بنفسه عن قيامه برحلة إلى الجوف في عام 1851 م (وكان عمره آنذاك 23 سنة)، كما يروي عن معرفته الوثيقة بأغلب شيوخ البدو في برّ الشام والحَماد ونواحي الأردن، وبأنّ نجداً بقيت في باله حلماً بعيد المنال.

---

(1) رغم أنني أدعو دوماً إلى كتابة مقابل حرف G في الأسماء اللاتينيّة غيناً، وفي الأسماء الأنجلو سكسونيّة جيماً، فهنا وقعتُ في معضلة: هي أن رحّالتنا هذا اشتهر اسمه بين مثقفي الخليج وباحثيهم بالجيم (بمنطوقها المصري واليمني)، فلو أسميته: غوارماني، لأشكلت فهرسته وبدا اسماً غريباً. والعادة جرت أن الأسماء اللاتينيّة (الفرنسيّة والإسپانيّة والپرتغاليّة) قد نقلها أبناء العروبة في الأندلس غيناً، مثل: غرناطة، البرتغال. فلن يمكنك (حتى في مصر) أن تكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريا، مجناطيس، أجسطس.. فما آخرة هذا التشويش؟!
أؤكد دوماً على أن أكثر حرف إشكاليّة في الترجمة هو الحرف G، فلدينا من يترجمه غيناً (في الشام والمغرب، مثل: غولف)، ومن يترجمه جيماً (في مصر والجزيرة: جولف)، ومن يترجمه حتى قافاً (في الجزيرة والخليج، مثل: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف)، ومن يترجمه كافاً فارسية (في العراق، مثل: گولف)، وأحياناً قد يرد كافاً مشبعة كعبارة: الإنكليز، ومنهم من يتشاطر أكثر فيجعله غـ أو جـ بثلاث نقاط، كقولهم: سيغما، أو سيجما، بينما هذا الحرف الفارسي والتركي چ يعادل Ch في الإنكليزيّة، وهو في التركيّة اليوم Ç، كقولك: Çok, Kaç. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم مُشبعة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol. أرى أنّ الحلّ الوحيد اليوم هو بوضع حرف جديد لا يلتبس.. مثل جيم تحتها خط صغير أو دائرة، أو حتى حرف γ (جامّا) الإغريقي أو g اللاتيني. لماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن اللسانيّات السّاميّة تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم الحلقيّة، التي تلقّفتها القبطيّة بمصر عن اليونانيّة المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة كالجيم المصريّة.

قاده هذا الاهتمام إلى إجادة اللغة العربيّة، وإلى التكيّف مع حياة البادية، والتمرّس المباشر بالعادات والتقاليد البدويّة، ومعرفة اللّهجات المحليّة للعشائر المنتشرة في شمالي جزيرة العرب. ولم يجد في ذلك صعوبة، خاصّة أنّ بشرته الإيطاليّة الزيتونيّة مكّنته من الاختلاط مع العرب، وأفادته إقامته المطوّلة في القُدس بالتأقلم التامّ مع العربيّة وأهلها.

أسفرت هذه الخبرات عن تأليفه لكتاب نفيس في معرفة أحواج (أو أرسان) الخيل العربيّة، سمّاه «الخمسة» نسبةً إلى الأرسان الخمسة الأساسيّة لخيل جزيرة العرب: كحيلان وصقلاوي وعبيّان وحمداني وهَدبان، تمّ نشره فيما بعد في مدينة بولونيا Bologna بإيطاليا عام 1864 م بعنوان[1]:

El Kamsa, Il Cavallo Arabo Puro Sangue, Bologna, Progressi, 1864.

وأهدى جوارماني كتابه إلى ملك إيطاليا ڤيكتور عمانوئيل الثاني (1861–1878 م). لكن قُبيل نشر الكتاب، استدعاه إلى فرنسا في سبتمبر من عام 1863 م وزير الزّراعة بغرض مهمّة شراء خيول لإمبراطور فرنسا نابوليون الثالث، ومن باريس استُدعي إلى تورينو في مهمّة مماثلة. ثمّ في ديسمبر، عاد إلى فلسطين مكلّفاً بشراء جياد فحول لصالح الحكومتين الفرنسيّة والإيطاليّة، فاستيقظ في ذهنه حلمه القديم بزيارة نَجد، موئل عشائر العرب ومهد خيلها.

انطلق من القُدس في 26 يناير من شتاء عام 1864 م (1280 هـ) ومعه خادمه محمّد الجزّيني، فحلّ ضيفاً على بعض عشائر فلسطين: التّعامرة والكَعابنة وبني حَميدة ثمّ عبر نهر الأردن إلى وادي زرقاء مَعين، وتابع إلى الحَماد القبلي ديرة بني صَخر، فزارهم بالقْليطة وتزوّد منهم برسائل توصية إلى شيوخ نجد، وأخذ منهم دليلاً (الدّريبي) كان له عوناً كبيراً وبطلاً ثانياً في رحلته هذه. كما التقى شيخ الرّوَلة طلال ابن فيصل الشعلان، الذي زوّده برسائل أنقذت حياته.

---

(1) تمّت ترجمته إلى الإنكليزيّة، وآخر طبعة له صدرت في لندن عام 1984:
The Pure-Bred Arabian Horse, a Study of Sixteen Years in Syria, Palestine, Egypt and the Arabian Deserts. Translated from the Italian by Philip Ward, edited with a new introduction by Angelo Pesce. Immel Publishng Ltd., London 1984.
إنّما لم يترجم إلى العربيّة، ولا كتاب الميجر أبتون Major Upton أوتويدي Tweedie عن الخيل.

كان عُمر جوارماني آنذاك 36 سنة، وكان يسافر كإيطالي بين البدو الذين يعرفونه. فطفق وصاحباه محمّد والدّريبي يرتحلون عبر وادي السّرحان إلى الجوف على متن الأباعر، ويعيشون حياة البدو القاسية، فيضنيهم البرد في الليل وتحرقهم أشعة الشمس في النّهار، ولا يجدون ما يقتاتون به أحياناً إلّا حليب النّوق التي معهم أو الجراد. وتابعوا طريقهم صوب تَيماء، حيث أضافهم على الطريق شيخ شراري يُدعى سليم اللّحاوي. وفي تَيماء التقى بأميرها الشمّري عبد الكريم الرُّمّان، الذي زوّده برسالة توصية إلى سيّده في حائل أمير جبل شمّر طلال بن عبد الله ابن رَشيد. واعتباراً من تَيماء، بدأ بحثه عن رؤوس الخيل في الحرّة الغربيّة بديرة عشيرة الوُلد سليمان، وأحد أفخاذ الولد علي المعروفة بالأيدان (اليديان)[1].

ولكن من تَيماء لم يتابع كارلو السّفر كإيطالي، بل تقمّص شخصيّة آغا تركي وادّعى أنّه ناظر إصطبلات والي دمشق الشهير فؤاد باشا وسمّى نفسه: «خليل آغا». كفلت له هذه الشخصيّة احتراماً لدى جُلّ العشائر التي زارها، ما عدا الموقف الذي اتّخذه منه الأمير عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود، فعدّه جاسوساً تركيّاً. ومن المثير حقاً أنّ نظرته هذ قد يكون فيها شيء من الصّواب، إنما لصالح مَن كان هذا البدوي الإيطالي يعمل؟ أصحيح أنّه كان عميلاً لنابوليون الثالث، على غرار موفده قبل عامين پالجريف؟ يبقى هذا سؤالاً مفتوحاً ووارداً.

وصل برفقة دليل من الأيدان إلى الجوف ومنها تابع طريقه إلى خَيبَر، فكان أوّل رحّالة أوروبي يدخلها منذ أيّام دي ڤارتيما (1503–1508 م). ومن هنالك تابع طريقه عبر الحرّة إلى جبل طيّ في ديرة الهتيم، حيث كان فخذ الرّوقة من قبيلة عتيبَة يتأهّبون لصدّ حملة قادها ضدّهم الأمير عبد الله، فانتصروا بقيادة الشيخ سُلطان ابن ربيعان، وشيخ الحبرديّة من الرّوقة مِبرِك أبو سنون.

---

(1) يسمّيهم في نصّه باللغة الإيطاليّة بلهجة توسكانا: Aleidan، فظنّه الباحثون: (عليدان) ولا وجود لذلك في جزيرة العرب. ومن خلال ترجمة نصّه لاحظتُ أنّه يعتمد طريقة عوجاء جداً في نقل الأسماء العربيّة، وزاد الطين بلّة أنّ هيئة تحرير المجلّة الجغرافيّة التي كانت أوّل من نشر نصّ الرّحلة قد وقعت في العديد من الأغلاط لدى النقل من خطه، فسبّب ذلك صعوبة بالغة في تقصّي أسماء الأشخاص والمواقع، واستغرق مني فحص خرائط شمال الجزيرة أياماً طويلة متعبة. إنما أعتقد أن النحو الذي أخرجته به الآن يضمن صحّة النصّ.

تمكّن صاحبنا أخيراً من شراء أربعة رؤوس خيل من جياد عتيبة الشهيرة بقوّتها، بفضل مكوثه مع القبيلة المحاصَرة. وبعدها تعرّض لتسمّم جرّاء شربه لماء فاسد من إحدى حَويات الحَرّة، فأنقذه دليله علي الفداوي بمعونة بعض الجوّالين من الصّلَيب. ومن ديرة الهتيم تابع طريقه إلى القَصيم، فمرّ بمضارب الأمير عبد الله بن فيصل فأُخذ أسيراً، ورفض الأمير استقباله، بل وجّه به مع أحد زلم الأمير طلال بن رَشيد (ويُدعى عنيبر) إلى عُنيزة سجيناً.

لكنّ الذي تبيّن، بدلاً من وقوع الجاسوس التّركي المفترض في متاعب، أنّ هذه كانت نقطة الذّروة بالنّسبة لرحلة جوارماني، حيث عامله عنيبر بلُطف وقام بأخذه إلى عُنيزة حيث تعرّف بأميرها الشاب زامل السَّليم، الذي كان آنذاك من خصوم السّعوديّين، والذي كانت الأقدار تهيّئ له دوراً أكبر بعد 4 أعوام، حيث تولّى إمارة عُنيزة عام 1868 م، حتى مقتله في معركة المليدا 1891 م على يد خصمه اللّدود محمّد بن عبد الله بن رَشيد، أخي طلال.

لفت انتباه جوارماني جودة سوق عُنيزة، التي تُعدّ المركز الرّئيسي لتصدير خيل نجد إلى الكويت، ومنها إلى بومباي بالهند. ويذكر رحّالتنا أنّ تجّار الخيل كانوا متخوّفين من بدء حظر هذه التّجارة في سنة زيارته ذاتها، لكنّ ما يرويه شيخ رحّالي الإنكليز تشارلز داوتي بعد ثلاثة عشر عاماً في عام 1877 م يبيّن عكس ذلك. وبعد عُنيزة توجّه إلى بريدة، عاصمة القَصيم القديمة، وعلى مقربة منها تعرّف إلى الأمير الشاب بَندَر بن طلال بن رَشيد، الذي كان ينزل بمضاربه في البادية لتضمير خيل أبيه، غير بعيد عن فَيد على طريق الحجّ العراقي.

كان بَندَر شاباً دمثاً مهذّباً، استقبل كارلو بترحاب ولُطف، وتولّى اصطحابه بنفسه إلى أبيه أمير جبل شمّر طلال ذي السّمعة الطيّبة، وعمّه عُبيد. كان حكّام الجبل آنذاك لم يخرجوا حقاً عن وليّ نعمتهم الأمير فيصل بن تركي آل سعود، الذي عيّن أباهم عبد الله بن علي بن رَشيد حاكماً للجبل في عام 1835 م، بعد صرعه لقاتل والده الأمير تُركي عام 1834 م. ولكن الأعوام القليلة التي تلت زيارة كارلو سوف تشهد تغيّرات كبرى في حياة كلّ من الأمير فيصل وطلال وبَندَر.

ففي عام 1865 م، حصل أوّل احتكاك ديبلوماسي رسمي بين الإنكليز والإمام فيصل، وكان الإنكليز يأملون بإلغاء ماضي العداوة معه جرّاء نزاعهما على مصالحهما المتضاربة في عُمان وساحل المنطقة الشرقيّة، واستباق فرنسا التي كان إمبراطورها نابوليون الثالث يعمل جاهداً على إقامة إمبراطوريّة عربيّة حليفة لبلده في الجزائر ثمّ نَجد، بغية قطع الطريق البرّي إلى الهند على الإنكليز. وقلنا إنّه أرسل لهذا الغرض البريطاني پالجريف، وربما جوارماني نفسه.

فلا بريطانيّا استفادت من زيارة موفدها الكولونيل لويس پيلي، إذ توفّي الأمير فيصل إلى رحمة الله في عام 1866 م، ووقعت الدّولة السّعوديّة الثانية بعده في فترة انحدار من جرّاء خلاف ابنيه: عبد الله وسعود. أمّا فرنسا المنكودة الحظ، فقد تحطّمت أحلامها الورديّة على وقع مدافع الألمان في سيدان 1870 م. وحدها إمارة شمّر الفتيّة كُتب لها عهد طويل من الازدهار، فعمّرت مدّة 86 عاماً مستفيدةً من ضعف الدّولة السّعودية الثانية في أواخر أيّامها.

إلّا أنّ النّكبات طالت أيضاً آل رَشيد، فاختُتم أمر طلال بالموت منتحراً عام 1867 م (بعد 3 أعوام من زيارة جوارماني) بسبب مرض نفسي اعتراه، وكان يسيّر شؤون الجبل أخوه عُبيد (البطل الحقيقي بنظر شمّر كما تروي اللّيدي آن بلَنت)، فتولّى بعده متعب بن عبد الله (1867–1870 م)، وبعده أتى دور الأمير الشاب بَندَر صديق رحّالتنا، فحكم عام 1870 م، لكنّه بعد عامين اثنين فقط لقي حتفه على يد عمّه محمّد بن عبد الله بن رَشيد، الذي تولّى أميراً خامساً للجبل.

* * *

على ذلك، بوسعنا أن نعدّ رحلة جوارماني قد جاءت في فترة حرجة تستعر بالأحداث، ولو أنّه لم يُفصح لنا أبداً عن غاية مهمّته الحقيقيّة. لكنّه في تتمّة نصّ رحلته يصف لنا بصورة أنيقة وجذّابة إقامته القصيرة في حائل، وقصرها ومسجدها وسوقها وبعض أحيائها. كما وصف بسكريپت مسرحي بارع لقائيه بالأمير طلال، وأبدى إعجابه بحكمه العادل وعنايته بالفقراء والأرامل والأيتام. فقدّم لنا عن حياة شمال الجزيرة في بدوها وحَضَرها صورة ممتعة نادرة المثال.

بعد مغامرة مثيرة - كادت تكون مميتة - في ديرة الرّوَلة بوادي السّرحان، عاد أدراجه إلى حوران جنوبي الشام بغير الطريق الذي جاء منه (انظر الخارطة)، ومعه ثلاثة جياد من أصل أربعة، حيث أصيب أحدها في المغامرة المذكورة. ومن حوران توجّه إلى دمشق التي أرسل منها الجياد المذكورة إلى أوروبا بحراً عبر بيروت، أمّا هو فقد رجع إلى القُدس ليتابع مُعظم حياته فيها. وهكذا، لم تدُم رحلته الشائقة في نَجد الشمالي غير 4 أشهر: من 26 يناير إلى بُعيد 22 مايو 1864 م.

أمّا أسلوبه الحيّ في وصفه لطبيعة البلاد والأحداث، ولقائه بالنّاس من شيوخ وأمراء وبُسطاء، في تَيماء والجوف وعُنيزة وبريدة وحائل، وتفاعله الإنساني معهم، وإغفاله لذاته ولعقدة التفوّق الأوروبي، فأمرٌ وصل فيه صاحبنا الإيطالي إلى الذّروة دون ريب. لا يمكنك وأنت تقرأ نصّه إلّا أن تتفاعل معه ومع أشخاص روايته وتتعاطف معهم، برغم الـ 145 عاماً التي تفصلك عنهم.

والواقع أنّ تتمّة قصّة كارلو ينبغي لنا متابعتها بقلم رحّالة بريطانيّة مثقّفة وجريئة وصادقة، هي اللّيدي آن بلَنت التي قامت عام 1878-1879 م برحلة شائقة إلى حائل مع زوجها ولفريد ، فمرّا بحوادث ومغامرات تحبس الأنفاس، تفاعلا معها أيضاً حتى الذّروة، ووصفت بها بلاط حائل بأيّام الأمير محمّد.

أخيراً، عاد كارلو جوارماني إلى إيطاليا، فأقام مع زوجته وابنتيه: سُليمى Zulima وإلڤيرا Elvira في جنوة، حيث أضحى تاجراً معروفاً موسراً، وتوفي فيها عن 56 عاماً بأواخر عام 1884 م.

* * *

وبعد، فمن دواعي سرورنا أن نقدّم للقارئ العربي - للمرّة الأولى - هذا الرحّالة الجريء وكتابه الممتع والمهمّ، بعدما لبث نحواً من قرن ونصف ينتظر حظّه للظهور بلغة الضّاد التي كان صاحبه يجيدها. ولا نخفي دهشتنا لهذا الإهمال الطويل الذي لا يتناسب وقيمة نصّه الثمين، الأمر الذي كان أيضاً مصير كتابه القيّم الآخر «الخمسة» عن الخيول العربيّة الأصيلة!

* * *

وثائق جديدة عن جوارماني:

من خلال عملي على النّص الممتع والحافل باللّقاءات الشخصيّة للمؤلف مع العديد جداً من شيوخ البادية وشخصيّاتها المعروفة، كم وددتُ أن أعثر على صورة شخصيّة له، تفي بتبيان ملامحه على غرار بقيّة رحّالي أوروبا المشهورين في بلادنا. لكن لا فائدة.. لا صورة له في أيّ مرجع مطبوع مع الأسف، ولا على صفحات الشبكة العنكبوتيّة! كأنّنا هنا نتعامل مع شبح.. نحسّ به على صفحات كتابه ينبض بالحياة، إنّما بغير وجه أو معالم.

أكثر من 3 سنوات من البحث مضت بلا جدوى، إنّما لمّا حاولتُ البحث في مدينة إقامته جنوة ما خاب ظنّي أبداً، فاكتشفتُ في مكتبتها الجامعيّة مجموعة من أوراقه وخريطته لشمال الجزيرة، كان اشتراها مديرها بييترو نورّا Pietro Nurra في عام 1941، ثمّ أهدت بقيّتها إلڤيرا جوارماني ابنة كارلو، وقامت بإعادة تصنيفها في عام 1987 الباحثة إليزابيتّا پاپونِه Elisabetta Papone.

تضمّ هذه المجموعة النّادرة رسائل عديدة بالإيطاليّة والفرنسيّة والعربيّة، مع ملخّصات لأبحاث في جغرافية جزيرة العرب، ومواد شتّى. ولكن ليس في رسائله المكتوبة بخطّه ما يفيد بكشف الخيوط الخفيّة لرحلته. أمّا ما أمتعني في خاتمة البحث، فهو العثور على صورتين شخصيّتين لرحّالتنا الكبير، واحدة تحمل إهداءً منه إلى زوجته، والأخرى مؤرّخة في 14 سبتمبر 1884 م. وحاليّاً، أنتظر من المكتبة المذكورة: Biblioteca Universitaria di Genova نسخ هاتين الصّورتين، والموافقة لي على نشرهما في طبعة قادمة. أمّا بخصوص حواشي الكتاب، فبعضها للمؤلّف ومنها أشياء للجنة التّحرير، أمّا المُغفلة من الاسم فهي لي.

❊ ❊ ❊

أخيراً، فأحدث دراسة صدرت في إيطاليا تتعلّق بجوارماني، كانت للباحث ر. راينيرو، حول الاستعمار الإيطالي للحبشة، فلورنسا 1970:

Romain Rainero: *Carlo Guarmani e la questione di Assab*, La Nuova Italia, Firenze, 1970.

أمّا أوّل طبعة للرّحلة فأصدرتها مجلّة الجمعيّة الجغرافيّة الفرنسيّة، في عددها الصّادر في سبتمبر 1865 م Bulletin de la Société de Géographie، وكما أسلفتُ وقعت فيها عدّة أغلاط نجمت عن ضعف لجنة التّحرير في قراءة خطّ يد المؤلّف. وفي العام التالي 1866 صدرت طبعة أخرى عن نصّ مجلة الجمعيّة في مطبعة مارتينيه E. Martinet بپاريس، لا تختلف عن الطبعة الأولى بشيء.

BULLETIN

DE LA

SOCIÉTÉ DE GÉOGRAPHIE

SEPTEMBRE 1865.

Mémoires, Notices, etc.

ITINÉRAIRE

DE JÉRUSALEM AU NEGED SEPTENTRIONAL

PAR M. GUARMANI.

DÉDIÉ A S. EXC. M. ARMAND BEHIC, MINISTRE DE L'AGRICULTURE, DU COMMERCE ET DES TRAVAUX PUBLICS.

EXTRAIT D'UNE LETTRE DE M. GUARMANI A M. V. A. MALTE-BRUN.

. . . .
. . . . J'ai écrit les noms arabes comme ils doivent être lus par des Italiens-Toscans (1), et comme je les ai entendu prononcer sur les lieux; ayant préféré ce système à

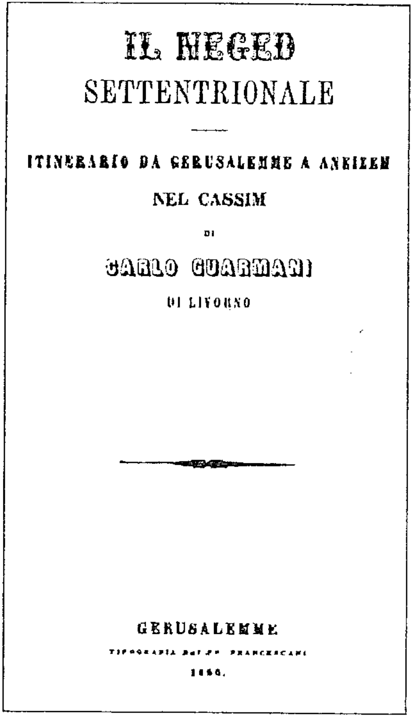
(1) La Rédaction du *Bulletin* a cru devoir laisser aux noms propres contenus dans ce travail l'orthographe italienne donnée par le manuscrit original. Il est convenu une fois pour toutes que *Neged* doit être identifié avec *Nedjed*; *Gebel*, avec *Djebel*; *Uedi*, avec *Wady* ou *Ouady*; *Gor*, avec *El-ghor* de la carte de Van de Velde; *Uld*, avec *Uläd* ou *Ouled*; *Eben*, avec *Ibn*, etc.

XI. SEPTEMBRE. 1. 16

راموز طبعة مجلة الجمعيّة الجغرافيّة، پاريس 1865 م

في عام 1866 م أيضاً، صدرت طبعة بالإيطاليّة في القُدس الشريف، تحمل تنقيحات على طبعة پاريس، يبدو أنّها اعتمدت نسخة خطيّة منقّحة بيد المؤلّف، لكنّها لا تزيد بالحجم حقاً عن الطّبعة الأولى. صدرت بمطبعة الآباء الفرنسيسكان Tipografia dei Padri Francescani بالقُدس بعنوان:

***Il Neged Settentrionale**, itinerario da Gerusalemme a Aneizeh nel Cassim*, Gerusalemme, 1866.



IL NEGED
SETTENTRIONALE

ITINERARIO DA GERUSALEMME A ANEIZEH
NEL CASSIM
DI
CARLO GUARMANI
DI LIVORNO

GERUSALEMME
TIPOGRAFIA DEI PP. FRANCESCANI
1866.

راموز طبعة القُدس من الكتاب، عام 1866 م

سُرعان ما ظهرت للكتاب ترجمة ألمانيّة، ثمّ في عام 1916 قام المكتب العربي بالقاهرة Arab Bureau العائد إلى الاستخبارات البريطانيّة بترجمته إلى الإنكليزيّة، للاستفادة من معلوماته إبّان الحرب العالميّة الأولى. وقد كنّا رأينا في كتابنا السّابق «ارتياد جزيرة العرب» لداڤيد جورج هوجَرث D. G. Hogarth مدير المكتب المذكور مدى اهتمام ضبّاط الإنكليز بمثل هذه المعلومات.

لكن الترجمة الإنكليزيّة المعتمدة كانت هي التي قامت بها فيما بعد اللّيدي كايبل كيور، وقدّم لها الرّحّالة دوجلاس كاروثرز:

***Northern Najd**, a Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim*, translated from the Italian by Lady Capel-Cure, with introduction and notes by Douglas Carruthers. The Argonaut Press, London, 1938.

❊ ❊ ❊

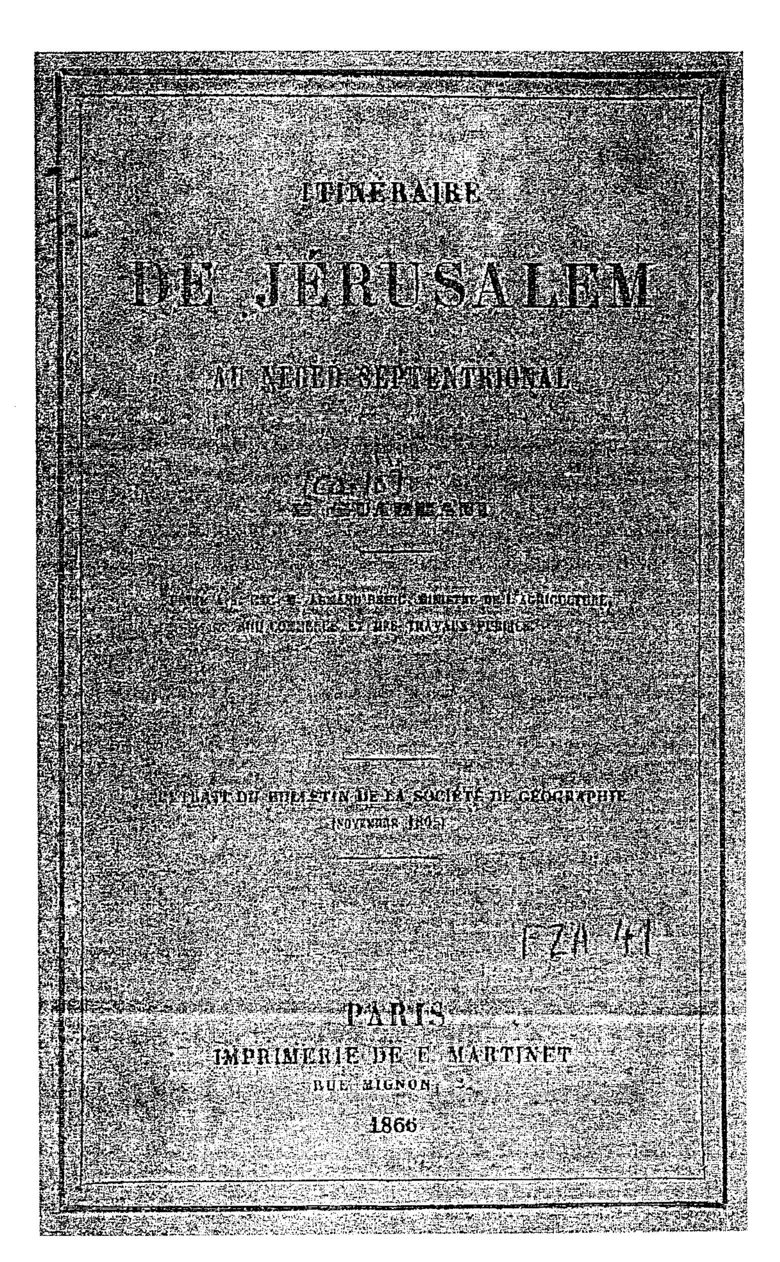
قمتُ بنسخ نصّ مجلّة الجمعيّة الجغرافيّة وطبعة مارتينيه من المكتبة الوطنيّة بباريس، وعنهما ترجمتُ الآن، بانتظار الظفر بنُسخ عن الطبعات الأخرى الشّديدة النّدرة. وعلى ذلك، ستكون لنا حتماً عودة في طبعة قادمة لهذه الرّحلة، نضيف إليها الزّيادات الطفيفة الواردة في طبعة القدس، بالإضافة إلى ما تقدّمه لنا مكتبة جنوة الجامعيّة من وثائق وصور. وحبّذا ممّن لديه من القرّاء الكرام أيّة ملاحظات على هذه الطبعة أن يتكرّم بها علينا، لتكون الطبعة القادمة أصحّ وأكمل.

كما أنّه لا بُدّ لنا – ضمن سلسلة روّاد المشرق العربي – من أن نكمل مسيرة الرّحالين الذين تلوا جوارماني على درب رحلته، فأوّلهم تشارلز داوتي (1877 م)، وثانيهم شارل أوبير Charles Huber (أو هُوبَر باللفظ الألماني لكونه من الألزاس)، الذي قُتل بعدما نجح عام 1878 م في الحصول على حجر تَيماء الأثري وشحنه إلى متحف اللوڤر. أمّا ثالثهم فهي آن بلَنت برحلتها الممتعة شتاء عام 1878-1879 م. ورابعهم البارون نولدِه في عام 1893 م.

بيروت، 18 يناير 2009

د. أحمد إيبش
a.ibesch@hotmail.com

❊ ❊ ❊



ITINÉRAIRE

DE JÉRUSALEM

AU NEGED SEPTENTRIONAL

EXTRAIT DU BULLETIN DE LA SOCIÉTÉ DE GÉOGRAPHIE

(NOVEMBRE 1865)

PARIS

IMPRIMERIE DE E. MARTINET

RUE MIGNON, 2

1866

راموز طبعة مارتينيه من الكتاب، باريس 1866 م

تنويه للمؤلف

كتبتُ الأسماء العربيّة حسب اللغة الإيطاليّة بلهجة إقليم توسكانا[1]، وكما سمعتها تُلفظ في موطنها. هذا النظام فضّلتُه على النظام الذي يستخدمه في عصرنا المستشرقون، الذين يكتبون hh أو kh أو hk للتّعبير عن بعض الحروف العربيّة التي يكاد يكون من المستحيل على حناجرنا الأوروبيّة النّطق بها. وعلى ذلك سيتمكّن غالبيّة القرّاء من نطق هذه الأسماء بنسبة أعلى من الصحّة. فعلى سبيل المثال، أكتب اسم عاصمة الجبل: *Kaïl*، أمّا حسب أسلوب السيّد پيرّون Perron فكان ينبغي لي أن أكتبها: *Hâil*، بينما يجعلها السيد جومار Jomar: *Hayl*، وأمّا السيد شتيلر Stieler فهو في أطلسه يجعل من حائل مدينتين اثنتين، ويكتب اسم الأولى: *Haeil* والثانية: *Haïl*.

ما فتئتُ منذ حوالي أحد عشر عاماً أعمل على وضع خارطة جغرافيّة إحصائيّة لصحاري برّ الشام والجزيرة[2]، التي سبق لي أن تجوّلتُ مراراً وتكراراً في نواح كثيرة من أكنافها. لكنني مع ذلك لستُ أدري إن كان عملي هذا سيصل إلى خاتمته أخيراً في يوم من الأيّام.

* * *

(1) ترى إدارة تحرير مجلة الجمعيّة الجغرافيّة أنّ الواجب يقتضي الإبقاء على اللفظ الإيطالي الوارد في المخطوطة الأصليّة، فيما يخصّ أسماء الأعلام المتضمّنة في هذا الكتاب. والمتفق عليه عموماً أنّ عبارة *Neged* ينبغي تعريفها بـ *Nedjed*، وعبارة *Gebel* بـ *Djebel*، وعبارة *Uedi* بـ *Wady* أو *Ouady*، وعبارة *Gor* بـ *El-ghor* على خريطة *Van de Velte*. وكذلك عبارة *Uld* بـ *Ulâd* أو *Ouled*، وعبارة *Eben* بـ *Ibn*، إلخ (لجنة التحرير).

قلتُ: ذكرت في مقدّمتي أن طريقة جوارماني سيئة للغاية ولا تفيد أبداً في تقديم اللفظ السّليم للأسماء العربيّة، وزادها سوءاً إخفاق لجنة التحرير في قراءة خطّه.

(2) ما زالت خارطته هذه في مكتبة جنوة الجامعيّة Biblioteca Universitaria di Genova.

مقدّمة المؤلّف

لولا هذه الرّحلة الواردة أدناه، لكان كتابي «الخمسة»[1] *El-Kamsa* بقي عملاً ناقصاً غير مُستوفى الأركان، وما كان بوسعي أن أبيّن شؤون الجواد العربي وسلالاته الأصيلة، ولا كنتُ استطعتُ أبداً أن أفي بالتّعريف بالبلاد التي كانت منذ فجر الخليقة مهداً لأرقى وأكرم سُلالة من سلائل الخيل.

كان سبق لي أن توغّلتُ في الصّحراء التي تفصل بجهة الشمال ما بين نجد Neged والحجاز Eggiaz، وغامرتُ بالتّجوال مراراً مع بني صخر والتّوايهة ما بين طلائع الجلاميد الغربيّة لصحراء النّفود. وكنتُ قد أصحرتُ من الحَمَاد بصحبة بدو ضَنا بِشر Biscir والرّوَلَة Ruola[2]، فتمكّنتُ من الاطّلاع في عدّة مرّات على معالم الحدود الشرقيّة لجبل شمّر Gebel Sciammar. وبوجه العموم كنتُ في رحلاتـي كلّها ضمن بوادي برّ الشّام وصحاري جزيرة العرب نجحتُ في إقامة علاقات عديدة مع بَدو أواسط الجزيرة. إلاّ أنّ نجداً ما لبثَ بالنسبة لي بمثابة أرض الميعاد.. أمّا أنا الذي بتُّ بمثابة موسى جديد فقد لبثتُ أخشى أن تدركني يد المنون قبل أن يتاح لي وَطء أرض نَجد، إذ ما فتئت تقصيني عنها على الدّوام مصاعبُ جمّة كأداء.

---

(1) أي كتابه الشهير عن الخيل «الخمسة»، نُشر في بولونيا عام 1864 م، وعنوانه بالإيطالية:
Guarmani, C.: *El Kamsa, Il Cavallo Arabo Puro Sangue*, Bologna, Progressi, 1864.
معناه بالعربيّة: «الخمسة»، الجواد العربـي الأصيل، ستة عشر عاماً من البحث في سوريا وفلسطين ومصر، وفي صحارى جزيرة العرب، تأليف جوارمانـي (من مدينة ليڤورنو). نشر في بولونيا بإيطاليا، 1864. لم يُترجم منه إلى العربيّة شيء.

(2) الرّولة عشيرة عنزيّة من ضنا مسلم ومن بطن الجلاس، وهي أكبر عشائر عنزة عدداً، وآخر من هاجر من نجد إلى بلاد الشام من عشائر عنزة (بعد 1800 م)، لذا كانت أحفظ العشائر للتقاليد البدويّة وأعرقها وأشدّها تعلقاً بالأباعر وبالقفار وأبعدها نجعة. أشهر من كتب عنها من الرّحالين التشيكي موزيل والبريطانـي لانكستر.

ثمّ في شهر سبتمبر من عام 1863 م، استدعاني إلى فرنسا صاحب السّعادة مُسيو آرمان بِئيك[1] M. Armand Béhic، وزير الزّراعة والتّجارة والأشغال العامّة، كيما يتمّ وضعي تحت تصرّف الجنرال فلوري Fleury، ياوَر صاحب الجلالة الإمبراطور نابوليون الثالث، والمدير العام لمرابط الخيل الإمبراطوريّة. فلمّا وصلتُ إلى پاريس تلقّيتُ من صاحب الجلالة الملك ڤيكتور عمانوئيل الثاني دعوة كريمة للعودة إلى تورينو Torino. وفي شهر ديسمبر التالي، عدتُ أدراجي إلى فلسطين، مكلّفاً بشراء جياد فحول لصالح الحكومة الفرنسيّة ولصالح ملك إيطاليا، فراحت تراود مخيّلتي فكرة أن أُقدم أخيراً على ركوب المخاطرة التي أحلم بها، ألا وهي اختراق نَجد، وسط أقوامها المتشدّدين.

كنتُ على يقين من أنّ بوسعي تنفيذ مهمّتي هناك على وجه أفضل من مضارب العرب الرُّحّل، ذلك بأنّ أمراء نَجد الذين تتعاظم سلطتُهم يوماً بعد يوم يحصلون بسهولة من البدو الخاضعين لهم على أفره الأحصنة المُطهمة، وعلى الأفراس المُسوّمة الأصيلة، ويبذلون غاية الجُهد للحفاظ على السّلالة العربيّة الطيّبة بكمالها النّقي الصِّرف.

[الخروج من القُدس 26 يناير 1864 م]

قمتُ إذن بارتداء زيّ أبناء الصّحراء، وتمنطقتُ جيّداً بالسّلاح، وبرفقتي خادمي العجوز المخلص محمّد الجزّيني، فخرجتُ من المدينة المقدّسة الحزينة، ومضى يواكبني حتى وادي رِفائيم أصحابي وعدد كبير من الفضوليّين الذين تخيّلوا أنّني سائرٌ إلى حَتفي بظلفي. لدى اجتيازي ببيت لحم، صادفتُ في طريقي موكب جنازة، فما كان من خادمي الطيّب، المتطيّر ككلّ مُسلم تقيّ، إلاّ أن تولاّه التّقاعُس، فلدى رؤيته هذه البداية المنحوسة عدّها نذير شؤم لمآل حملتي الحاليّة، وكاد أن يتخلّى عنّي ويتركني أواجه مصيري المحتوم بمفردي. فلمّا رأيتُه متردّداً، ذكّرتُه بأنّنا جميعاً مُلاقون الموت يوماً، فأجابني حسب العُرف المُتّبع: «عندما يشاء الله»، واستردّ همّته للسّفر.

(1) هكذا تقريباً نطق الاسم بالفرنسيّة وليس: بهيك، لأنّ الحرف H فيها يُكتب ولا يُلفظ.

[لدى عرب التّعامرة غربي البحر الميت]

لمّا وصلنا إلى دوّار[1] الشيخ إسماعيل حَمدان، شيخ التَّعامرة السّعَدة[2]، قمتُ بتشكيل حاشية مرافقة تتألّف من أربعة أشخاص، وقمتُ للتوّ بإرسال أحدهم إلى دوّار عشيرة ظواهرة الوادي، وهو من المفترض أن ينتظرني في صباح الغد مع ثلاثة شبّان من هذه العشيرة في الحِمّة[3]، الذي هو أفضل موضع لاجتياز نهر الأردُن في الشتاء سباحةً.

أمضيتُ الليلة في بيت الشّعر العائد للشيخ إسماعيل، متمدّداً قبالته على عدّة جلود خرفان مخيطة معاً، صوفها ممشّط وعليها فُرشت تلك البسط ذات الأصول الضاربة في القِدم التي تحيكها نساء التّعامرة بمهارة فائقة، والتي تؤلّف ألوانها المتعدّدة رسوماً بديعة حقاً.

قبل بزوغ الفجر بساعتين استيقظتُ ونهضت من رقادي، وكانت جماعتي على أهبة الاستعداد، أمّا حصاني فكان أقلّ نشاطاً من الأمس، وبدا حتى عاجزاً عن أن ينفض عن كاهله أثناء مسيره ماء المطر الذي ناله في أثناء الليل. كان أفراد الدّوّار من الذّكور الذين أتوا قبل رحيلي قد اجتمعوا بداخل خيمة الضيوف وحواليها. اصطحبني الشيخ إسماعيل إلى الخيمة ممسكاً بيدي، وقام أعوانه بالوقوف في دائرة، وتولّى الشيخ تقديمي إلى مَن سيقومون بمرافقتي، وأمرهم باصطحابي إلى بني حَميدة على النّحو الذي يشاؤونه هم وليس كما أشاء أنا، وترك لهم مُطلق الحريّة في اختيار الوقت والوسيلة، وفرض عليهم كذلك ألاّ يتركوني، حتى لو أمرتُهم بذلك، إلاّ في اللحظة التي يؤكّد لهم فيها بنو حَميدة أنّ «وجههم لم يسودّ» على الإطلاق.

---

(1) يستعمل المؤلف هذه العبارة الشائعة في شمال أفريقيا، وتعني قرية صغيرة أو تجمعاً سكنياً ومراحاً للحلال. وهو يقصد مضرب القبيلة.

(2) ترد الكلمة في النصّ بالغلط: *faamri* بسبب إخفاق لجنة تحرير المجلة كما هو واضح في قراءة خط يد جوارماني. والصواب: التّعامرة، إحدى كبريات عشائر فلسطين، ومن أكبر بطونها: الجحاجحة والسّعدة. انظر سجلّ مسار الرّحلة أدناه، ص 104.

(3) مخاضة على نهر الأردن شمالي البحر الميت إلى الشرق من أريحا، تفضي إلى غربي عمّان وإلى الشمال من مادبا، ثم نزولاً إلى وادي الزرقاء ومعين. كتبتها اللجنة بالغلط: Kenu.

تلو ذلك التفت الشيخ نحوي، وراح يتكلّم بحنوّ أبويّ رغم صغر سنّه حسب ما اقتضاه الحال، فراح ينصحني بتوخّي الحيطة والحذر والتزام الصّبر. وعقب ذلك أذن لي بالانصراف بأن قبّلني حسب العادة المتّبعة لدى العرب الرُّحّل المُقيمين بنواحي القُدس، أي بأن وضع يديه على كتفَي ومال بوجهه على الجانبين دون أن يلمس وجهي، وأسمعني في أذني صوت القُبلة. وقام آله بتقبيلي على النّحو ذاته، أمّا الشيوخ المسنّون فكانوا يمسكون بيدي اليُمنى ويضعون يُمناهم على جبهتي، وراح جميع رجال الدّوّار يبادرون إلى مُصافحتي باليُمنى وبتقبيل أصابعهم بعد المصافحة، كدلالة على المودّة والاحترام.

[العبور إلى شرقي نهر الأردن]

في الحِمّة ألفيتُ في انتظاري حسب الموعد بالضبط صاحبي التَّعامري والشبّان الظواهريّة الثلاثة. كانت مياه نهر الأردُن متجمّدة تقريباً. وعند الغوير طلبتُ الاستراحة إلى حين مغيب الشمس. كانت السّماء تامّة الضياء، ولكنّ الهواء استمرّ في البرود، وكانت الرّيح تهبّ من جهة الشّرق. قمنا بإضرام نار كبيرة بنباتات الغور اليابسة، وبخَبز الخُبز تحت الرّماد، لكنّه مع الأسف تصلّب على واحدة من الصّخور الكلسيّة العديدة المبثوثة على الضفّة. ثمّ لمّا تلاشت آخر معالم الغَسَق، قصدنا شِعاب الجبال طلباً للمأوى وقضاء الليل.

لم يكد يمضي على إغفائنا ساعة واحدة حتى أيقظنا بغتةً الضجيج النّاجم عن انهيار كميّة من الأحجار المتساقطة من المرتفعات المحيطة بنا، بفعل مرور سِربة من الوعول (البدن)[1]، التي هي الكائنات الوحيدة التي تقطن هذه المنحدرات الهارية. لعلّها نكصت على أعقابها عائدةً إلى أوكارها، وأفزعها مرأى نارنا الموقدة وأصوات الحارسَين الموكلين بها.

---

(1) باللغة الإيطاليّة: *stambecchi*، وبالفرنسيّة: *bouquetin*، وباللاتينيّة: *ibices*، وبالألمانيّة: *steinbocke* (المؤلف).

قلت: يدعو البدو الوعل بالبدن، وهو أكبر حجماً من الغزال وقرناه ثخينان معقوفان كقرون الماعز تقريباً منحنيان نحو ظهره. كان يعيش في الجبال في بادية الشام وعلى حوافها (إنما انقرض اليوم تماماً) وفي جبال سيناء. ويسمّى أحياناً تيس الجبل.

لم تقوَ النّار والمعاطف على وقايتنا من البرد، فتوجّب علينا أن نقرّر متابعة طريقنا لكي نُدفئ أعضاءنا الخدرة. ارتقينا بسرعة كبيرة إلى أعلى نبع المنشلة Menscela، الذي ينساب ماؤه ضمن وهدة متحدّرة، ذات قاع عامر بالنّخيل ترتع فيه الخنازير البرّيّة والفُهود[1].

ازدادت الرّيح شدّة، وراحت تضرب وجوهنا بعنف، فتوقفنا مجدّداً للاستراحة في وسط الصّخور التي تعلو قمّة الجُرُف. وتمكّن بعضنا من النّوم من جديد، ولكن بما أنّ الوضع لم يكن مريحاً، فلقد صاحب صوتَ شخيرهم صوتُ اصطكاك أسنان أولئك الذين لم يناموا. ولم تكد تمضي ساعتان حتى تعالت أصوات ضجيج أخرى أشدّ إقلاقاً، ازعجت البعض من استرخائهم، والبعض الآخرين من رقادهم. فلقد راحت وديان البلقاء تتجاوب بصدى طلقات بنادق متتالية أُطلقت على مسافة غير بعيدة من مكان استراحتنا. ودون أن نهتمّ باستطلاع مجريات الحدث الجديد، كسونا حوافر الخيل وتحرّكنا بأتمّ درجة من الصّمت نحو حَمارة Kamara، حيث توارينا عن الأنظار في الغياض الكثيفة التي تتخلّل مجرى الجدول.

عندما طلعت الشمس بسناها المُشرق، سرعان ما نسينا مُعاناتنا في الليلة الفائتة، وتابعنا طريقنا دونما إبطاء بارتقاء المرتفعات إلى حيث ابتدأ الطريق يهبط من جديد، بالقرب من الرُّجوم التي لها شهرة لدى الحجّاج المسلمين القاصدين زيارة القُدس الشريف، إذ أنّها تلوح لهم من هنا للمرّة الأولى. وبعد أن هبطنا مُنحدراً خفيفاً في وادي زرقاء مَعين، صادفنا بضعة أباعر وُضح[2] ترعى على هواها على طول الضفّة اليُمنى، وحسب أعراف البدو فما من بشارة خير أطيب من هذه. وهكذا، أسعدنا الحظ بالوصول إلى دوّار بني حَميدة، حيث استقبلنا صديقنا القديم الشيخ مُطلَق El-Korut[3].

---

(1) ما زالت الخنازير البرّيّة موجودة في بعض أنحاء الغور، إلا أن الفهود انقرضت تماماً.

(2) الأباعر الوضح في عُرف البدو هي البيضاء اللون، وهي مفضلّة لديهم وكذلك السّود منها على باقي الأباعر. ومصادفة البيض منها علامة فأل طيّب.

(3) تسمية غريبة غير مفهومة، واسم الشيخ مُطلق السّلمان الخريشا، عقيد الكعابنة.

[النّزول لدى بني حَميدة بوادي زرقاء مَعين]

كان دوّار الشيخ مُطلَق El-Korut يعجّ بفوضى عارمة: فثمّة أُسر كاملة علمنا أنّها تنتمي إلى كَعابنة البَلقاء، كانت تملأ المساحة المخصّصة للحلال. وكانت عدّة نساء يبكين وهنّ يقمن بالعناية ببعض الجرحى. إنّ طلقات البنادق التي جعلتنا ننهزم من نبع المنشلة إلى حَمارة قد تبيّن لنا أمرها ببضعة كلمات: أغار عرب العُدوان بغتةً على الكَعابنة، فبادروا إلى التخلّي عن الدّوّار وعن حلالهم، وانسحبوا إلى ديرة بني حَميدة، وهم يقاتلون دفاعاً عن أرضهم خطوة خطوة، لتأمين نجاة أسرهم. فقاتلوا قتال الأبطال، ولم ينسحبوا إلاّ مُرغمين بسبب تفوّق أعدائهم بالعدد، لم يُمنوا في المعركة إلاّ بعشرة جرحى. أمّا بشأن الخسائر الماديّة التي مُنوا بها، فلم يصبهم ذلك بكثير من الهمّ، فالبدوي معتاد على اتّخاذ حلال الآخرين بمثابة حلال له، فغزوة واحدة فالحة من شأنها أن تغنيه في وقت قصير بأكثر ممّا يوفّره له الكدّ النّظامي في غضون سنوات عديدة، ولذا فهو لا يعدّ أيّة خسارة بأنّها غير قابلة للتّعويض مهما كان مقدارها.

كان زعيما اللاجئين الآخرين مَسعَد ومُحسن الرُّوعي في المضرب المجاور وهو مضرب أحد صغار مشايخ بني حميدة، راشد الغوري، وفي أحد بيوت الشعر التي تمّ نصبها على عجل كان يقيم شيخ الكَعابنة الكبير موسى ابن فضلة مع القسم الأكبر من عشيرته المستجيرة. على جبال الضفّة اليمنى لوادي زرقاء يمكن مشاهدة عرب العُدوان، وكانت صيحات الثأر التي يطلقونها هي كل ما يمكن لهم إبداؤه، لأنّه من اللازم عليهم احترام استجارة أعدائهم، ولقد علمنا أنّه في المعركة الأخيرة وقع لهم عدد كبير من الجرحى وقتيل واحد.

صار وضع الكَعابنة حرجاً جداً، وربما لم يعد بوسعهم العودة إلى ديارهم في البلقاء. فالحروب ينجم عنها مراراً أن تبارح كثير من العشائر ديارها ويهجرها كثير من الأُسر. ولدينا مثال التَّعامرة ذاتهم، الذين ينتمون إلى بني حارث في وادي موسى وهم حاليّاً في صحراء اليهوديّة Judaea. والعرينات الذين نزلوا أوّلاً في سهول البَلقاء ثمّ في مُنحدرات البَلقاء بالغور، واليوم هم مُكرهون على البقاء بمراعي جبال فلسطين المتاخمة لنهر الأردُن والبحر الميت.

أمّا عن الكَعابنة أنفسهم[1]، فهم من عرب ابن البصّ، كانوا هجروا البَلقاء إلى جبل إدوم. ومن المحتل أنّ عشيرة موسى ابن فضلة سوف لن تبارح بعد اليوم جبال الحَرّة Kura.

* * *

استقبل بنو حَميدة رَبعهم وأصحابهم ومعارفهم بقُبلات متتالية على الفم، وكانوا يقبّلون الأوائل منهم بشكل أسرع ويتمطّقون شفاههم، أمّا الأواخر فكانوا يقبّلونهم فُرادى وبشكل يتناسب مع درجة الصّداقة معهم.

عند وصولنا كانت قطعان الحلال في المراعي، فلم يوجد غير شاة واحدة فأُخذت وذُبحت، وتمّ عرض رحمها أمام شهود، وأُعلن أنها لم تكن حاملاً، وبفضل هذا الإجراء لم يتوجّب على الشيخ مُطلَق سوى التّعويض بشاة فقط، وليس بشاة وجدي كما كان من حقّ صاحبها أن يطالب. وهكذا لم يعد أمام صاحبها الحقّ بتعويض سواه، لأنّه من المسموح عند مجيء الضيوف إنّ لم يكن بمتناول المرء حلاله الخاص، الاختيار من أوّل ما يصادفه من بهائم.

وكان الشيخ مُطلَق والشيخ الأعلى منه خالد أبو بريص، اللذان جاءا فجأة - اجتذبتهما إمّا رائحة الشّواء أو سعادتهما بلقائي - قد أعفيا تلك العشيّة التّعامرة من مسؤوليّتهم تجاهنا، وتولّيا اصطحابي معزّزاً مكرّماً إلى بني صخر، ولم يتركاني أبداً حتى تأكّد لهما أنّني صرتُ بمأمن من أيّ خطر.

* * *

مضت تلك اللّيلة، ورغبتُ - بصُحبة مُحسن الرُّوعي - بالتنزّه ما بين الزّرقاوين، وجلست بعد ذلك على بعض الصّخور التي تجاورها شُجيرات الزكرو الغاري، التي تنمو بكثرة في الجدول، في المكان الذي يغور فيه الجدول تحت الأرض على بُعد ساعة ونصف إلى الجنوب من منبعه. وهذا المنبع يقع في وَهدة فسيحة مليئة بشوك العلّيق، وهي ملاذ مُعتاد للخنازير البرّيّة.

---

(1) من بني كعب بن عديّ، من قُريش من العدنانيّة. كانت ديارهم قرب ساحل البحر الأحمر شمال غرب الحجاز، نزح بعضهم إلى البلقاء وجاوروا بني صخر وحالفوهم فعُدّوا منهم.

ولمّا كان مرافقي يمتهن الغزو والنّهب، فقد جعلته يقصّ عليّ حكايات الغزو الأكثر جراءة التي قام بها، وليس ذلك بأنّـي أجد مُتعة بسماع أمثال قصص اللصوصيّة هذه[1]، إنّما رغبتُ أنّ أؤكّد لنفسي أنّ سلاّبـي صحارى شمال الجزيرة يبقون أوفياء للأعراف التقليديّة المتوارثة لأجدادهم القُدامى، وفي الواقع أنّني سمعتُ مراراً - على اختلاف بعض التفاصيل - عدداً كبيراً من قصص المآثر والشّهامة تذكّر بأخبار تأبّطَ شرّاً والسُّلَيك الشّهيرين[2].

بعد ذلك، أمضيتُ ساعات في الإخلاد إلى الرّاحة ورأسي مستند إلى خُرج راحلتي، فأراحني ذلك تماماً من عناء التّعب الذي ألمّ بـي مؤخراً، غير أنّني ألفيتُ نفسي عندما استيقظتُ عُرضةً لمواجهة عناء أكبر من ذلك. كان الشيخ مُطلَق بذاته، وابن عمّه منزِّل مع خيّال بدوي آخر يؤلّفون الفريق المرافق لي. أمّا التّعامرة فبعد أن تمّ منحهم تعويضات على خسائرهم سُمح لهم بالانصراف، فعادوا إلى دوّارهم.

سرنا بصمت، وسُرعان ما وصلنا إلى وادي الثَّمَد[3]، الذي يلفظون اسمه التَّمَد *Et-Temed*، على اعتبار أنّ حرف التّاء في أوّل الاسم حرف شمسيّ، وهذا ما يغيّر من نُطق ال التّعريف. وأنا لا أراعي هذه القاعدة لئلاّ يؤدّى عدم ممارسة اللغة العربيّة لدينا إلى إلى الظنّ بأنّ ال التّعريف جزء من الاسم، فلذلك أنا أكتبه دوماً كما لو كان متصلاً بأسماء تبدأ بحروف قمريّة لا تغيّر من لفظه، وخصوصاً أنّ التّغيير الحاصل ينجم عن كيفيّة النّطق وليس عن كيفيّة الكتابة. لهذا السّبب كنتُ ألتزم بما ينبغي في كلّ مرّة تفترض قواعد النّحو العربيّة، بلفظ اسم السّرحان، والطّبيق، والصّوّان، إلخ.. بدلاً من لفظها على هذا النّحو: الـ - سرحان، الـ - طبيق، الـ - صوّان، إلخ.

---

(1) يعدّ المؤلف عمل الغزو ضرباً من ضروب اللصوصيّة لأنه لا يفقه روح البداوة وشظف عيشها ومعانـي الفروسيّة التي تخالط الغزو. ولو كانت هذه الأعمال ضرباً من ضروب اللصوصيّة لما كانت ارتبطت بالشعر الرائع والقيم النبيلة التي خلدتها قصص البداوة، وفيها معانـي الإباء والوفاء والشهامة والنّجدة والرّجولة.

(2) تأبّط شرّاً والسّليك بن السّلكة من أشهر الشعراء الصّعاليك في الجاهليّة.

(3) الثّمَد نسبة إلى فندة الثّمَد من آل الخريشا، إحدى فرق بني صخر المعروفة.

كنّا وصلنا إذن إلى وادي التَّمَد، حتى دون أن نلاحظ ذلك، عندما شذّ حصانـي عن الطريق، إذ جفل من منظر ثعلب ميّت مطروح على الطريق، فعادت إلى ذاكرتـي فرضيّةٌ كنتُ وضعتُها في جولة سابقة: إذا أخذنا بالحسبان أنّ وادي التَّمَد لم يتحوّل إلى سيل من النّهر الذي كان عليه فيما مضى من العصور إلاّ منذ أن حفرت مياه نبعه عند جريانها مهداً لها تحت الأرض. ثمّة أكثر من مئتي بئر حُفرت في مركز مهده الأعلى الذي تحوّل في رأيي عنه، فالماء يوجد على عُمق بضعة أمتار فقط، ومن غير المُجدي حفر الأرض على أطرافه على عُمق يبلغ ثلاثة أضعاف ذلك. وفوق ذلك، أكّد لي كثيرون من النّاس مراراً بأنّ الأشياء التي تسقط في أحد الآبار الأقرب مسافةً إلى حيث يُعتقد أن منبعه يوجد، يتمّ العثور عليها ثانيةً في المناقع التي تصل إلى ماء أحد الآبار البعيدة عنها.

[في مضارب بني صَخر بوادي السّرحان]

لم نتأخّر في الوصول إلى مضارب بني صخر. في بيت الشّعر الأوّل قمنا بالتوقّف لبُرهة من الوقت، من أجل الحصول على المعلومات الضّروريّة لكي نتمكّن دون إضاعة الوقت من العثور على بيوت الشيوخ من آل الفايز، اللواتـي كما توقّعنا أنها موجودة على ضفاف القْليطة. وبما أنّه كان من المستحيل علينا الوصول إليها قبل ضحوة الشمس، فلقد اكتفينا في هذا اليوم باجتياز السَّبخة وبقبول عزيمة أوّل من يدعونا، في المضرب الذي يقطع الدّرب على الضفّة اليسرى من هذا الجدول. والماء الرّاكد في السَّبخة كان متجمّداً.

مهما بلغ فقر البدوي، عليك أن تبقى على كامل اليقين بأنّك عندما تدخل بيته لا يمكن أبداً أن تمضي الليلة دون أن تتعشّى. وفي العشائر الصغيرة والفقيرة يتمّ استقبال الضيوف على الدّوام في بيت شَعر مُضاف إلى البيوت، وتتناوب على الإنفاق عليه في كلّ يوم أسرة مختلفة. أمّا لدى العشائر الكبيرة، فرغم أنّ في كلّ منزل للمضارب بيت للضيوف، فإنّ كثيراً من العرب من أجل نشر صيت لهم بفضيلة الكرم لا يتركون لأيّ عابر سبيل فرصة الاقتراب من هذا البيت المخصّص للضيافة، بل يأخذونه حتى بالقوة إلى بيوتهم.

كان هذا ما حصل معنا بالضبط، فلقد لبّينا دعوة أحد أشهر محاربي بني صخر (أو الصّخور) ويُدعى مْزَيْن، وقام أحد أبنائه بإيقاد النّار من بَعر الجمال والجذور اليابسة في الحفرة التي يبلغ حجمها 60 إلى 75 سنتمتراً مربعاً، وعُمقها 20 سنتمتراً، والتي كما هي العادة لدى جميع البدو الرُّحّل توجد في القسم المخصّص للرّجال من بيت الشّعر.

خفّت امرأته لجمع كميّة وافرة من الحطب، أمّا هو فقد أخذ بيده اليُسرى بعُرف فرسه التي جلبها له بعض أهل بيته، واتكأ على الأرض برمحه الذي كان يقبضه بيده اليُمنى، وطفر بقوّة على صهوة الفرس دون أن يستخدم الرِّكاب، وذلك لأنّ القتب الذي كان موضوعاً على الفرس لم تكن له ركائب. وانطلق الرّجل يعدو بفرسه سريعاً نحو تلّة غير بعيدة كثيراً وسُرعان ما توارى عن الأنظار خلفها. وعُقب ذلك عاد سريعاً ومعه جدي تمّ ذبحه.

لقد لاحظتُ أنّه حسب عادة البدو أجمعهم تقريباً، لم يقم أبداً بوضع اللّجام على فرسه قبل امتطائها، بل إنّه استخدم لقيادتها العِنان (الرَّسَن). والخيل لا يتمّ لجمها إلاّ في وقت المعركة، وذلك أنّ المطيّة التي لا شكيمة عليها تتمكّن من التنفّس دون أيّ عائق، وبإمكانها العدو لمسافة أبعد وبسرعة أكبر. ولا يدهشني عدم وجود ركائب للسّرج، لأنّه من المتعذّر جداً الحصول عليها في البادية، وقلّة من الخيّالة من يكون بمقدورهم امتلاك سرج كامل العدّة.

[صفات نساء البدو]

لنساء البدو في العادة شعر كستنائي أو أسود، غير أنّني رأيتُ امرأةً أتت إلى المضارب، وهي تنوءُ بحِمل من الحطب من شأنه أن يهدّ كاهل مطيّة تامّة القوّة، وكانت تلك المرأة ذات شعر أشقر. ووجود الشقراوات في بني صَخر ليس أمراً معدوماً. وسواءٌ كنّ شقراوات أم سمراوات، فلهنّ جميعاً مُحيّا أجمل من بقيّة نساء البدو، لدرجة أنّه قد يظنّهن بعض النّاس من قرويات الكَرَك أو السَّلط.

لم تؤخّر ملاحظاتي الجدي عن النّضوج، وتمّ تقديمه لنا مسلوقاً ومقطّعاً قطعاً صغيرة في نوع من قصعة كبيرة، وإذ لذعتنا حرارة الطعام، رحنا نتهاهل في الأكل قليلاً، كلٌّ حسب شهيّته. وكنتُ ربما الوحيد الذي راح يفكّر (ما بين حُرقين أصابا حلقي) بفائدة أشواك الأكل. انتهى العشاء، ولم يبق حينها مزيد من الماء لنغسل به أيدينا، فخرجنا من بيت الشَّعر وبعد أن أمعنّا بلعق أصابعنا رحنا نمسحها بشقق البيت العلويّة والجانبيّة، وعُدنا لئلاّ نتأخّر على الإخلاد للنّوم. استلقينا ورؤوسنا تستند كيفما كان إلى أقتاب البعير، التي كانت كلّ ما أمكن مْزَيْن البطل الفقير تقديمه لنا من وسائد.

* * *

[الوصول إلى آل الفايز مشايخ بني صخر]

صبيحة اليوم التّالي، ضيّعنا كثيراً من الوقت في وسط عدد لا يُحصى من المضارب التي أعاقت المسير على الطريق، وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق عندما وصلنا إلى الشيوخ من آل الفايز[1] في القْليطة[2]. كان هناك كثير من بيوت الشَّعر ذوات الأعمدة الأربعة أو الخمسة[3]، والتي يبلغ طولها من ستة عشر إلى عشرين متراً، وعرضها لا يتجاوز ثلاثة أمتار ونصف. وظهرت بالقرب منها خمسون فرساً مُسرجة، غير أنّ أعنّتها كانت مرخيّة، وتبدو غير مشكولة على الإطلاق، فلقد كان حبل الرَّسَن ممرّراً ما بين قائمتي الفرس الأماميّتين، ومربوطاً بأسفل عُرقوب السّاق اليُسرى من الخلف. هذا الرّباط من شأنه ألاّ يمنعها من الجري، لكنّه يُعيق حرّية حركتها، ويكون من السّهل ردّها إن ابتعدت.

---

(1) ينقسم بنو صخر إلى فرق: الجبور، الخريشة، الفايز، الزَّبَن، الخضير، الهقيش، الطيب. وآل الفايز المشايخ من الغبين من الطوقة من بني صخر من طيّ من كهلان، وينقسمون إلى 12 فندة: الفَندي، الجنيبات، البَخيت، النّمر، المحمود، القعدان، الكنيعان، الصّقور، الغوري، الدّعاك، الشوشان، المطيرات. ونخوتهم العامّة: «راعي الشّعثا».

(2) أي وادي القْليطة (لجنة التحرير).

(3) حسب تعبير البدو تسمى: بيت مروبع، أو مخومس.

وإمعاناً في الحيطة ولمنعها من الجري، يقومون بربط السّاقين بشكل أكثر وثوقاً، أي السّاق الخلفيّة التي ذكرتُها، والموازية لها في جهة الأمام عند أسفل الرّكبة. وحبال هذا الوثاق تحزّ في جهتي الأمام والخلف كلاً من الوبر والجلد، وتترك اللّحم في الغالب عارياً. ولمّا يبرأ القَرح، ينمو الوبر أبيض اللّون.

في اللّيل ينادي أصحاب الأفراس إيّاها بصيحات معيّنة، وهم يربطونها بقيود، ويتركون رأسها طليقاً. ويعقلونها إلى أوتاد بيوت الشَّعر، وبقُربها توجد على الدّوام الأحصنة الفُحول الموثقة، المُعدّة للهَدّ (النَّزو). وأمّا بقيّة الأحصنة فتُترك بعيدة عن الأفراس تحت حراسة عدّة أشخاص.

أمام بيوت الشَّعر تُرى مغروسةً في الأرض رماح مقاتلي الأسرة التي تقطن بها، وفي الجهة المخصّصة للرّجال توجد خيام الضّيوف. وهذه المضارب المنتشرة بغير انتظام هي تجمّع لأُسر آل الفايز ذوات المكانة المرموقة. كان جميع شيوخ هذه الفَندة موجودين هنا، باستثناء الشيخ شلاش البَخيت[1] الذي كان رحل قبل بضعة أيّام إلى الطَّفيلة. ولقد أدركتُ غيابه من خلال رؤيتي لبيته الذي يتوسّط جميع البيوت الأخرى في مركزها، دون أيّ رُمح يدلّ على أنّه في البيت. ولمّا تابعتُ المسير قُدُماً، رأيتُ من خلال عدم وجود الرّماح أنّه لم يكن ضيوف في بيت الشيخ عيد السّليمان كاتب العشيرة، وأخويه رميح[2] ونجم.

---

(1) أحد كبار مشاهير فرسان بني صخر على مرّ العصور، ورد اسمه بالغلط: Scelasco، ودوماً في النص هناك إشكالات بخصوص أخطاء قراءة اللجنة لخطّ جوارمانـي.

(2) كان يطلق على سليمان بن عوّاد بن ذياب بن محمد بن موح بن فايز لقب «أبو جنيب»، لأنه كان فارساً شجاعاً معتدّاً بنفسه وقوته يجتنب المضارب ولايخالط العرب في منازلهم. وتسمّى عشيرته «الجنيبات» أو «أبو جنيب»، ومنها الفارس رميح هذا الذي يذكره شاعر الرّوَلة وفارسها خَلَف الأذن بعد معركة «كون الشيحا»، في قصيدة طويلة منها:

يارميح وضح النيص ما عقبن شين　　　هنف الخشـوم ونابـيات السّـنامى

ويروى أن رميحاً أصيب في رجله في إحدى المعارك فربط رجلة بعليقة الفرس، وظل يطارد القوم حتى تغلّب عليهم. ولما سجنت السلطات التركيّة بعض أفراد قبيلة بني صخر بسبب امتناعهم عن دفع الضرائب، قام رميح وجماعة معه بالهجوم على السّجن لفكّ أسر السّجناء، إلا أنه وقع بعد معركة ضارية في الأسر، وقررت السّلطات نقله إلى إستانبول لمحاكمته وإعدامه. فاستنجد أحد الشعراء بالفارس عقاب البَخيت لنجدة رميح، فقال:

لذلك، كيلا أتمادى في إزعاج الشيوخ الآخرين، والتزاماً بقاعدة العُرف البدوي، اخترتُ هذا البيت لأكون في ضيافته. سوف لن أكرّر ذكر كيفيّة الاستقبال الذي لقيتُه هنا، فهو ذاته بالنّسبة لجميع الضيوف، ولا يختلف البتّة عمّا هو شائع لدى بقيّة البدو. ويكفي أن أذكر بأنّ طريقة التّقبيل لدى بني صخر تكون بطبع القبلات على الوجه، بينما يومي التّعامرة بها إيماءً. وأيضاً بما أنّهم أكثر ثراءً من بني حَميدة، فهم يقدّمون الخرفان بدلاً من المعز أو الجدايا. وكذلك أضافوا أرزاً مطهوّاً بالماء ثمّ أضيف إليه السّمن. وهذا الأرز يؤكل بثلاثة أصابع: الإبهام والسبّابة والوسطى، ويتمّ كبسه براحة اليد بأكملها وتكويره ودحرجته حتى يصبح بشكل كريّات صغيرة، ثمّ يتمّ نقفها في داخل الفم بظاهر الإبهام. وعندما ينتهي الغداء، يقدّمون لك صابوناً وماءً، وعند غياب الصّابون يتمّ استعمال الرّمل.

لدى بني صخر يُشرب حليب النّوق في الصّباح والمساء بوفرة، وهو أفضل حليب، والغذاء الوحيد الذي يمكن أن يحلّ محلّ الماء والخبز ويقي من غائلة الجوع. وكذلك من بين الأطعمة الأخرى التي تؤكل هنا الخبز والعجّة المحلاّة، وفي المناسبات المهمّة يؤكل لحم الجمل، وطعمه أقلّ كراهةً ممّا يظنّ كثير من الرّحّالين ويأبون التّصديق.

أرجو ألاّ يتفاجأ القارئ من أنّني حتى الوقت الحاضر لم آتِ بذكر القهوة التي هي حياة البدوي، كالهواء الذي يتنفّسه. وبنو صخر الذين يمتازون بشهيّة أكثر من كثير من بقيّة العشائر، يؤثرون القهوة السّوداء، وهي القهوة الحقيقيّة المرّة الطعم، ولديهم سواها «القهوة البيضاء». وذلك أنّهم يشربون محلولاً مغليّاً من القرفة وكبش القرنفل والسكّر ويسمّونه القهوة البيضاء. والقهوة مشروب منبّه جداً، فعلى الضيوف الفطنين أن يتجنّبوها ما أمكن.

ياعقـاب وين ظـلالنا بالسّمومي	قوطر بياري حصنهم والأكاديش
رميـح نـزّال المخـافـات دومـي	تتليه زومات الظعـاين تقل هيش

وبالفعل قام بنو صخر بإنقاذ فارسهم رميح وأبناء عمه من أسر الأتراك. وتوفي رميح رحمه الله عام 1914 م.

[صيد الغزال]

وبنو صخر بدو أقحاح، فهم لا يبيعون سَمنهم، الأمر الذي يُعدّ عيباً، بل يستبْقونه لأجل الضيوف. وهم يربّون ويدرّبون للصّيد الكلاب السّلوقيّة والبواشق والصّقور. ويصطادون الغزلان والفهود طرداً عن ظهور الخيل. وصيد الغزال أمرٌ معروف تماماً بما لا يلزم الحديث هنا عنه(1)، وأمّا صيد الفهد الذي يظنّ البعض أنّه أمر بالغ التشويق، فهو على النّقيض من ذلك أقلّ تسليةً، فليس هناك عديد من الحيوانات يمكن عدّها أكثر جُبناً منه.

[المؤلف في مغامرة صيد الفهد بالقليطة]

بعد يومين من وصولي إلى القْليطة، وبعد أن أوكلتُ إلى محمّد أمر تهيئة ما يلزم من أجل رحيلنا، قمتُ بطرد الفهد مع بضعة خيّالة ذوي أفراس طيّبة. فقادتنا الدّروب التي تمّ استكشافها في العشيّة مساءً إلى وجار الفهد. ولحظة أن أبصر بنا الحيوان، انطلق هارباً بجميع ما أوتـي من قوّة وبسرعة لا تُصدّق. وفي أقلّ من ثلاث دقائق لحقنا به، ولشدّة اضطرابه وإرهاقه ارتمى على جانبه، وراح يهرّ بقدر ما يستطيع ويكشّر عن أنيابه ليخيف الخيل، فأحجم العديد منها عن الاقتراب منه. فلزّ أحد الخيّالة رقبته بسِنان رُمحه، وترجّل آخر عن فرسه فداس بقدمه على السّنان، أمّا الخيّال الأوّل الذي انثنى دون أن ينزل عن مطيّته فقد أحنى إلى الأرض قناة رُمحه وثبّتها بإحكام. وهكذا تمّ قبض الحيوان! ثمّ تمّ تقييده وحمله، واقتيد إلى المضارب حيث يتمّ سلخ جلده، بعد أن يشبع منه الصّبيان عبثاً، وتروي النّسوة منه فضولهنّ.

---

(1) كان صيد الغزال في أيّام جوارمانـي معروفاً، وأمّا اليوم فلا بد من إيضاح طرق صيده في البادية قديماً: فعدا عن اصطياده بطريق القنص بالكمائن أو الطرد بالخيل مع الاستعانة بالكلاب أو الفهود، لكن أشهر طرق صيده كانت بما يُعرف قديماً بـ «النّوجة»، وهي نوع من حُفر يكمن بها الصيّادون للغزلان. كما كانت تُعمل مصائد مبنية على شكل جدران في الحزون التي تسلكها قطعان الغزلان، تدخلها عن طريق طردها باتجاهها فمتى دخلتها لم يعد بمقدورها الخروج منها. «البدو والبادية» لجبّور، ص 287-290.

خلال الأيّام الثلاثة التي أمضيتُها في القْليطة، أمكنني بيُسر تأمين جملة احتياجاتي لأجل رحلتي الطويلة. وكان عيد السّليمان، الذي قدّمتُ له زوجاً من المسدّسات كهديّة، قد أعطاني بالمقابل ذَلولاً من بنات «عْديهان». وقمتُ بشراء ذَلول أخرى من أجل خادمي، كما قمتُ باختيار واحد من خُدّام الشيخ فَندي الفايز، فانتقيتُ شاباً نحيل القَدّ جسوراً وذكيّاً، يُدعى الدّريبي، لكي يكون لي بمثابة دليل و«رفيق».

لّما كنتُ متمرّساً بمشاقّ البادية ومغامراتها، وأعرف تقريباً جميع كبار شيوخ عشائر البدو الرُّحّل في بوادي الشام، فلقد كان بإمكاني دون أيّ تهوّر أن أستغني عن المرافقة المكلفة للغاية لرفاق السّفر العنزيّين أو الشمّريّين، الذين يحتاجهم جميع الرّحّالين الآخرين قطعاً. وكان بوسعي أيضاً في بعض الأوقات أن أستغني عن هذا الدّليل، لولا أنّني رغبتُ أن أُظهر نفسي في نَجد تحت حماية شيوخ بني صَخر الأقوياء. كما أنّني من جهة أخرى كان ينبغي لي التفكير في التّخفيف قدر الإمكان من الأعباء المُلقاة على عاتق خادمي. وعلى ذلك لم يكن أمر وجود رفيق ثالث لنا عند دخولنا في فيافي الصّحراء بالأمر الذي يمكن الاستغناء عنه ببساطة، لكي يؤازرنا في تولّي الحراسة (إذ أنّه يوجد على الدَّوام خطر الإغارة اللّيليّة من قِبَل بعض اللّصوص)، والمساعدة في رعي الأباعر، وجمع الحطب أو النّباتات اليابسة لإيقاد النّار، التي ينبغي عدم إشعالها إلاّ عندما تمنع تضاريس الأرض من رؤيتها على مبعدة.

ألجأني توخّي الحذر إلى أن أطلب من الشيخ فَندي الفايز رسالة توصية موجّهة إلى جميع شيوخ العشائر الصّديقة والحليفة لبني صخر. كما أرسل لي الشيخ طلال بن فيصل الشّعلان رسالة أخرى بواسطة رجل من عشيرة عتيبة مُستجير [بالرّوَلَة]، موجّهة للشيخ سُلطان بن ربيعان شيخ العتيبة الرّوقة في أواسط جزيرة العرب، وهما شيخان مستقلاّن ويشتهران بسطوة غزواتهما على أراضي أمراء نجد وعلى عشائر البدو التي تخضع لهم وتدفع الجزية. وفي رسالة الشيخ فَندي الفايز جرت الإشارة إليّ باسم «خليل آغا»، على اعتباري موفداً من الحكومة العثمانيّة، مكلّفاً بشراء الخيل في البادية.

[مقتل الشيخ فيصل بن نايف الشعلان]

كان طلال بن فيصل الشعلان منذ عدّة أيّام نازلاً ضيفاً على الشيوخ من آل الفايز. وكان أبوه فيصل الشعلان[1] قد قضى نحبه منذ بُرهة قليلة من جرّاء شُرعة الثأر، إذ كان قتل واحداً من رَبعه من آل المشهور، وراحت أسرة القتيل بأسرها تتعقّب خُطاه منذ وقت طويل، إلى أن فاجأته في بيت شَعره الذي بناه بغير احتراس بعيداً عن مضارب عشيرته. ويُحكى أنّ فيصلاً، الذي يشتهر صيته كواحد من أجسر المحاربين الذين يتناقل مآثرهم البدو، لمّا لاح له الخطر المُحدق به لم تتغيّر رباطة جأشه قيد شعرة، ورغم أنّه لم يلحق أن يلبس درعه، فقد وثب إلى القتال وثباً، وبضربة واحدة من سيفه قَدّ درع أوّل مَن صادفه وكتفه، وكان ذاك واحداً آخر من آله هو الشيخ عتّاب. ولكنّه أصيب بطلقة من مسدّس، ولمّا حاول القيام والدّفاع عن نفسه، عاجله الشيخ نهار المَشهور أخو القتيل الأوّل بضربة من سيفه على جبهته أطاحت بدماغه. ويُحكى أنّ نهاراً المَشهور تلطّخ وجهه بدم عدوّه.

* * *

يتألّف الدّرع البدوي من قميص ذي زَرَد حديدي وكُمّين قصيرين، ويتمّمه نوع من مِغفَر على شكل دَرَقة صغيرة يدعوها البدو «طاسة». وفي بني صَخر مئتا محارب يلبسون على هذا النّحو، ولدى عنِزَة عدد أكبر من هذا بكثير. وهم عادةً يجلبون هذه الدّروع من بلاد فارس، والعاديّة منها تأتـي من العراق. كما يوجد لدى البدو العديد من نصال السّيوف والخناجر الثّمينة التي تعود إلى طبّاعي الفولاذ القُدامى بدمشق، والطبّاعين المُحدثين بخُراسان.

(1) كان فيصل الشعلان الابن السّادس للشيخ نايف بن عبد الله بن شعلان، وبعد وفاة أبيه صار الشيخ العام للرّولة حَمَد، ثم أعقبه فيصل الذي حاز شهرة طبّقت الآفاق وأحكم سيطرة الرّولة حتى جنوبي دمشق في إقليم الجيدور، أو كما يقولون في النُّقرة. وحارب عشيرة الوُلد علي تحت قيادة شيخهم محمّد بن دُوخي بن سْمير. ثم رغب بعض شيوخ الرّولة مثل ابن معجل وابن جندل وابن مُجيد أن يتحالفوا مع الوُلْد علي، لكن فيصلاً أحبط خططهم وقتل قائدهم بَرجَس ابن مَشهور عام 1859 بيده، وهزم حلفاء محمّد بأجمعهم قرب مستوطنة بُصرى. وكان مقتله في 14 يناير من عام 1864 م. انظر: «عوائد عرب الرّوَلة» لموزيل في سلسلتنا.

عشيّة رحيلي هطلت السّماء بمطر مدرار. وجاء الجميع عندي يتعلّلون، لأنّ الأمطار في الشتاء يطول أمدها، والماء يمكث فترة أطول في الخَبرات الطبيعيّة على الدّرب الذي سأقوم بالتّرحال عليه. ثمّ في اللّيل هبّت ريح عاتية، فكاد بيت الشّعر الذي أنام فيه أن يهوي لمّا غمره الماء وتخلخلت جنباته بعنف. فأفاقت نساء الأسرة وخادماتها، وخرجن جميعاً لجذب الأطناب التي تشدّها ولتثبيت الأوتاد، وراحت أثوابهنّ الطويلة تتسحّب على الأرض الموحلة. أمّا الرّجال فلم يحرّكوا ساكناً.

❊ ❊ ❊

تُنسج شقق بيوت آل الفايز في الطَّفيلة وفي القرى التّابعة لها، وهي تُعدّ بمثابة جزء من الجزية التي يدفعها أهالي القرى في تلك النّاحية لبني صَخر لقاء الحصول على حمايتهم. ولهذا فإنّ جودتها لا تصل بأيّ حال من الأحوال إلى الأقمشة التي ينسجها التّعامرة لاستعمالهم الخاص، بل هي من النّوع الذي ينفذ منه ماء المطر. أمّا الأثواب الطويلة فهي تميّز نساء الشيوخ، وبما أنّ الاحتشام لدى الطبقات الرّفيعة يقتضي بأن تكشف النساء وجوههنّ ويغطّين أقدامهنّ، فلقد أصبح ذلك شيئاً من مزايا النّبالة.

يا لها من مزايا بائسة! فإنّ النّساء البدويّات، سواء كُنّ من ذوات الحَسَب أو من عامّة النّاس، ورغم أنّ لديهنّ عَبدات تخدمهنّ، مُجبرات على إقامة بيوت الشَّعر ونصبها، وعلى هدّها وطيّها، وعلى تحميلها وتنزيلها عن ظهور الدّواب، حينما يتعيّن إقامة المضرب أو نقضه[1]. هذا فضلاً عن أنّ عليهنّ التفرّغ لشؤون البيت جميعها، وحتى جمع الحطب والبَعر لأجل الطبخ، كما أنّ عليهنّ فوق ذلك تدبّر الوقت لتربية الأولاد ورعايتهم.

❊ ❊ ❊

---

(1) حول شؤون حياة البداوة لدى عشائر الشمال، وتفاصيل حياة الأسرة وكل ما يخصّ بيت الشّعر وأجزائه وكيفيّة نصبه ونقضه، خير بحث كان للرّحّالة التشيكي ألويس موزيل A. Musil في كتابه: *Manners and Customs of the Rwala Bedouins*، نجهزه للنشر.

[الرّحيل إلى تَيماء]

في يوم 3 فبراير عاد مُطلَق إلى جباله، وقدّمتُ له هديّة من الفضّة. أمّا نحن، فبعد أن حمّلنا أباعرنا ببعض الزّاد وبقِربة ماء (جُود) لكلّ منّا، دون أن ننسى العباءة البالغة الأهميّة المبطّنة بالفرو، المصنوعة من جلد الحَمَل والمبطّنة بصوفه، رحلنا إلى تَيما[1] Teime، تصحبنا الدّعوات الحارّة من آل الفايز. وسلكنا طريقنا وعلينا مُحيّا البدو الحقيقيّين، نرتدي ثوباً إضافيّاً وثياباً عاديّة، لئلاّ نُثير أطماع أحد فينا.

في يوم 11 فبراير، دخلنا أرض تَيماء من نواحي [وادي] أبو شرشوح[2]، ولم نعمد إلى إيقاد النّار على الإطلاق، فلقد كنّا مكشوفين للغاية ضمن نواحي جبال البلقاء. وقمنا بالتزوّد مجدّداً من خَبراتها الكبيرة بالماء بدلاً من من ماء القلْيطة الذي كان أقلّ نقاءً، حيث تستقي الأباعر، وماء هذه الخَبرات لا يبقى طويلاً يتأرجح في قِرَب الماء تحت الشمس المُحرقة إلّا ويفسد[3].

قبل أن نخلد إلى النّوم قمنا برعي الذّلائل، ثمّ جمعناها من جديد وأنَخناها الواحدة قرب الأخرى، وربطناها برُكَبها اليُمنى بواسطة حبل، لكي تمكث على هذا النّحو وتجترّ حتى الصّباح. غير أنّ أحد الأباعر، بالرّغم من هذا الإجراء الاحترازي، تمكّن من النّهوض وهمّ بالابتعاد، رغم أنّنا قد أوثقنا مأبضه (باطن رُكبته) على النّحو ذاته. وكانت ذلائلنا الثلاث من سُلالة كريمة ومعتادة على الغزو، لذلك تمكّنا من النّوم بأمان مطمئنّين إلى أنّها لن تصدر أيّة أصوات تكشف وجودنا. وكانت تلك الليلة باردة، حتى أنّ الطَّلّ (النّدى) راح يتساقط كالمطر.

---

(1) هذا بسبب البكتيريا الحيّة التي توجد فيه وتستمرّ في التّكاثر.

(2) هذا الوادي هو أحد روافد وادي المجر، انظر خريطة مسار الرّحلة تحت الرقم 1 (هيئة تحرير المجلة).

(3) هي المذكورة في خريطة كيبرت Kiepert باسم: Teimâ (هيئة تحرير المجلة).
قلتُ: وأهمّ رحّالة أوروبي ذكر تيماء ونواحيها من بعد رحلة جوارماني كان البريطاني تشارلز داوتي عام 1877 م في كتابه: *Travels in Arabia Deserta* «رحلات في بوادي شمال الجزيرة وصحاريها». سنقوم بنشره في هذه السّلسلة إن شاء الله في خطتنا الحاليّة.

[في وادي الشمّري]

بعدما نمنا لمدّة أربع ساعات، استأنفنا طريقنا. ولم نكن في مسيرنا نتبادل الكلام، وكنتُ أنا عاكفاً على بوصلتي من أجل تعقّب معالم الطريق على خارطتي، وأقوم بتحديد معالم الأرض والجبال المتاخمة، أمّا الدّريبي فكان يجري أمامنا لاستطلاع النواحي القريبة، وأمّا محمّد فقد كان يحثّ الخطى على مطيّته وهو يتذمّر في قرارة نفسه. وهكذا حتى وصلنا إلى وادي الشمّري، وقد أنهكتنا حدّة أشعّة الشمس، التي تتضارب بشكل بالغ في هذا الفصل مع البرد القارس الذي عانينا منه التّباريح في الليلة الماضية.

ظفرنا بفرصة فائضة من الوقت استغللناها لإقامة مخيّمنا. وبعدما أنزلنا الأحمال عن أباعرنا قمنا بتسريحها لترعى، غير أنّ هذه الحيوانات عندما تمّ حلّ عقالها شخصت بعيونها صوب عقبة حفرتها السّيول ما بين رابيتين وأحجمت عن المسير قُدُماً. فلمّا ساورتنا الشكوك أمعنّا النظر نحن أيضاً نحو الجهة المعيّنة، لكننا لم نتمكن من رؤية أيّ شيء على الإطلاق.

راح محمّد يضرب الأباعر بقسوة، غير أنّ هذه البهائم المسكينة بدت كأنها مقدودةً من رُخام، وكان أمراً غير اعتياديّ أبداً. تنامى قلق الدّريبي، أمّا أنا فلم أتوانَ عن الأمر بإعادة تحميل أغراضنا القليلة، ورحتُ حسب عادتي أشارك في العمل بيدي. امتثل الدّريبي للأمر وهو يُثني عليه، أمّا محمّد فقد امتثل دون أن يفهم ما موجب ذلك..

وبمجرّد أن امتطينا متن شدائدنا، هرعت أباعرنا تغذّ السير ناكصةً على أعقابها رجوعاً. قمنا بالتقهقر على طريق مجيئنا لبضع دقائق، وارتقينا الهضاب وعُدنا أدراجنا أكثر من مرّة، فلمّا لم نبصر شيئاً شرعنا في تبديد مخاوفنا، وعزمنا على هبوط الوادي، وإذا بنا على حين غرّة نسمع الصّيحات التي يطلقها الأعراب الرُّحّل لاستدعاء أباعرهم، وفي اللحظة ذاتها أبصرنا سُربة من هذه الأباعر تعدو من عقبة السّيل باتجاه وهدة مجاورة، ومنها خرج عدّة رجال من البدو، كان أحدهم يلبس درّاعة سابغة حمراء.

صاح الدّريبي: «غزو!».. وخفّ منطلقاً صوب الجبال. فتبعناه ولبثنا نعدو حوالي الرّبع ساعة، وفكّرنا أن هؤلاء الأعراب الذين لا نرغب بلقياهم، إن كانوا أعداءً فسوف لن يتمكّنوا من اللّحاق بنا مع سُربة أباعرهم، وبأنّنا كنّا قادرين على تكرار درس آخر الهوراسيين les Horaces في تاريخ الرّومان، وإرداء أعدائنا واحداً بعد الآخر.

عندما تأكّد لنا أنّنا قد ابتعدنا بما فيه الكفاية، وأننا صرنا بمأمن على المرتفعات التي احتللناها، كففنا عن مسيرنا السّريع لكي نرقب العدوّ المفترض. ويبدو أن هذا العدو قد قام بتقدير الأمر على النّحو ذاته، فبادر على جهله بتاريخ الرّومان إلى الابتعاد عن السّهل، مخافة أن نتبعه. كان موقعنا على هضاب المنكب الأيمن لوادي الشمّري، أمّا هم فقد ارتقوا هضاب المنكب الأيسر وراحوا يراقبوننا أيضاً من النقطة الأكثر بروزاً.

إنّ شرّ ما يصادفه المرء في الصحراء هم البشر، فعند رؤيتهم أو الإحساس بقدومهم علينا اللجوء إلى الهرب، ذلك لأننا لسنا في مكان آمن، وطالما أنّه ليس بمقدورنا معرفة إن كانوا بمفردهم أو وراءهم قومهم، فلسنا نعلم إلى كفّة مَن ترجح القوّة، ولذلك فإنّ من دواعي الحيطة حقاً أن نتجنّب لقياهم.

كان هؤلاء البدو الذين حَذَوا بالضبط مثالنا الجريء قد بدوا أكثر تخوّفاً منّا نحن. كانت تفصل ما بيننا مسافة نصف ساعة، ولذلك لم أتبيّن منهم سوى كتلة بعيدة مشوّشة، غير أنّ الدّريبي أكّد لنا أنّه رأى ضمن ما مجموعه خمسة أشخاص بعض النّساء والأطفال. أمّا محمّد الذي كان شبه أعشى، والذي كما أعتقد لم يرَ شيئاً، فراح يردّد كالصّدى أقوال الدّريبي.

بما أنّنا لم يكن لدينا مجال أن نمكث بلا حراك طويلاً، وبما أنّ الأسلحة التي بحوزتنا أعطتنا مزيّة إيجابيّة حتى لو كان مَن سيهاجمنا يفوقنا بثلاثة أضعاف، فلقد هبطنا إلى قاع الوادي. وكان هناك على الجانب المقابل للوادي عددٌ مماثل لنا من البدو. فلمّا وصلوا إلى مرمى بنادقنا، توقّفنا لأجل الدّخول في عملية استيضاح لحقيقة الأمر.

تمّ التعرّف إلى الدّريبي بأنّه من بني صَخر، وتبيّن هو أيضاً بعض معارفه من الشّرارات[1]، ولمّا كانت العشيرتان حليفتين فلم يكن ثمّة ما يُخشى عُقباه. قمنا بالترجّل عن مطايانا وتمّ تشكيل مخيّم واحد. وسُرعان ما انضمّ إلينا النّسوة والأطفال والرّجلان اللذان أتمّا العدد حتى خمسة أشخاص، تماماً كما خمّن دليلي الفطين.

أمّا الرّجل الذي يرتدي درّاعة حمراء فكان شاعر الرّجز الشّراري سليمان اللّيموني Limani، بينما كان البدويّان الآخران والنّسوة والصّبيان تتمّة العائلة. كان الفقر قد ألجأ هؤلاء النّاس إلى الخروج عن عشيرتهم، فيمّموا وجوههم شطر عشيرة بني صَخر، عازمين على الإقامة في كنفها، لعلمهم بأنّ بدو الشمال يؤثرون كثيراً ويقدّرون مَن كان شاعراً على مثال Euterpe أو Erato أو Caliope أو Polymnie، ويمنحونهم دوماً مكافآت مجزية. أمّا لدى الشّرارات الذين هم بأسرهم شعراء، فإنّ هذا العجوز الفقير قد أضحت عليه المنافسة أمراً لا يطاق، ولربما أنّه حينما رأى قصائده لم تعد تحظى بالمديح كالسّابق، فإنّ موهبته الشعرية راحت تضمحلّ مع الأيّام، ممّا أدّى به في النهاية إلى السّخط.

أصرّ الشّرارات على أنّنا في هذه الليلة ضيوفهم، فأجبرونا على دخول خيمتهم البائسة بعدما طردوا منها نساءهم وأطفالهم، وبذلنا ما لا يُحدّ من الجهد للتوصّل على الأقل إلى السّماح للأطفال بالعودة إليها للنّوم.

كانت وليمة احتفالنا تتألّف من السِّمح المسلوق، وهو نوع من الحبوب، ومن حليب النّوق. وأقول وليمة لأنّ سليمان اللّيموني أخذ ربابته وارتجل قصيدة طويلة، فأثار شهيّتنا بالصوت الأجشّ لآلته الموسيقيّة والقافية الرّتيبة لأبياته الشعريّة، التي كانت الكلمة الأخيرة لكلّ منها يتمّ ترديدها كلازمة على الأفواه غير المشغولة بالأكل لأفراد أسرته، وبين كلّ لقمتين لمرافقَي.

---

(1) الشرارات من عرب وادي السّرحان والجوف، يلوذون بالعشائر القويّة المرهوبة الجانب كبني صخر والرّوَلة. لهم 4 أفخاذ رئيسيّة: الخَلِسَة، الضباعين، الفليحان، العزّام. انظر: تاريخ شرق الأردن وقبائلها، اللفتنانت كولونيل فريدريك ج. بيك، ترجمة بهاء الدّين طوقان؛ العشائر الأردنيّة والفلسطينيّة ووشائج القربى بينهما، أحمد أبو خوصة.

في صباح اليوم التالي، ألقيتُ بضعة قروش في أيدي اثنين أو ثلاثة من أصغر الصّبيان. فلمّا رأى الشاعر العجوز في ذلك شيئاً كبيراً من الأريحيّة، رغب بتقبيلي وسمحتُ له بذلك، رغم غمزات الدّريبي، الذي عدّ هذه القُبلة من شراري لآغا تُركي تشبه كما لو أنّ قُبلة في الهند وجّهها لأحد كهنة براهما المقدّسين أدنى فرد من طائفة المنبوذين.

في الأيّام الأربعة التالية لم يكفّ المطر عن الهطول. ولمّا تعذّر علينا العثور على ملاذ نلتجئ إليه، فلقد قرّرنا ألاّ نخسر شيئاً من الوقت وبأن نغذّ السّير على الطريق المباشر. كنّا نسير ونحن نرتدي معاطفنا المصنوعة من صوف الخراف، والتي كان جلدها معالجاً جيداً بالزيت. فلمّا كنّا نضعها على رؤوسنا كانت تؤدّي دور المظلّة، كما أنّ معطفي مكّنني من تدوين بعض الملاحظات المهمّة. أمّا اللّيل فكان بالنّسبة لنا ضرباً من العذاب، يسهل تخيّله بقدر ما يتعذّر وصفه.

ثمّ في ختام اليوم الرّابع، تمكّنا من رؤية زرقة السّماء في فُرجة من الغيوم، بفرحة لا تعادلها فرحة نُوح النّبي عندما لاح له في السّماء قوس قُزح. عثرنا على ملجأ نلوذ به، غير أنّ النّباتات المبتلّة لم يمكن إشعالها. وبرغم ذلك، لم نكد نسعد بأنّنا لم نعد مضطرين للتعوّق بفعل المطر الذي توقّف الآن، حتى أمضّ بنا البرد الشديد الذي مصدره الرّيح الشرقيّة Scerkie.

طلع النّهار ومعه أشرقت الشمس، وهذا ما جعلنا ننعم بالبِشر. وراحت جمال الشّرارات التي باتت الليل في وديان فِجر ترعى في سفوح الجبال.

[عند الشيخ الشراري سليم اللّحاوي]

سألنا أوّل مَن صادفناه من الرّعاة عن خيمة سليم اللّحاوي[1]، وهو أغنى شيوخهم وأوسعهم جاهاً. كانت السّماء سديميّة على نحو يكفل لنا ما يكفي من أشعّة الشمس، وبما ينأى بنا عن خشية هطول المطر، ولكنّها عادت تفيض بماء مُنهمر، وكان من دواعي حظّنا أنّ ذلك صادف وصولنا.

(1) شيخ الجوابرة من فخذ الفليحان من الشّرارات. ويرد الاسم في النصّ: Selim el-Kani.

كان سليم اللّحاوي الوحيد من بين بضعة مئات من الشّرارات الحاضرين الذي يلبس تحت عباءته قميصاً، ولكنّه كان متّسخاً جداً. وكان أطفاله يرتدون أسمالاً كباقي البدو الآخرين في العشيرة. كان بعض أولئك الشّرارات البائسين عارياً تماماً، وبعضهم الآخر يلبسون عباءة كان طرفها الأيسر السّفلي مرفوعاً وممرّراً ضمن الحزام، مع أشرطة من الجلد أضيق قليلاً تنسدل على حقويهم، وكان قسم كبير منهم يزيّنونها بالقلادات والتّمائم، إلخ..

هؤلاء البدو يذكّرونني بالنّقد الذي تمّ توجيهه إلى نحّاتنا الإيطالي الكبير الفارس ديني Dini، بخصوص التشكيل الفنّي الرائع من الجصّ الذي قام بنحته في تورينو، والذي يمثّل بدوياً يعانـي سكرات الموت ويتكئ إلى حصان جريح. أمّا الحصان فيمثّل السّلالة العربيّة الأنقى، وهو يفوق بشكله وبتعبيره، لا أقول حصان الجرّ للتمثال ذي الجواد الذي يمثل كارلو آلبرتو Carlo-Alberto والذي أبدعه الفارس ماروكيتّي Marochetti، بل يفوق حصان الحرب الحقيقي للتمثال البديع ذي الجواد الذي يمثّل إيمانويل فيليبرتو Emmanuel-Philiberto، الذي عمله ذاك النحّات الشهير. لقد كان البدوي عارياً، وكان عُريه هو ما أثار عليه النّقد! فيا ليت نقّادنا يأتون إلى مضارب الشّرارت، ليروا بأمّ العين كيف أنّ التشكيل الفنّي للنحّات ديني لا يحمل أيّة مبالغة.

* * *

أمّا نساء الشّرارات فهنّ يتّخذن من عباءاتهنّ قميصاً بلا أكمام، ومنهنّ عدد قليل جداً يلبسن كباقي العرب الرُّحّل. وقماشة المنديل المربوطة بالعقال التي يضعنها على رؤوسهنّ تغطّي القسم الخلفي من الرأس، أمّا من الأمام فتطلق شعورهنّ الطويلة الرائعة التي تنسدل بخصلها على أكتافهنّ ومنها تنسدل إلى رُكبهن. وكما لدى بني صَخر، فليس وجود الشقراوات هنا بأمر نادر.

إنّ الشّراريّات أجمل نساء البدو، من بعد العُدوانيّات الرّائعات في البَلقاء. وهنّ يعشن حياتهن على نمط ذُكوري، إذ يستقبلن الضيوف ويضيّفنهم في غياب أزواجهن وأهليهنّ، ويحدّثنهم ويظهرن أمامهم دونما حَرج.

وبما أنّ مجيء شخص غريب إلى بيت الشعر الخاصّ ببعضهنّ أمر نادر الحدوث، فبمجرّد أن يأتـي الضيف يلفي نفسه محاطاً بكافّة نساء المضارب، فترى الصّبايا الفتيّات يستندن إلى الشقّة التي تقسم بيت الشعر إلى حجرتين، أمّا النّساء المتزوّجات فيدخلن إلى حيّز الرّجال، بينما ترى العَجايا الصغيرات منهنّ يندسسن حيثما أمكنهنّ.

أمّا الرّجال فلهم أيضاً طلعة حسنة وقويّة، وهم يحبّون للغاية النّوم في الهواء الطّلق، ولذلك فإنّ النّدى الذي يكثر بشكل وفير في ديرتهم يصيبهم ببحّة في الصّوت دون أن يصيبهم بالرّشح والزُّكام. وفي الشتاء يندر أن تجد رجلاً إلاّ بصوت أبحّ.

إذا كان بنو كلب الذين يؤكّد بوركهارت Burckhardt، على ذمّة بعض الأعراب أنّهم موجودون على مقربة من وادي الدَّواسِر ويعيشون على مثال الشّرارات، فينبغي أن يكونوا مثل هؤلاء ذوي صوت أبحّ على الدّوام، ولربّما كانت هذه الخاصيّة هي التي أدّت - بشيء من المبالغة - إلى انتشار الشائعة بأنهم ينبحون كالكلاب، ومن خلال ذلك حتماً تمّ ابتداع القصّة المنحولة عن أصلهم والتي تقول بأنّ الجدّ الأعلى للشّرارات كان كلباً[1]. وأنا لا أنكر بأن الشّرارات ينحدرون من بعض بطون بني كلب، بل ينبغي أن يكونوا فعلاً من بني كلب الذين تعود أصولهم إلى بني قُضاعة في اليَمَن، وقد نزلوا في حوالي القرن الثانـي للميلاد في دُومة الجَندَليّة، التي تقع على مقربة من هنا.

قدّم لنا شيخ وادي الشّمّري الثريّ العشاء ذاته الذي قدّمه لنا الشاعر الفقير، وحده حليب النّوق كان أفضل من ذاك، ذلك لأنّه لم يضعفه عناء التّرحال كما هو الحال مع ناقة اللّيموني. كان دسم هذا الحليب قشدة حقيقيّة مخفوقة يمكن أكلها بخنصر اليد، فأشبعتنا قبل أن نبادر إلى شرب بضعة جرعات من الحليب.

---

(1) أساطير تافهة، ومراراً ما يحرجنا الرّحّالون الأجانب بترداد مقولات مغلوطة تحمل إساءة إلى بعض العشائر. لكننا نطلب من القارئ اللبيب أن ينظر إليها على أنها من خبال العامّة. أمّا كلب فهي من كبريات قبائل اليَمَن، هاجر كثير منها مع الفتح الإسلامي إلى بلاد الشام.

[سهرة القصيد البدوي لدى الشّرارات]

كان سليم اللّحاوي الوحيد الذي لم ينبري يقرض الشعر ارتجالاً[1]، فيما راحت النّساء، وسط قهقهة ضحك الحضور، والصّبيان الذين يردّدون الأوجه المختلفة للألفاظ، يقاطعون الارتجالات الشعريّة اللامتناهية لشيخ عجوز من أقارب اللّحاوي.

أمّا الدّريبي، فلمّا دبّت فيه الحميّة راح يحاول تقليد الأناشيد التي أرهقتني بضجيجها، وبثّت فيه الحماس، فقام بتأليف قصيدة *casside* لم يقابلها الشّرارات بالتّصفير استهجاناً على الإطلاق، هذا لأنّهم ليسوا معتادين على أساليبنا المتّبعة في المسارح، بل راحوا يقاطعونها متضاحكين لكي يولّي بها عن أسماعهم. وبغية معاقبته على تماديه، راحت النّسوة يُشرن إلى أغلاطه بإعادة تشطير أبياته واحداً إثر الآخر، وقُمن بتأليف قصيدة أخرى في الموضوع ذاته، كان الدّريبي لها أوّل المهلّلين.

قبل أن ينام، رغب محمّد بشرب بعض الماء من قِرَبنا، ذلك أنّ حليب النّاقة قد أصابه بالإسهال في الأمس، وعافت نفسه تناوله. فإذا بالصّبيان الحاضرين يصيحون مستنكرين هذه الفعلة الشّنعاء وحاولوا منعه. إنّهم لم يتمكّنوا من فهم كيف يمكن لأحد ما شرب الماء حينما يكون الحليب حاضراً. وأكّد له كثير من العجائز أنّهم طوال حياتهم لم يشربوا الماء قطّ. وسألته النساء إن كان يشعر بالغيرة من الهجن، فما كان من المسكين إلاّ أن أقرّ بذلك كاذباً للخروج من هذا الموقف المحرج، أو متشاجراً مع الدّريبي الذي راح ينفجر ضاحكاً أكثر من الآخرين، لكي يثأر لنفسه على حساب محمّد عن الخيبة التي لحقت به. وغلب على ظنّي أنّه من غير المجدي أن أطلب من تابعَي الهزليين[2] التزام جانب الهدوء.

---

(1) لكن برغم ذلك كان سليم اللّحاوي شاعراً كما يؤكّد ربعه، روى لي أحدهم قصيدة مطلعها:

يا بكرتـي فاخت هـوايه هواها   مدّوا بها اللّي يبطنون المشاريف

(2) استعمل المؤلف عبارة: Sancho، وهو اسم التابع الطريف السّذج لدون كيخوته دي لا مانتشا (سانتشو بانثا)، في رواية ثربانتِس الشهيرة.

لم تكن محادثتي مع سليم اللّحاوي باعثة على الاطمئنان، إذ أنّ الأخبار التي جاءته من نجد كانت سيّئة. لقد دخل فيصل بن [تُركي] في حرب مع قبيلة عتيبة. كما أرسل طلال بن رشيد عمّه عُبيداً في غزو على الرّوَلة، وأعلن عن حملة في مطلع الرّبيع سوف يقودها بنفسه. كانت نيّة حاكم جبل شمّر تنطوي على خطر محيق بالشّرارات، ولكن ذلك لا يطال سليم اللّحاوي وربعه. فلقد كان بقيّة الشّرارات قد رفضوا دفع الجزية وعصوا في وجه ابن رشيد، بينما قام سليم بدفع ما يترتّب عليه بالضبط، فهذا ما جعله بمثابة المحايد ما بين الحاكم الذي يتبع إليه وبين بقيّة عشيرته.

كما جاءه خبر أكثر إقلاقاً في اليوم ذاته، يعلمه بأنّ عسكراً لجباً من الشّويهات يقوده طلّاع أبو شَمّا قد ظهر على بُعد مجرّد ثلاث ساعات من تيماء بجهة الغرب منها، ويُخشى أن يهاجموها في الصّباح. ذلك أنّه قبل شهر مضى كان قد قام بالتّوغّل في ديرتهم ووصلته أنباء عن وجود مغانم جزيلة. وضمن هذه الأحوال المُقلقة لم يكن بوسعه لا مرافقتي إلى تيماء، ولا منحي مرافقة تأخذني إليها، كما طلب إليه الدّريبي باسم شيخ الطّوقة فَندي الفايز.

مكث عجوزان من الشّرارات سهرانين اللّيل بطوله لكي يوقدا النّار. ولمّا لاحت تباشير الفجر، رحلنا بغير وداع وبغير تقديم الشّكر، فهكذا هي العادة المتّبعة.

[الرّحيل إلى تَيماء]

لم يكن لدينا خشية من الشّويهات، الذين هم أصدقاء لبني صخر. وكان الجو قد صار رائقاً. وبعد مضيّ يومين دخلنا تَيماء، لكنّ ذلك لم يجرِ بغير مشقّة أخيرة: فإنّ أباعرنا التي أرعبتها أبراج أسوار المدينة أحجمت عن الاقتراب منها، ولم تفلح الملاطفات ولا ضربات المحجان في حملها على التقدّم بأيّ نحو. ولحسن حظّنا أخيراً أشفق علينا بعض القرويين فأتوا صوبنا بدرزن من النّوق، ثم عادت هذه البهائم على أعقابها، فتبعتها جمالنا، وعلى هذا النّحو تمكّنا من قدع ممانعتها وحملها على الدّخول كالخراف إلى الحظيرة.

رفضتُ النّزول إلى المَناخ Menak، أي الدّار المخصّصة لاستقبال الأغراب، وطلبتُ أخذي إلى الأمير ابن رُمّان. كنتُ بشكل مُسبق قد أرسلتُ الدّريبي لتقديمي بالاسم الذي تبنّيتُه «خليل آغا» Kalilaga، وبصفتي ناظراً لإصطبلات صاحب المعالي فؤاد باشا. لعلّ هذا الصّدر الأعظم، ذا الشّهرة الواسعة من خلال الأعمال الجُلّى التي قدّمها، يغفر لي بشكل مؤكّد هذه الكذبة، بالنّظر إلى النّجاح الباهر لرحلتي المليئة بالمغامرة.

كان الأمير رُمّان رجلاً قصيراً في السّتّين من عمره، مكتنز الجسم سميناً، ذا وجه أحمر، وخصره يدلّ بكلّ وضوح على أصله البدوي. استقبلني بحفاوة ظاهرة وترحاب حقيقي. وكانت صفتي كموظف تركي لتعفيني من واجب تقديم أيّة هديّة إليه، غير أنّني حرصتُ على ترغيبه ببعض الأغراض ذات القيمة اليسيرة التي جلبتُها، وأرغمتُه على أن يقبلها منّي. أمّا من جانبه، فقد أبدى كثيراً من الاستعداد لإعطائي كافّة المعلومات التي طلبتُها منه.

على هذا النّحو، فإنّني قبل أن أدخل نطاق نجد الشّمالي، تمكّنتُ من خلال المقارنة بين المعلومات التي حصلتُ عليها من الأمير رُمّان، والملخّصات التي قدّمها لي سابقاً أصحابي من البدو الرُّحّل، تمكّنتُ من معرفة تاريخ هذا البلد وأعرافه وعاداته، وصار بوسعي دونما خطر تصويب تصرّفاتي، لا من أجل اختراق ذلك البلد فحسب، بل والتّجوال فيه بحريّة.

أخفيتُ عن الأمير بأنّني أنوي الذّهاب إلى هناك، لكنّني رحتُ تدريجيّاً لمّا رأيتُه يتحاشى مشاركتي الرّأي، أوحي إليه بأنّني حسب نصيحته قرّرتُ أنّني إن لم أظفر لدى الأيدان أو الوُلد سليمان أو شمَّر[1] بنوع الخيول التي يودّها صاحب المعالي فؤاد باشا، فإنّـي أطلبُ منه رسالة تعريف (وحصّلتُها) موجّهة إلى الأمير طلال ابن رَشيد حاكم جبل شمَّر، أو لنقُل ملك الجبل. كانت هذه الرّسالة تؤكّد على كلام الشيخ فَندي الفايز، وتفي بتبرير الدّاعي الذي يجعلني غير مزوّد بوثائق أكثر رسميّة لكي أضيف المصداقيّة إلى حقيقة مهمّتي.

---

(1) أي أولاد علي، والسّليمان، والشّمَّر (لجنة التحرير). قلتُ: والأيدان من الحمامدة من الولد علي.

[الخروج من تَيماء]

في يوم 13 فبراير غادرت تَيماء بصحبة بدوي من الأيدان[1]، وتركت هناك محمّداً والدّريبي مع المال، على اعتبار أنني لم أرغب بالتعرّض للخطر في بلاد ما تزال بالنّسبة لي مجهولة تماماً. كنت أنوي التّجوال في المراعي المعتادة قديماً لبني طيّ، ثم أجتاز بعد ذلك جبل الحَرّة لأصل إلى قبيلة عتيبة Ehtebe، التي يسمّيها سكّان الحجاز: Eteibe، وأخيراً أدخل نجداً عبر القَصيم.

وخلال ثلاثة أيّام، قام دليلي بالتوجّه صوب الجنوب الشرقي بجنوب، فأوصلني مباشرةً إلى مضارب شيخه رَجَا الأيدا[2] Raja-Aleida، على طريق خَيبَر Keibar، في وسط الصّخور الشماليّة للحرّة، في موقع يبعد بضعة دقائق شرقاً عن خَبرات الماء الطبيعيّة الهائلة.

وعلى بُعد مسيرة يوم – حسب تعبير البدو – من مضارب رَجَا الأيدا، تقع خَيبَر بسبب وعورة الطريق. وهي تبعد كذلك عن تَيماء بحوالي 10–12 ساعة أكثر ممّا تبعد تَبوك عن تَيماء، حيث يعتاد أهالي تَيماء على الذّهاب دوماً عبر ثلاثة أيّام في موسم مرور قافلة الحجّ إلى مكّة.

استقبلني الشيخ رَجا، وهو ابن أخ واحد من أشدّ خصوم الوهابيّين شوكة وقوّة، بشكل جعلني للمرّة الأولى أشعر بأنّني أُجابَه بعدم التّصديق لحقيقة مهمّتي على أنّها تتعلّق بالخيل، وبأنني اعتُبرتُ جاسوساً لصالح الباب العالي. على ذلك، راح الشيخ يجيب على جميع أسئلتي المتعلّقة بالخيل وفق اعتبارات سياسيّة. وجعلني الإطناب اللامُتناهي من امتعاضه من سلوك أمراء نَجد، وتفاصيله المتناهية في الإسهاب حول ابتزازهم وغِناهم، أتيقّن كم كان يُعانـي من البقاء تحت نفوذهم، وبأنّ قبيلته كانت لتقاتلهم عن طيب خاطر، لولا أنّها تخشى أن تُلفي نفسها وحيدة في هذا الصّراع.

---

(1) ترد العبارة في النصّ والخريطة: Aleidan، والأيدان (أو اليديان) فرقة من الحمامدة، الذين هم فخذ من عشيرة الوُلد علي، أبناء وهب من ضَنا مِسلِم من عَنِزَة.

(2) آل الأيدا (أو المُطلق) من الأيدان، شيوخ الأيدان وفخذ الحمامدة وعشيرة الوُلد علي بأسرها.

[البحث عن الخيل عند الأيدان]

مكثتُ في خيمته ثلاثة أيّام، إذ لزم بعض الوقت لإرسال خبر لإحضار الجياد الفحول إليّ، والتي راح يقول بأنّها الأكثر شُهرة في قبيلته. وهو لم يكن ليتوانى عن عرض هذه الجياد عليّ في أماكنها، ولكنّها مشتّتة في أماكن عدّة من ديرته. لكنّني لم أجد في أشكال هذه الجياد ما كنت أتوقّع العثور عليه في موطن زيد الخيل[1]، عملاق بني Ghant من بني طَيّ[2]، ولذا ففي يوم 19 رحلتُ إلى جوف وُلد سليمان[3].

وبدلاً من المضيّ في خطّ مستقيم، رحتُ أتوجّه تارةً نحو اليمين وطوراً نحو اليسار، متجوّلاً بشكل متعرّج ما بين مراعي الجبل أو مراعي الحَرّة. فتوصّلتُ - عن طريق المصادفة - في المواضع التي كانت تمرّ بها أجمل رؤوس خيل الأيدان Aleidan والوُلد سليمان، بأنّ خيل الأيدان قد تمّت مواراتها جيداً عن أنظاري، وكنتُ متأكّداً تماماً بأنّ الوُلد سليمان لم يكونوا على قدر وافٍ من التّعاون. ولّما ظهر دليلي بمظهر كما لو أنّني كنت خبيراً تماماً بمكر البدو، بما لا يمكن معه خداعي بسهولة، ولرغبته بالمكافأة التي وعدتُه بها، فقد قرّر أن يكون معي صادقاً ومخلصاً.

---

(1) هذا ما تذكره الليدي آن بلنت التي زارت حائل في عام 1878–1879 م، وفوجئت بعدم وجود خيل عتاق في جبلي طيّء موطن زيد الخيل صاحب الأفراس المسوّمة المشهورة، وتذكر تعجّب جوارماني هذا. والواقع أنّ أخبار الرحّالين الأجانب عن الخيول العربيّة في جزيرة لن تكتمل إلا بنشر 3 كتب عنها: كتاب الميجور أپتون، وتشارلز تويدي، وجوارماني.

(2) زيد بن مهلهل أبو مكنف الطائي النّبهاني المعروف بزيد الخيل في الجاهلية، صحابي وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم، فأسلم فسمّاه زيد الخير. كان من فرسان العرب، وقال له رسول الله ﷺ: «تقدم يا زيد فما رأيتك حتى أحببت أن أراك» وقال: «ما ذُكر لي رجل من العرب إلا رأيتُه دون ما ذُكر، إلا ما كان من زيد فإنه لم يبلغ كلّ ما فيه».

قطع له الرسول فَيداً وأرضين وكتب له بذلك كتاباً، وتوفي بعد انصرافه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة 9 هـ. كان جسيماً طويلاً جميلاً موصوفاً بطول القامة وحُسن الجسم، وهو القائل:

أقاتلُ حتى لا أرى مقاتلاً   وأنجو إذا لم ينجُ إلا المكيس

(3) يوافق «جوف أولاد سليمان» على خريطة هـ. كيبرت H. Kiepert. انظر الصحيفة *Zeitschrift* يوليو 1865 (لجنة التحرير).

لقد فضّلنا النّوم في الهواء الطّلق في المراعي، على أن نأوي إلى المضارب الموصدة في السّهول. فتحت الخيمة يكون بوسعنا توخّي الحذر، وتحت السّماء المرصّعة بالنّجوم ينفتح القلب بسهولة ويُسر. ثمّ إنّ الرّعاة إن كانوا عبيداً فليس لديهم موجب للأنانيّة، وإن كانوا أحراراً فهم لا ينتمون دوماً إلى القبيلة ولا يعدّون أنفسهم أمناء على أسرارها.

طوال مكوثنا مرتحلين في ديرة الأيدان Aleidan، لم تُسفر أبحاثنا عن أيّة نتائج مفيدة على الإطلاق. ولقد تمكّنت من رؤية جياد جميلة جداً - ولو بأعداد قليلة - لكنها ليست من الصّنف الذي يلزمني، ولا هي من النّوع الذي يحوز الإعجاب في أوروبا. فلقد كانت واطئة القامة إلى حدّ كبير. وبما أنّه لم يكن هناك كبير ثقة بترجيح السّلالة الصّافية على جميع الصّفات الأخرى، ومن جهة أخرى لرغبتي بعدم الانحياز كلياً إلى رأيي الشخصي، فلقد اضطررتُ بأن ألتزم حدود التّعليمات المُعطاة إليّ.

كنّا غالباً ما يُتعمّد إيقاعنا بالمغالطات من قِبَل الوُلد سليمان، حيث أنّ دليلي لم يكن يعرف جيداً سوى زملائه. ولكن الصّبر والتّعقّل اللذين أبديناهما ونحن ننظر بإعجاب ظاهري إلى الأفراس في المضارب، مكّنانا من العثور على طريقة لاكتشاف أفره الخيول في المراعي المنتقاة.

* * *

عندما وصلنا إلى الجوف، رغبنا بسقاية الأباعر، وكان بعيري لم يشرب منذ كنّا في تَيماء. وعندما رأيتُه يتجافى عن الآبار مع رفيقه، لبثتُ في حيرة من الأمر، فلقد بدا لي أنّه من المستحيل أن يكون النّدى المتجمّع على النّباتات التي كان يرعاها في كلّ صباح يؤدّيه كفايته من الارتواء. وعلى ذلك اقتنعتُ بأنّ الجمل بوسعه في الرّبيع احتمال العطش نظير ما يحتمل الوعل.

كان [العواجي] شيخ عشيرة الوُلد سليمان قد استُدعي إلى حائل. ولمّا لم أكن أودّ انتظار عودته، فلقد رجعتُ إلى الأيدان، فقطعتُ مباشرةً في ثلاثة أيّام الطريق الذي كنتُ تجوّلتُ فيه مُسبقاً خلال سبعة أيّام.

لم تعد مضارب الشيخ رَجَا موجودةً حيث تركناها، فأمضينا الليلة ما بين يوميّ 28 و 29 في ما يشبه مغارة مشكّلة من الجلاميد البازلتيّة السّود الكبيرة، بالقرب من خَبرات الماء التي كنتُ ذكرتُها، وللمرّة الأولى نمنا دون أن نتعشّى، إذ كانت جُعبنا خالية الوفاض، وكانت تفصلنا عن أقرب بيوت شَعر من هنا مسافة أربع ساعات.

[جوارماني في خيبر]

في صباح اليوم التالي، في السّاعة الحادية عشرة، وصلنا إلى خَيبَر. وعند دخولها، فإنّ الرّحّالة الذي لا علم مُسبق له بأحوالها يظلّ مشدوهاً بشكل لافت لمرأى سكّانها، ويحسب أنّه انتقل بصورة عجائبيّة إلى السّودان[1].

خفّ شيوخ البلدة إليّ عندما رأونـي أترجّل عن مطيّتي عند سفح الحَرّة، وهو المسلك العسير الذي يُفضي إلى الوديان. وقام أحدهم بالاعتناء ببعيري الذي كنتُ تركته حرّاً، مخافة أن أدقّ عنقي في وسط الصّخور والجلاميد البازلتيّة المهولة على الطريق، الأمر الذي كان ليحصل دون أدنى ريب لولا اتّخاذي لجانب الحيطة، ذلك لأنّ قوائم الجمل عندما ترتكز بصعوبة على الحجارة المتخلخلة فهي تجعلها تنزلق وتتدحرج في الهاوية. ولم يكن الحيوان المسكين يتمكّن من المحافظة على توازنه إلاّ ببذل غاية الجهد، بالضّنى والإنهاك على نحو لا يُعقل بقوائمه.

ليس ثمّة في خَيبَر «مناخ» *menak* للضيوف، بل إنّ الشيخ هو من يقوم باستضافتهم في مسكنه المتواضع. ولقد أتاح لي لقب الآغا فرصة كانت خيراً من ذلك، إذ أنّني تلقيّتُ دعوة من عليّان الحبشي، المحافظ التابع للأمير طلال ابن رشيد، الذي يقيم في بُرج كبير في السّهل المتاخم للجُرُف الصّخري الذي يحمل أطلال جسر اليهود.

---

(1) يقصد أن سكّانها من السّود الأفارقة، وسيشرح سبب ذلك في مكان آخر في سجلّ مسار رحلته حول مبارحة أصحابها لها من الوُلد سليمان والوُلد علي قديماً مخافة الوباء.

في صباح اليوم التالي، 1 مارس، قمتُ بزيارة الأطلال التي تبيّن أنها ليست سوى قطع من الحجارة لا تحمل أيّة كتابات، وليس لها أيّ طابع فنّي. وقمت بصرف دليلي الذي أخذته من عند الأيدان Aleidan، ولدى رحيل الأيدي (من الأيدان أو اليديان) قمت باستخدام رجلين من الهتيم، كانا في السّابق يمتهنان النّطل والسّلب، نظير صاحبنا العجوز محسن الرُّوعي.

في يوم 2 مارس عند المغيب، وصلتُ إلى السّهل الرّملي الذي يحدّ الحرّة من جهة الجنوب، والذي يجتاز به الحجّاج الفُرس الذّاهبون إلى المدينة [المنوّرة]. كنتُ لأبدي قدراً أكبر من الهمّة، لولا أنّني فضّلتُ على الطريق المباشر والأكثر قابليّة للمسير مسلكاً للمعزى يلفّ حول الجبال، ولا تعوّقه تلك الجلاميد البازلتيّة الضخمة التي لقيتُ منها التّباريح في اليومين الماضيين.

وجدتُ نفسي أسير ضمن ديرة الهتيم، غير أنّني مع ذلك لم أصادف حتى الآن أيّاً من مضاربهم. نمنا تحت السّماء المرصّعة بالنّجوم، وتحوّلت اللّيالي من البرد الذي كانت عليه إلى ليالٍ ذات جوّ منعش، ولكن كان ثمّة حطب يابس لإيقاد النّار التي كانت في بعض الأحيان تؤدّي إلى جعل المخيّم بحال أفضل بالنّسبة للأشخاص ذوي البنية الأضعف من بنيتي.

[المؤلف يدخل جبل طيّء]

اثنتان وعشرون ساعة من المسير، دوماً في السّهل وباتجاه الشرق، بين يومي 3 و 4 مارس، أفضت بنا إلى جبل طيّ Gebel-el-Taeie. قمنا بالمسير في خطوط دائريّة وفي مسالك مختصرة عديدة ما بين الهضاب البازلتيّة التي لا بُدّ أنّها كانت في عهد مضى تؤلّف قسماً من الحَرّة، وما بين شناخيب جرانيتيّة أخرى، تفصل ما بينها على النّحو ذاته رقاع رمليّة تتبع السّلسلة الأقلّ انكساراً من جبال نجد. تقع البوير El-Bueir، وهي بلدة صغيرة يقطنها الهتيم الحَضَر، على بُعد ستّ ساعات في الشمال الغربي.

***

أمضينا الأيّام 5 و 6 و 7 من شهر مارس في مضارب الهتيم بجبل طيّ. وفيها[1] ينتشر كما وجدنا 1000 بيت شعر تعود لبدو قبيلة عتيبة Ehtebe[2]، وتتبع بطن الرّوقة[3] منها، وقابلنا واحداً من كبار شيوخهم، هو مِبرِك أبو سنون[4].

كان الأمير عبد الله ابن سعود قد حظّر على هؤلاء العتيبة الالتجاء إلى ديرة هتيم في جبل طيّ، فلذلك نزلوا بجيشهم على المرتفعات التي تفصل المسيكيب El-Meskeb عن سارية Sarrieh، وقطعوا بذلك الاتّصال مع بقيّة عشائر الجنوب. ولذلك، فقد تعيّن على وجه الصّواب (ولو أنّني ندمتُ على الأمر) أن أحجم عن زيارتهم. ولكنّني أذكر أنّني عندما كنتُ أدرس هوميروس، أنّ أكثر ما راقني من قصصه المجازيّة كانت قصّة الحمار الذي وطئ حقلاً صغيراً. هذا الحمار الذي حظي بالصيت المخلّد على لسان أبي الشّعر هوميروس Homerus، أفلح في ملء بطنه برغم ضربات العصا التي طفقت تنهال على ظهره. إنّه لم يترك القلق يستبدّ به، بل بادر إلى إشباع غليله وترك للأجيال القادمة مثالاً بطوليّاً لمزيّة الإقدام الذي توّجه في النهاية ما يستحقّ من نجاح.

فالذي جرى، بما أنّني كنتُ عنيداً على الدّوام، وبعدما أجهدتُ رأسي بالتفكير، قرّرتُ قبل أن أبادر إلى التخلّي نهائيّاً عن مشروعي، أن أغامر بركوب مصير العتيبة المستجيرين، وأن أمضي بعدّة مغامرات في صُحبتهم. والواقع أنّني كنتُ أغامر بالبقاء عدّة أشهر محتجزاً في فجاج جبل طيّ، ولكنّني كنتُ متأمّلاً بحصول فرصة سانحة، مثل هدنة أو حلول السّلم العام، كان من شأنها أن تفتح لي الطريق إلى القسم الجنوبي من جزيرة العرب.

---

(1) كتب الأخ الباحث تركي القدّاح العتيبي: لعلّه يقصد بهذه المضارب نواحي منطقة المحلاني، التي كانت تنزل فيها بالعادة بعض فرق عشيرة الهتيم. قبيلة عتيبة في كتابات الرّحّالين، 88.

(2) ترد في خريطة كيبرت Kiepert باسم: بني عتيبة (لجنة التّحرير).

(3) الرّوقة أحد البطنين الرئيسيين المؤلفين لعشيرة عتيبة، وهما: الرّوقة وبرقا، وأفخاذ الرّوقة ثلاثة: ذوو ثبيت، طلحة، المزاحمة. وتتفرّع عنهم فرق كثيرة. والشّيخة العامة للرّوقة في الفخذ الأول بآل ربيعان، وكان الشيخ في أيّام زيارة جوارماني سُلطان بن ربيعان.

(4) مِبرِك أبو سنون شيخ الحبرديّة من ذوي عطيّة من الرّوقة من عتيبة. يرد اسمه في الأصل المطبوع بالإيطاليّة مغلوطاً: Meflak-eben-Sfuk.

يوم 8 مارس، حضرتُ عند الشيخ مِبرِك، وقمتُ بإعلامه بما جئتُ من أجله.. فحاول في البداية أن يثنيني عن عزمي، ثمّ وافق في النهاية على استقبالي بشرط أن يبقى معي ولو على الأقلّ واحد من دليلَي الهتيميّين. فأقنعتُهما كليهما بألاّ يتخلّيا عني البتّة. وأمرتُ بذبح خروف وشَيّه وأعلنتُ بأنّ قبيلة عتيبة بريئة تماماً من دمي، إن أنا لقيتُ حتفي على أيدي أعدائهم.

[بداية الحملة على قبيلة عتيبة]

قبل حلول الليل، جاء شيوخ الهتيم على متن أباعرهم إلى مخيّمنا ونزلوا بيت الشيخ مِبرِك لإخطاره بأنّه يتوجّب عليه عند انبلاج صباح الغد مغادرة جبل طيّ، وبأنّه يترتّب عليه ألاّ يمكث أكثر من ذلك على الإطلاق، وإلاّ فإنّ الأمير عبد الله سوف يقف منه موقفاً حازماً. وعلى ذلك تلاشت مخاوفي من وقوع الحصار.

خلال الليل تمّ نقض المضارب، واستهلّ الخيّالة المسير وكان عددهم يبلغ 200 خيالاً. أمّا في الوسط فكانت النّساء ومعهنّ أطفالهنّ، ومجموع الحلال والمتاع. وأمّا المؤخّرة فكانت تتألّف من 700 رجل مسلّحين بالبواريد ويركبون متون هجنهم.

في غضون أربعة أيّام، سرنا طوال النّهار واللّيل، ولم نأخذ من الرّاحة قسطاً إلاّ لبضع ساعات، وفي سوانح كانت نادرة، وذلك دون نصب بيوت الشّعر، وكانت الغارات تتوالى علينا من الخيّالة النّجديّة ومن بني قحطان التّابعين للأمير عبد الله. وقام رجال الهتيم بعدّة محاولات في عدّة مواقع لكسر خطوط العدو أو ردّهم عن مواقعهم، لكن دون جدوى.

وفي مساء يوم 12 مارس تمّ اغتنام الحلال بأسره، مع القسم الأكبر من المتاع. وتمّ إحصاء 60 قتيلاً و200 جريح، ووجدنا أنفسنا مجدّداً ضمن نطاق المضارب الأولى في جبل طيّ. أمّا جيش الأمير فكان نازلاً بالسّهل إلى جهة الجنوب الغربي.

في ليلة 12 مارس عشيّة يوم 13 منه، أمر الشيخ مِبرِك بإدخال عشيرته ضمن وهدة عميقة غير بعيدة، وقام بنشر رجاله المسلّحين بالبواريد، راجلين بأجمعهم، على الصّخور التي تؤلّف حاجزاً لا يمكن تخطّيه من جميع الجهات، ما خلا جهة الجنوب الغربي في مواجهة العدوّ، حيث تنفتح الوهدة لتشكّل خانقاً يفضي إليها، وتترك فرجة صغيرة قام الشيخ بالتّمركز فيها مع خيّالته.

[المعركة مع قوّات الأمير عبد الله]

في يوم 13 مارس، ركب بنو قحطان خيولهم إلى مرمى بنادق رجالنا، ورفضوا التّراجع والهزيمة إطلاقاً. وفي يوم 14 قام الأمير عبد الله بمهاجمتنا من جميع الجهات، فتمّ صدّه بنجاح كبير. وفي يوم 15 عاود الهجوم تحت قيادته شخصيّاً، بقواته أجمع البالغة حوالي 10000 رجل، ولم ينسحب إلّا بعد غروب الشمس بساعتين، دون أن يتمكّن من زحزحتنا عن عشّ النّسور الذي نتمركز فيه، ولا من كسر خيّالتنا الشجعان.

وحوالي منتصف اللّيل، ارتجّت الأرض بصيحة حرب عتيبة[1] في مضاربهم. وامتطى الشيخ سُلطان ابن ربيعان، الشيخ العام للرّوقة[2]، مع 400 خيّال و5000 بواردي، متن هجنهم، فباغتوا النّجديّين وأوقعوا في صفوفهم مذبحة مروّعة. ولم تتوانَ قوّاتنا عن الإسراع إلى ميدان المعركة، وزادت في شدّة القتال ضراماً.

---

(1) صيحات الحرب أو النّخوة أو العزوة لدى بطن الرّوقة من قبيلة عتيبة هي: آلاد روق. ولكل فريق من الرّوقة عزوة خاصة، مثل: آلاد زراق، آلاد حافي، آلاد عالي، آلاد الخشيمي، وغيرها. وهذه عزوات الفرق التالية: الزّراريق، الحفاة، ذوو عالي، والحزمان. انظر: قبيلة عتيبة في كتابات الرّحّالة الغربيّين، تركي القدّاح العتيبي، ص 90.

(2) الشيخ سلطان بن محمّد بن حمود بن ربيعان، تولى المشيخة في حدود سنة 1246 هـ، واشترك في وقعة طلال عندما أغار الإمام فيصل بن تركي سنة 1247 هـ على الرّوقة، ففزع لهم قوم هذّال ابن بصيّص. كما شارك سلطان بن ربيعان في مناخ المربع سنة 1249 هـ إلى جانب الدّوشان. انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، لابن بشر النّجدي، ص 332–341. وطالما أنّ رحّالتنا جوارماني ذكره سنة 1864 م = 1280 هـ، فهذا يعني أنه كان حيّاً فيها، ولعله توفي بحدود 1285 هـ.

استمرّت المعركة حتى الصّباح، وما كان من بني قحطان الذين أدّوا دورهم إلاّ أن بادروا أوّل النّاس إلى الانسحاب وتخلّوا عن الأمير عبد الله، الذي قام بالانسحاب إلى القَصيم، دون أن يتبع فلوله أحد. أمّا الشيخان الظافران سُلطان ابن ربيعان ومِبرِك، فقد تبادلا القُبل في ساحة الوغى.

في هذا الوصف الوارد أعلاه، كان بمقدوري أن أضع نفسي في حَومة الأحداث كأحد أبطال ثربانتِس[1] Cervantes، وأدّعي لنفسي المجد أو السَّفاهة حسب ما يستنتجه مَن يقرأ كتابي هذا، ولكنّني آثرتُ على ذلك هوىً عقيماً هو هوى العلم والحقيقة المجرّدة.

على ذلك، فإنّني أقرّ بأنّه في خلال جميع المعارك التي خاضتها عشيرة الشيخ مِبرِك الباسلة، كان موقعي ضمن الملجأ الأكثر عمقاً واحتجاباً ضمن الوهدة، حيث ألفيتُ نفسي بين الجرحى والنّساء والمتاع، وهذا ما مكّنني بين الفينة والأخرى من التجوّل ما بين جياد الرّجال الذين لم يكونوا مشاركين في القتال. كانت هذه الجياد مشكولة في الأجَمات بقيود، وكانت أمامي الفرصة سانحة لدراستها. ولم تُقلقني الرّصاصات التي كانت تصفر فوق رأسي، وترتدّ على الصّخور المحيطة بنا وتعود لتسقط خامدة عند قدمَي.

كانت هذه الدّراسة في الواقع ذات أهميّة قصوى، لأن خيول قبيلة عتيبة هي أقوى الخيول التي تجول بأكناف البوادي. وكانت في بعض الأحيان تصرف تركيزي أنّات الجرحى الذين يأتون لتلقّي بعض العون، وبصيحات النّساء اللواتي يستقبلنهم بفورة الفرح. وكنّ ينخينهم للعودة إلى القتال إن أمكنهم ذلك، عندما كان الذّرور والرّماد يفيان بإيقاف الدّم النّازف من جراحهم، وبعدما كنّ يضمّدن الجراح بالعصائب.

لقد بَدَت نساء قبيلة عتيبة جديرات حقاً بمنافسة بطلات حِميَر في الماضي الغابر.

---

(1) يعني بهذا رواية «دون كيخوته دي لا مانتشا» *Don Quixote de la Mancha* المعروفة، لأشهر أدباء إسپانيا ميغيل دي ثربانتِس سابيدرا Migel de Cervantes Saavedra.

فُرض على الرّجلين الهتيميّين القعود عن أيّ عمل، وبألاّ يتركاني لحظة واحدة. فلو أنّ الأمير عبد الله انتصر، لكان عليهما أن يقوما بإطلاعه على أمري وبإنقاذي. ولهذا السبب كان الشيخ مِبرِك راغباً، من أجل إنقاذي، بأن يمكث منهما على الأقلّ واحد لا يفارقني مهما جرى، لكي يُبقي على عاتق عشيرة الهتيم جزءاً من المسؤوليّة، التي لا ينبغي الاضطلاع بها كاملة في هذه الظروف الصّعبة الرّاهنة.

في يوم 16 مارس أثناء فترة النّهار، قمتُ بشراء ثلاثة جياد في مقتبل عمرها. كان اثنان منهما ذوا لون كُميت داكن (شبه أسود)، والآخر كان كُميتاً محجّلاً بالأسود. ولم يشأ الشّيخ سلطان بن ربيعان أن يحدّد لهذه الجياد الثلاثة ثمناً، لكنّه رضي بالمقابل الذي عرضتُه مقابلها، وهو مئة بَعير. وفي المعتاد فإنّ مئة بعير يساوي ثمن جواد واحد أصيل. والجياد الأصيلة يُنظر إليها كحيوانات مغايرة تماماً لبقيّة خيل القبيلة، وقيمتها تفوق قيمة الأفراس، وتعيش بشكل شبه دائم في المراعي المستقلّة، في حالة نصف بريّة، ولا تُمتطى أبداً إلاّ عندما يداهم العشائر خطرٌ ماحق.

فعلى ذلك، ليس ثمن البعير المئة يمثّل غير ثُلث قيمتها. وكان حصولي عليها بهذا الثّمن الزّهيد بفضل التّوصية التي أحملها من شيوخ الصّخور وشيوخ عشيرة عتيبة المُستجيرين الذين تعرّفت عليهم عن طريق الشيخ طلال بن فيصل الشّعلان، وبشكل ما بفضل مكانة الشيخ مِبرِك الذي كان يرغب بترحيلي بأسرع ما يمكن، مخافة أن يقع لي مكروه.

لدى تقاسم الغنائم التي تمّ احتجازها في اللّيلة الفائتة، نشب خلافٌ بين بعض الشيوخ على جواد كُميت مشقرّ له نجمة على جبهته ومُحجّل القائمتين الخلفيّتين. فتدخّل الشيخ مِبرِك لتهدئتهم وليقنعهم بأن يمنحوني الجواد المذكور، حيث أنّني - كما قال - شاركتُ في العناية بالجرحى عندما مكثتُ محتجزاً كسجين في الوهدة، وأضاف أنّه ليس من اللائق أن أبقى صُفر اليدين. فتقبّلتُ الأمر وشكرتُه.

لم تكن الرّبع ساعة الهزليّة على طريقة رابليه[1] مملّة كثيراً، فلقد عهد سُلطان ابن ربيعان بالجياد إلى دليلَي الهتيميّين وأمرهما بتوصيلها إلى مراعي قُفَيفة Goseife (كذا)، على التّخوم الغربيّة لجبل شمّر، وبتسليمها إليّ بعدما أدفع ثمنهم، وإلاّ فإنّ عليهم ردّها بواسطة بني حَرب.

رغب أمراء نَجد، الذين يدفع الهتيم الجِزية لهم، بأن يغادر مِبرِك ديرة طَيّ، وذلك بسبب مخافة أن يعرّضوا أنفسهم للشُّبهة في عيني الأمير عبد الله. فلمّا رجعتُ في المرّة الثانية، وجدتُ أنّهم ابتعدو ببيوت شَعرهم لمسافة يوم إلى الشمال الشرقي لكي يوحوا بأنّهم يجهلون ذلك، في حال تمّ تغيير الرّأي بخصوصهم للعودة من جديد إلى ديرة طَيّ. أمّا بنو حَرب، الأكثر قوّة، فقد أخذوا بالظهور بشكل مُتعالٍ على حاكمهم[2]، وبدأوا يعدّون العُدّة للاستقلال عنه، وأضحى كلّ مَن ينتمي إليهم من حَضَر ومن بدو لا يُذعن بالطّاعة إلاّ لشيخهم سَعد ابن جَزا، المقيم في الجْدَيدَة. ومن أصل أربع مئة خيّال يتبعون سُلطان بن ربيعان، كان مئتان يركبون أفراساً تعود لبني حَرب. أمّا ثارات الدَّم التي كانت تفرّق ما بين عشائرهم الثلاث فقد استكانت الآن وخمدت. ورغم أنّهم كانوا اسميّاً أعداء فقد عاشوا بسلام، وفي أوّل فرصة تسنح سوف نرى القبيلتين اللتين ما زالتا خاضعتين تثوران، وسوف نراهم جميعاً يقاتلون تحت راية واحدة.

وهنا أقول راية واحدة ولا أقول «عُطفة» *ootfe*[3]، إذ أنّني حتى الآن لم أجد هذه العبارة مستخدمة في نَجد. وفي برّ الشام لا تُستخدم إلاّ لدى ضنا بشر التّابعين للأمير ابن هَذّال، والرّوَلة التابعين للشّعلان.

لاحظتُ لاحقاً، لدى التّجوال في ميدان المعركة، أنّه لم يكن هناك قحطانـي واحد ميت أو جريح، وأنّه لم يُلقَ على أيّ فرد من قبيلة عتيبة تبعة قتل أيّ فرد من بني قحطان.

---

(1) نسبة إلى الأديب الفرنسي السّاخر فرانسوا رابليه François Rabelais (1494–1553 م).
(2) يعني الأمير عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود.
(3) العطفة مركب مزيّن بريش النّعام، تركبه بنت الشيخ أو أجمل صبايا العشيرة لتنخي المقاتلين في الحرب. ومن أواخر العشائر التي حفظتها بنجد عتيبة، وآخرها قاطبة الرّولة بالشام.

وكذلك فإنّي أتذكّر بأنه في كلّ وقعة جرت بين 9 إلى 12 مارس لم نكن نتعرّض لهجوم من خيّالة مُدن نجد وبلداتها، وبأنّ الجنود الوحيدين من بني قحطان الذين كانوا يُغيرون على جوانبنا، ويطلقون باتجاهنا آلاف طلقات البنادق، تبيّن أنّ أسلحتهم لم تكن محشوّة بسوى البارود فحسب، لأنّه لم يصلنا منها أيّة رصاصات، فأحجم خيّالتنا عن الرّدّ على الهجوم، لارتيابهم نوعاً ما من جرّاء طيب نوايا المهاجمين. كان بنو قحطان المجاورون لمنطقة العارض يشاركون في حملات الأمير عبد الله دون أن يؤذوا أعداءه.

كان الهتيم، التّابعون لطلال بن رَشيد[1] نائب والد الأمير، ظلّوا محايدين وتساهلوا معهم في ديرتهم، أمّا أبناء قبيلة حَرب الحجازيّة فكانوا يميلون إليهم في باطن الأمر. وبعد معرفة هذه الاعتبارات كلّها، لا يكون من الغريب أنّ الأمير عبد الله لم يتمكّن من زحزحتنا عن موقعنا عندما هاجمنا بنسبة عشرة رجال مقابل واحد (ولا ننسينّ بطولة رجالنا الذين صمدوا بنسبة واحد لسبعة على الأقلّ)، وباضطرّاره للانسحاب أمام عدد من المقاتلين يقلّ عن نصف جيشه.

كان محمّد على حق، عندما أيقن أنّ الجبل لن يأتي إليه، فذهب هو إليه. أمّا الجبل بالنسبة لي فهم عشيرة عتيبة التابعة للشيخ سُلطان بن ربيعان[2]، فبهم كان صلاح أمري وانشراح صدري. لقد وفّر عليّ هؤلاء البُدوان الشّجعان مسيرة سفر طويلة، وسرعان ما تمّ لي استيفاء الغرض من مهمّتي بسهولة أكبر ممّا كان لي أن أتوقّع. وكان من واجبي قمع الرّغبة التي تحدو بي إلى الاختراق قُدُماً إلى الأمام في أواسط جزيرة العرب. وطالما أنّني قد حقّقتُ بُغيتي المرجوّة، فإنّ التوغّل بعيداً دونما دافع معقول كان شيئاً من الجنون المُطبق. ومن جهة أخرى كنتُ أتوخّى إرضاء رغباتي هذه في المستقبل وليس الآن. فتبعاً لذلك، فكّرتُ جدّياً بالعودة على أعقابي.

---

(1) أوّل أمراء جبل شمّر كان عبد الله بن رشيد (حكم 1835–1843 م) يساعده أخوه عُبيد دون أن يُعيَّن أميراً، ثم بوفاة عبد الله 1843 تعيّن ابنه طلال، لكنّه انتحر عام 1867 م. خلفه متعب ابن عبد الله، 1867–1870، ثمّ بندر بن طلال 1870–1872 م (قتله عمّه محمّد).

(2) الأصحّ أن يقول فخذ الرّوقة من عتيبة، الذي كان ابن ربيعان شيخه.

في نواحي المساء، تمّ تجهيز «تلّ اللّحم» *tell-el-lakem* للشيوخ ولي. وتلّ اللّحم هو بَعير مشوي بكامله، ثمّ يتمّ غمره بالتُّمَّن *temmen*، وهو نوع من الأرز تجلبه القوافل من الجزيرة إلى نَجد ويُطبخ إمّا في الماء، أو الحليب أو السَّمن. ورغم ضخامة حجم «تلّ اللّحم»، فسُرعان ما تلاشى إلى كومة صغيرة من العظام.

[جوارماني وحيداً في أرض المعركة]

بعد غروب الشمس بساعة واحدة، رحل أبناء قبيلة عتيبة، وبقيتُ أنا مع واحد فقط من دليلَي الاثنين في هذا السّهل الفسيح المضرّج بدماء المعركة. أمّا الدّليل الثانـي فلقد رحل منذ الظهر ليبحث في أوّل مضارب يصادفها للهتيم عن بعيرين آخرين لكي يقوما برعاية الخيول وإيصالها إلى مراعي قُفَيفة، التي تشتهر بجودة أعشاب النّصي *nossi* التي تنبت في أرجائها، حيث ينبغي أن تمكث هذه الجياد ريثما أقوم بتأدية ثمنها للضّامنين لي.

راحت بنات آوى والغربان والذّئاب وطيور الرّخم تمزّق أشلاء جثث القتلى. وراحت خيولي ترتعد فرائصها من الخوف. أمضيتُ هزيعاً من اللّيل أسهر عليها، وعندما بزغ الفجر تركتُها في رعاية مرافقي، وابتعدتُ لجمع العُشب. كانت تلك مهمّةً عسيرة، لأنّني من أجل جزّها لم يكن معي سوى خنجر *kangiar* كان مُثلّماً باستثناء رأسه المُستدقّ. أمّا ترك الخيول ترعى على هواها فهو أمر لا يمكن مجرّد التفكير فيه، فهي لم تعتد بعد على أصواتنا، ولكان توجّب علينا العدو خلفها على متن بعيرنا مليّاً لكي نمنعها من الإفلات والهرب.

عندما تمّ لي جمع أربعة حزم من هذه الأعشاب، التي لاحظتُ أنّ الخيول تطلبها تحديداً وتحبّها، رغبتُ بالصّعود على متن صخرة يمكن من أعلاها الإشراف على السّهل، ومن هنالك مناداة مرافقي ليجلب بعيراً لتحميل ما جمعتُه من زاد.

على الجانب الشمالي من الصّخرة، ينفتح غار ذو غدير واسع في الوسط، كان الماء يقطر فيه بقطرات هزيلة، من فجوات في سقف الغار، وتشبه جليداً من البلّور. لم أتمكّن من مقاومة الإغراء في أن أروي ظمأي منه. لكن برغم ذلك أخذتُ جانب الحيطة في أن أستريح قليلاً ريثما يجفّ عرقي. كان الشُّرب على هذا النّحو ليس أمراً خاطئاً، وعليّ أن أعزو لأيّ سبب آخر مغبّة الأذى الذي أصابني فيما بعد.

[جوارماني يتعرّض لصدمة شديدة]

أظنّ أنّني لم أشرب من هذا الماء سوى جرعة واحدة حتى تبيّن لي أنّ طعمه مَذِق ومُرّ. فخرجتُ من الغار وأنا أبصق ما في فمي، وسُرعان ما غشيني التقيّؤ مصحوباً بصُداع شديد وهبوط عام في قواي الجسديّة. لقد وقر في ظنّي أنّني سأموت! رحتُ أفكّر بعائلتي الصغيرة، فأوكلتُ أمرها إلى الله الذي نستشعر وجوده في لحظات الوحدة الغامرة. انهرتُ إلى الأرض الرّطبة، وقدماي مغمورتان في الغدير، وشيئاً فشيئاً راحت أعضاء جسدي يستولي عليها الخَدَر وأُغشي عليّ.

لا يمكن لي أن أحدّد كم دامت فترة الإغماء هذه، غير أنّ شعوراً غريباً جعلني أستردّ وعيي.. وذلك أنّني وجدتُ نفسي أُفرك بالسَّمن. فتحتُ عيني فرأيتُ السّماء المرصّعة بالنّجوم، مددتُ يدي فلامستُ ثوباً حريريّاً لامرأة كانت تسندنـي وتسقيني حليب النّوق.

كان ثمّة امرأتان أخريان، قامتا بتدليك عمودي الفقري بالسَّمن كما ذكرتُ، وهو الشعور الذي أعاد إليّ وعيي، ثمّ انهمكتا بتدليكي تحت إبطي وعلى صدري. وراحتا تردّدان: «الماء أصابه! الماء أصابه!»، وراحت إحداهما تسقيني، والأخريان تدلّكانني. حاولتُ أن أتكلّم، لكنّي لم أفلح بنطق أيّ كلام. اعترت قلبي حالة من الارتياح لا توصف، دون أن أتمكّن من فهم ما يجري. ولمّا ثقلتْ جفونـي من جديد، غططتُ في النّوم.

لمّا استيقظتُ، كانت زُرقة السّماء تلتمع تحت أشعّة الشمس. واندهشتُ لمّا وجدتُ نفسي مُستلقياً على بساط سميك، تحت بيت شَعر للصّلَيب أو الزّنجانـي *Zingani*. كانت خيولي مربوطة إلى الأوتاد الغليظة على مسافات منتظمة. وكان دليلاي، مع عدّة أفراد آخرين من الهتيم يتحادثون في الشّمس مع الزّنجانـي. وكان ثمّة ثلاث نساء وفتاة يافعة، جالسات في حلقة بالقرب من بساطي، وكُنّ كما في اللّيلة الفائتة يرتدين الحرير، وهو قماش فاخر يتباين بشكل صارخ مع الثياب الرّثّة التي يلبسها رجال العائلة، الذين كانوا آباء هؤلاء النّسوة، أو أزواجهن أو إخوتهن.

كانت النّساء شابّات وقبيحات، والصبيّة قبيحة أيضاً، والرّجال بالغي القُبح. ويبدو أن الهتيم ينافسون على القبح بقيّة النّاس[1]. وبين كلّ ما كان يحيط بـي، كانت خيولي وحدها هي التي تتّسم بالجمال. واأسفاه على الجنس البشري، كيف أنّ مظهره وصورته لا ترقى إلى جمال خيولي الذكيّة.

لم تكن النّساء الزّنجانيّات يقتصرن على ارتداء الحلل المقصّبة، التي تتألّف بثُلثها من الحرير وثلث من القُطن، وأقمشة بغداد، بل كُنّ يتحلّين أيضاً بأساور من فضّة. وكان النِّطاق الذي يربط ثيابهنّ ذا إبزيمين من الفضّة المُذهّبة. أخذت الصبيّة في يدها مزهراً (دفّاً)، وسُرعان ما اتّضح أنّ العائلة المضيافة كانت تتألّف من أشخاص يمتهنون صنعة العزف والرّقص.

يقال عن الصّلَيب[2] إنّه يُحظّر عليهم الانتجاع، إلاّ إذا كان القيظ شديداً، وأن يمتطوا صهوة حصان، وأن يسأل الواحد منهم امرأته إلى أين تمضي، حتى لو مكثت شهوراً كاملة غائبة عن خيمة زوجها.

---

(1) لم نكن نودّ إيراد مثل هذه العبارات، إلا أنّ أمانة الترجمة تُلزمنا.

(2) الصلَيْب أو الصّلُبَة قوم يعيشون كالبدو وينتشرون من الكويت إلى نجد إلى شمالي الجزيرة، ويعود أصلهم إلى صابئة حرّان من عَبَدة النّجوم. كتب الكولونيل پيلي عنهم في رحلته من الكويت إلى الرّياض (1865 م) ملحقاً (ص 157)، وفي كتاب جبرائيل جبّور «البدو والبادية» (ص 333) بحث واف وقيّم عنهم. وراجع عنهم:

Doughty, Charles: *Arabia Deserta*, London, 1936; Müller, Victor: *En Syrie avec les Bedouins*, Paris, 1931; Dixon, H.R.P.: *The Arab of the Desert*, London, 1949.

لمّا شعرتُ بنفسي قد تعافيت، قمتُ وشكرتُ من كلّ قلبي الرّجال والنّساء على عنايتهم، وبخاصّة دليلي علي الفداوي الذي أسمّيه بالاسم[1]، لأنّني ربّما أدين له بحياتي. فإنّ الشيطان المسكين[2] عندما رأى أنّ الظهيرة قد مضت ولم أرجع، قام بتقفّي آثاري على الرّمال، فعثر على حزم العُشب، وتابع طريقه إلى الغار فوجدني واقعاً مغشياً عليّ، ولمّا لم يعرف كيف يخرج من هذا الموقف المتأزّم، صعد إلى قمّة صخرة، فاكتشف على مبعدة حميراً وأباعر، فهبط مجدّداً إلى السّهل ووثب إلى صهوة واحد من الخيول الأربعة، وفي غضون لحظة وصل إلى الزّنجانيّين، الذين لم يجدوا أيّة صعوبة في اللّحاق به.

ولمّا كنتُ ما زلت مغمىً عليّ، فقد قام بإيكال الجياد إليهم، وربطني إلى عاتق بعير واقتادني إلى الخيمة التي التقينا فيها من جديد، مع رفيقه وجماعة الهتيم الذين ظهروا أمامي، حيث قامت النّساء بتدليكي برهافة زائدة[3]، حيث ما زلت أجد إلى الآن على جلدي علامات سحجات قاسية.

* * *

على الغداء، قُدّم لي حليب النّوق مع جَراد مشوي. أمّا الحليب فكان كالعادة ممتازاً، وأمّا الجراد فبما أنّه غَثّ الطعم لم آكل منه سوى اثنتين. أظنّ أنّ حشرة بنت وردان والزّنبور ليسا أسوأ طعماً منه.

بعد وجبتي المتقشّفة، جلستُ أتشاور مع أفراد قبيلة الهتيم. وتقرّر أنّه في مساء اليوم ذاته، سوف يتوجّه أربعة منهم، على اعتبار أنّ ثلاثة منهم كانوا غير كافين، لسَوق الجياد مباشرةً إلى قُفَيفة، عبر اجتياز الحرّة وضراف.

---

(1) أخشى أن يكون هناك غلط في الاسم كما نقلته لجنة تحرير المجلّة عن خط يد جوارماني، فهو يرد مطبوعاً باللاتينيّة هكذا: Ali-el-Fadami (الفدامي)، لكن ورد في النصّ مواضع أشكلت فيها الأسماء على لجنة التحرير ما بين حروف: f، t، b. فهل هو الفداوي حقاً، كما نقته الليدي كاپيل كيور في ترجمتها؟ أتمنى معرفة آراء أبناء المنطقة.

(2) هكذا يستعمل جوارماني العبارة، لكن لا أظنه يريد الإساءة بل يصفه بالدّهاء وخفّة الحركة.

(3) يقول هذا الكلام من باب التهكّم، ويعني أنهن قمن بتدليكه بخشونة. لكن ألم يفده ذلك؟ فعلامَ يتشكّى؟ سامحك الله يا أبا سُليمى.

أمّا بالنّسبة لي، ومعي علي، فسوف أسلك طريق القصيم، الذي هو أبعد بكثير وأكثر إثارة للاهتمام. وكنتُ قد صرّحتُ لهم بأنّني سالكُه لا محالة إن وجدتُ نفسي على مقربة منه، وبأنّني أرغب بالمثول أمام الأمير عبد الله، وإن أتيح لي أمام أبيه فيصل بن سعود[1]، وبأنّني أرغب من كل بُدّ بالتّعرّف إليهما، وبأنّني أنوي العودة في كلّ عام إلى نَجد.

في وقت العصر *asser*، قمتُ بإرسال الجياد مع رُعاتها، ثمّ عند وقت المغرب[2] *mogret* أي عند غروب الشمس، استهللتُ طريقي مع علي.

والعصر هو الوقت الدّالّ على منتصف فترة بعد الظهر. ويمكن تحديده في الصّحراء من خلال قياس ظلّ الرّجُل على الأرض، ففي الشتاء ينبغي أن يمتدّ هذا الظلّ تسعة أقدام، وفي الصيف تسعة ونصف، على أن يتمّ قياس ذلك طبعاً بقدم الشخص ذاته.

[متابعة المسير إلى القَصيم]

سرنا لمدّة تسع ساعات وسط الهضاب الجرانيتيّة التي تضمّ في جهة الشرق سلسلة جبال طَيّ، وأربع ساعات في سهل رمليّ حيث وجدنا مضارب لعشرين عائلة من الهتيم.

أمضينا كلّ نهار يوم 19 مارس ما بين الاستراحة والنّوم، وقبل أن يكتنف الغَسَق السّماء، تابعنا طريقنا دون أن نغيّر وجهتنا صوب الشرق إلاّ عندما كانت تجبرنا على ذلك التغيّرات الطارئة في تضاريس الأرض. وقبل طلوع النّهار بساعة، أي بعد مسيرة حوالي اثنتي عشرة ساعة، بلغنا وادياً يؤلّف مبتدأ القَصيم. وتقع قرية الغاط Dat ما وراء الجبال التي تقع إلى يسارنا.

---

(1) يعني الإمام فيصلاً بن تركي، كتبت اللجنة اسمه عن خط يد المؤلف: Feisal-Eben-Schid، ممّا يؤكّد ما ذكرته أعلاه من عدم قدرتهم على القراءة الصحيحية لعبارة: Sehud كما يقصد المؤلف، وهو يدلّ على حرف العين بحرف H بالإيطاليّة، وهو حرف يُكتب ولا يُلفظ.

(2) هنا أيضاً غلط بقراءة حرف t بدلاً من b.

وأنا لا أستطيع تحديد بُعدها بدقّة، لكنّني أظنّ أنّها لا تتجاوز أبداً ثلاث ساعات من المسير. حول ذلك سألت عليّاً، فأجابني: «ساعة»، وهذه الكلمة تعني السّاعة بمعنى غير محدّد، وبالنّسبة للبدو هذه السّاعة قد تعادل نصف نهار، ولكن في الحقيقة أنّ «السّاعة» تعني: قريباً جداً. ولذلك فعندما أقول حوالي ثلاث ساعات، فإنّ هذا ماتمكّنتُ من حساب مسافته من علي، بالقياس إلى مسافات أخرى كنّا قطعناها سويّاً.

[على مشارف مضارب الأمير عبد الله]

أتتنا أصداء بعيدة من الوادي. كما سمعنا أيضاً، عندما أصخنا السّمع بآذاننا على أديم الأرض، أصوات حوافر خيل وأصوات مُبهمة. ففكّرنا، وتبيّن أنّنا على حقّ في ذلك، أنّنا قد وصلنا إلى مقربة من مضارب الأمير عبد الله. ومن باب الحيطة، قمنا بالتّقهقر إلى الخلف لمسافة ربع ساعة، ونمنا وراء هضبة صغيرة بانتظار طلوع النّهار.

عندما أدّت الشمس إلى انقشاع البخار، الذي يؤدّي عند الفجر في الأجواء الحارّة وعلى المسالك القاحلة إلى تشكيل ضباب كثيف يحجب الرّؤية عن الأشياء القريبة جداً، وتراجع منكفئاً أمام نزوات النّور ونتاج السّراب، ارتقى علي متن الهضبة المنحدرة التي كنّا نتوارى خلفها، وبقي هناك عشرين دقيقة بلا حراك، وعاد بعد ذلك راكضاً، ليؤكّد لي بأنّنا لم نكن على خطأ، وبأنّ راية آل سعود ترفرف وسط مضارب القروانيّين والبدوان، على بُعد ساعة «فرنجيّة» - أيّ أوروبيّة - عن الهضبة التي نمكث خلفها.

رحنا نتشاور حول ما ينبغي لنا أن نقوله للأمير لئلاّ نترك له أيّ إيحاء بالشكوك، ولم نصل أبداً إلى رأي متطابق، لأنّ عليّاً أصرّ تمام الإصرار على عدم إعلامه أنّنا كنّا مع قبيلة عتيبة..

وإذا بأربعين فارساً يفاجؤوننا ويقومون بتوقيفنا، وقطعوا علينا نقاشنا!

[الأمير يأمر بترحيل كارلو إلى عنيزة]

رفض الأمير عبد الله استقبالي، ولكنّه برغم ذلك طلب مني جميع رسائل التّوصية التي كانت بحوزتي، فقرأها ثمّ ردّها لي.

في السّاعة الثانية بعد الظهر، أتى رجل حبشي يتبعه عشرة خيّالة، وأمرنا بإعداد بعيرينا وباتّباعه. سألتُه إلى أين؟ فأجابني: إلى عُنيزة Aneizeh. ولو كان لديّ أدنى اعتراض أبديه، لكان هذا الجواب بعينه كافياً لإقناعي. وعُنيزة هي أكبر قُرى نجد، وتعتمد تجارتها الرئيسيّة على تربية الأمهار التي يشتريها تجّارها من البدو، وعلى تصديرها إلى الكويت Queit على الخليج العربي، ومن هنالك يتمّ إرسالها إلى بلاد فارس والهند. أمّا حارسنا - ولن أقول مرافقنا، لأنّنا رأينا أنفسنا كالسّجينين - فلم يفتح فاهُ بكلمة واحدة. وكنّا كلّما تقدّمنا في مسيرنا يضيق الوادي أكثر فأكثر.

ولمّا رآنـي علي واجماً، استعاد روحه المرحة، وشرع يرتجل لي قصّة، راح يذكر فيها قنصل الخنازير، الذي يعرف جميع خنازير العالم، أو لوضع النّقاط على الحروف، فهو يعني سفيراً لدولة أوروبيّة لم يُسمّها أبداً، ولقد رغب هذا السّفير بإرسال شاب تحمله الجنيّات، للبحث عن خنزير شهير كانت له في فنطسته روح جنّي. وهذه الحكاية ذات أصل مصري وتعود إلى زمن غزو جزيرة العرب بقيادة محمّد علي وابنه الأكثر نجاحاً منه إبراهيم باشا[1].

عند السّاعة الحادية عشرة، أمر الحبشي بالتوقّف لمدّة ساعة. وأرسل إلينا تمراً وقطعة صغيرة من اللّحم، وسمح لخيّالته بالقدوم للتّحدّث إلينا والمكوث حول نارنا. وعندما أمر بإعادة المسير، عمد إلى تكييف مسير حصانه للتّناسب مع مسير بعيري لكي يظلّ إلى جانبي، وسُرعان ما ظهر لي منذ البداية أنّه ليس رجلاً فظّاً كما اعتقدتُ، فلم يفتر الحديث بيننا لحظة واحدة، إلى أن وصلنا إلى أبواب عُنيزة.

---

(1) حول أحداث غزو المصريين لنجد وجبال عسير، انظر الجزء الأول من سلسلتنا: «ارتياد جزيرة العرب، سيرة كشوف رحّالي الغرب ومغامراتهم في أرض الجزيرة» لداڤيد جورج هوجَرث.

وكان يبدو على الدّوام أكثر مودّةً ولطفاً، وقال لي إن اسمه «عنيبَر»، وبأنّه رغم كونه من رعايا فيصل بن سعود، فلم يكن يقرّ بالطّاعة إلّا إلى طلال ابن رَشيد حاكم جبل شمّر، وبأنّ أباه كان عبداً وهو حرّ، وأنّه بعدما تمّ إرساله إلى الأمير عبد الله في مهمّة سرّيّة، فهو لن يعود الآن إلى حائل، وهو غير مسرور من الأمير الذي «يداه ممسكتان عن العطايا!».. وأضاف أنّ الأمير عبد الله تحدّث عني في رسالة أعطاه إيّاها ليؤدّيها لمولاه، وبأنّه لا يعلم ما فحواها، ولكن على جميع الأحوال ليس هناك من داع أمامي للخوف من أيّ شيء، على اعتبار أنّ طلالاً بن رشيد يتباهى بأنّه عبدٌ مخلّص للسّلطان.

[كارلو على مشارف عنيزة]

من مضارب الأمير عبد الله إلى عُنيزة، تبلغ المسافة مسيرة خمس عشرة ساعة صوب المشرق، مع شيء من الانحراف صوب الشمال الشرقي بشرق. وأفادني نجم القطب بمثابة بوصلة في ظُلمة الليل. كانت تحيط بنا على الدّوام هضاب من الجهتين، وبقي الطريق رمليّاً بلا انقطاع إلى أن بلغنا سهل عُنيزة، الذي تنتشر فيه القرى الصغيرة التي تتكئ إلى الجبال التي تجاورها، وفي وسط هذه القرى تقوم المدينة ذاتها.

قبل النّزول عند الحاكم، اختار عنيبَر بمثابة المناخ *menak* دار الأمير زامل[1]، وهو أشدّ أعداء أمراء الدِّرعيّة. والواقع أنّني فوجئتُ به على نحو لم أشهد له مثيلاً حتى الآن، بالقياس إلى ما كنتُ رأيتُه من طموحات أهل نجد وشيوخهم.

---

(1) زامل بن عبد الله بن سليم الثوري السّبيعي: أمير عُنيزة المشهور، ابن أميرها الحادي والعشرين. تولّى إمارتها في عام 1285 هـ (1868 م)، وقبل ذلك كان واجه قوّات الدّولة السّعوديّة الثانية بقيادة الأمير فيصل بن تركي 1863 م، إذ حاصر ابنه عبد الله عُنيزة وجرت على أبوابها وقائع خلّدتها الأشعار، وانتهت بالصّلح وانضمامه إلى حلف فيصل. كان قائداً عسكرياً محنّكاً تمكّن من الاستيلاء على مَسقط. بقي أميراً لعُنيزة إلى مقتله في معركة المليدا عام 1308 هـ (1891 م)، لمّا انتصر أمير حائل محمّد بن رَشيد على خصومه وخرّب عنيزة.

وبما أنّ الأمير زاملاً قد ظنّني مسلماً وموظفاً تركيّاً، فقد أولانـي اهتماماً كبيراً. كان حديثه عذباً ممتعاً، حيث أنّه يمتاز بثقافة رفيعة، وكان نفوذه في المدينة يفوق نفوذ الحاكم، الذي هو ابن عمّه.

كان زامل يُطلق لحيته وشاربيه، وينسدل على رأسه شعر كثيف. وكان ربعةً من الرّجال ولا أقدّر له من السّنّ أكثر من خمسين عاماً. راح يحادثني مطوّلاً عن مشاريعه الإصلاحيّة، وكأنّما كان يسعى لإقناعي بآرائه. وكان يرغب بإعادة دعوة أهالي نجد إلى الاستقلال، وإلى العودة إلى دين الحقّ، الدّين الحَنيف. وكان تحامله على فيصل ابن سعود يتبدّى في كلامه، وراح يتذمّر كثيراً من تصرّف الأمير عبد الله، الذي عندما ظنّني جاسوساً، كما أكّد عنيبَر، قام بإبعادي عن مضاربه وقام بإرسالي إلى حائل بصفة سجين.

ومن خلال أحاديثه عن الوضع الجغرافي والسّياسي لنجد، لاحظتُ أنّ هذا الجزء المهمّ للغاية من أواسط جزيرة العرب ينقسم طبيعيّاً إلى إقليمين عبر منطقة الوَشم Uescem، التي تُعدّ بالغلط نَجداً من أصل سبعة نجود، وذلك لأنّها منطقة تضمّ عدداً قليلاً من البلدات المأهولة الفقيرة. وهي محاطة بالسّهول التي تتجوّل فيها بغير تمايز وتفريق جميع القبائل البدويّة، وتعدّها بمثابة أرض محايدة. وأرضها مُجدبة إلى حدّ بالغ، فهي كما يقال «تبجّ دائماً بالماء».

يتمّ اجتياز منطقة الوشم بواسطة وادي الأزور ézar، والجبال التي تؤلّف حدودها في الشّمال تُعدّ بمثابة حدّ إقليم نجد الشّمالي، ثمّ من وراء الجبال القائمة في الجنوب يبتدئ إقليم نجد الجنوبـي، الذي يتألّف من العارض ومن الحَسَا (الأحساء) وحَريق.

هذا، وإنّ إقليم نجد الشّمالي، أي بعبارة أخرى جبل شمّر والقَصيم وسُدير[1] سوف لن يتوانى، في حال إخفاق مشاريع الأمير زامل، عن الدّخول في طاعة آل رشيد[2]. فإنّ نَجم آل سعود قد بدأ بالأفول.

---

(1) يوردها كيپرت في خريطته باسم: *Djebel Shomer, Kassem & Ssdeyr* (لجنة التحرير).

(2) بعد 4 أعوام من زيارة جوارمانـي يصبح زامل أمير عنيزة 1868م، قُتل بمعركة المليدا 1891 م.

والقُصهان بأجمعهم يحفّون شواربهم ويحلقون رؤوسهم. أمّا الأمير زامل فلا يحفّ ولا يحلق «ما وهبه الله إيّاه»، بل هو على غرار معظم البدو يترك شعره يطول، ويفرقه في رأسه ليعمل منه أربع ضفائر، بينما تفي الكفّيّة (منديل مطوي) بحجب هذه الضفائر عن الأنظار بإبقائها مُنسدلة إلى الخلف.

[كارلو جوارماني في عنيزة]

تمّ إرسالي برفقة تجّار الخيول. ولكنّي لم أرَ سوى الأمهار، فلقد كانت الخيول قد أُرسلت قبل عدّة أيّام إلى الكويت[1]. كان التجّار قلقين، لأنّه كما يقول البعض قد وجّه پاشا بغداد إلى ابن سعود أمراً، وحسب ما يقول البعض الآخر بأنّ هذا الأمر قد صدر عن ابن سعود نفسه، وهو يحظّر تصدير الخيل عن طريق البحر، وهم بذلك يتوقّعون إقفال مورد تجاري بالغ الأهميّة.

ولكي يرضيني عنيبَر، قام بتحديد الرّحيل في مساء يوم 22 مارس، ومنعني من اتّخاذ قرار المسير في النّهار، وراح يجيب على جميع محاولاتـي بأنّه في هذا الفصل تكون الشّمس مميتة، حتى في فلسطين، فالشّمس في شهر مارس تُميت عدداً أكبر من النّاس من جميع أشهر السنة الأخرى.

في أواسط جزيرة العرب يفضّل النّاس التّرحال في اللّيل، ولذلك فإنّ المسافات تُقدّر بمعدّل مسير اللّيالي وليس النّهار. فعندما يقال مثلاً: خمس ليالٍ من المسير والوصول في اللّيلة السّادسة، فينبغي دوماً حساب ستّ ليالٍ، بحسب معدّل طولها في السّنة، وليس خمس ليالٍ وجزء بحسب معدّلها في الفصول المتعدّدة. وهذه الطريقة في التّعبير تدلّ أيضاً على استحالة الوصول في أزمنة أقصر، ضمن المسير بالخطوة المعتادة للجمال ومهما كان بالغاً طول اللّيالي، وذلك لأنّه يتمّ الأخذ بالحسبان أزمنة التوقّف المعتادة.

---

(1) حول تجارة الخيول النجديّة عبر الكويت، انظر رحلة الكولونيل لويس پيلي «رحلة من الكويت إلى الرّياض» (بترجمتي) عام 1865 م. كان پيلي المقيم البريطانـي في بوشهر على الخليج العربـي، ونزل في الكويت بضيافة يوسف البَدر، أحد كبار مصدّري الخيل إلى بومباي.

[التوجّه إلى بريدة]

طلبتُ مراراً إرشادي إلى موقع بْريدَة[1] Breda، عاصمة القصيم القديمة، التي سوف نتوجّه إليها. كان الجميع يشيرون إلى جهة الشمال. ولكن في حقيقة الأمر عندما رحلنا في يوم 22 مارس، سرنا في هذا الاتجاه المذكور عدّة ساعات، ولكنّنا لمّا رحنا نتقدّم شيئاً فشيئاً بقي نجم القُطب إلى جهتنا اليُمنى. هذه الملاحظة جعلتني أتحفّظ، ولم أعد أثق تلقائيّاً بالمعلومات التي يزوّدني بها السكّان المحلّيّون حول الاتجاهات، ذلك أنّهم لا يحتسبون انعطافات الدّروب بل يأخذون بالحسبان القسم الأوّل والأخير من الطريق ويرتكبون أخطاءً كثيرة.

أمضينا نهار يوم 23 حتى العصر في بْريدَة، وهي مدينة مُتداعية كثيراً، وتعتورها الأطلال الخربة، ولكن مع ذلك يقيم بها الأمراء والتجّار المياسير، الذين هم أغنى من تجّار عُنيزة. وسوق الخيل التي بها تفوق ما في عُنيزة من حيث العدد، ولكنّها أردأ منها من حيث الجودة. والأمهار التي في عُنيزة ترد إليها من قبيلة قحطان، أمّا التي في بْريدَة فمن قبيلة مطير. وكان الأمير زامل الذي أخبرني بذلك مسبقاً قد شرح لي سبب رداءة خيول مطير بإيراده المثل التالي: «خير النّاس أهل الشّمال، وخير الخيل خيل الجنوب».

---

(1) أحافظ في ترجمتي على لفظ الأسماء العاميّة كما ينطقها أهلها، ولذا وسمتُ باء بريدة بالسّكون بدلاً من الضمّ، مع العلم أنّ هذا ما ينقله جوارمانـي. وأحبّ أن أشير إلى أنّ اللهجات العاميّة في جزيرة العرب ليست مجرد لَحْن مكسور للفصحى، بل هي تعكس لهجات عربيّة قديمة بادت، ومن هنا يستفيد علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) في دراستها ومقارنتها على أصول تلك اللهجات. فمثلاً هنا نلاحظ البدء بساكن، وهو ما تأنفه عربيّتنا الفصحى، غير أنّ هذا يذكّرنا بأسلوب النّبطيّة والآراميّة الجنوبيّة في البدء بساكن، تقول فيهما: كْتَبْ (بتسكين الكاف وفتح التاء وتسكين الباء) أي: كَتَبَ، بصيغة الفعل الماضي. ومن يدرس مثلاً عاميّة دمشق وحمص يجد أنها تزاوج ما بين عربيّة القبائل اليمانيّة واللغة السّريانيّة، ومن يدرس عاميّة حلب يجد أنها تزاوج ما بين عربيّة قبائل القيسيّة المضريّة واللغة السّريانيّة. ومن يدرس عاميّة ساحل لبنان يرى بوضوح أنها تزاوج ما بين عربيّة القبائل اليمانيّة والسّريانيّة، مع مؤثرات قديمة كنعانيّة (فينيقيّة)، نرى لها أصداء أيضاً في لهجة تونس (إمالة الألف). ومن يدرس لهجة جبال السّاحل السّوري يجد أنها تحفظ إلى حدّ بالغ بقايا كنعانيّة الجبال القديمة (العائدة إلى حضارة أوجَريت)، مثل تكرار المنادى، وعبارة: أيلي، والإكثار للغاية من صيغة تصغير الأسماء: حمّود، وسّوف، جمّول، حسّون، ديّوب، خصيروف.

[كارلو جوارماني يزور بندر بن طلال]

عند العصر، رحلنا إلى العيون El-Aiun، وعند السّاعة العاشرة مساءً توجّهنا منها إلى القوارة Guara، حيث وصلناها في صبيحة اليوم التالي، بحوالي ساعتين قبل الظهر.

أمضينا هناك بقيّة يوم 24 مارس وطوال يوم 25، لأنّنا أُعلمنا بأنّ بضعة مئات من قبيلة مطير كانوا على طريق الغافة Ghofeh، ولذلك فلم ندخل في هذه القرية إلاّ في فجر يوم 26. ثمّ رحلنا منها بعد منتصف اللّيل. زلم يلزمنا سوى ثماني ساعات حتى وصلنا إلى فَيْد Fèd، وهي قرية صغيرة تُعدّ بمثابة أقدم قُرى نَجد أو في حدودها. وهي تقع في وادٍ طويل تتناوحه سلسلتان جبليّتان في جهتي الشرق والغرب. والسّلسلة الغربيّة منهما تؤلّف جزءاً من السّلسلة التي تحدّ في جهة الشرق وادي سَلمى.

استرحنا في فَيْد لمدّة أربع ساعات، ثمّ خلال مسيرة ستّ ساعات عبر الجبال وصلنا إلى طابَة Tabe، في جبل شمَّر. وعلى بُعد ثلاث ساعات إلى الجنوب الغربي من طابَة كان ينزل الأمير بَندَر، أكبر أمراء الأمير طلال ابن رشيد، ومعه حوالي ثلاث مئة عبد لحراسة خمس مئة من أفراس السّباق ترعى هناك.

اقترح عليّ عنيبر أن أقوم بزيارة الأمير الشاب بَندَر، ولم يكن أيّ شيء آخر ليشعرني بسعادة أكثر من ذلك، فوافقتُ مُمتنّاً وقام الرّجل الطيّب بإيقاظي قبل الفجر بساعتين، لكي يجعلني أصل إلى مضارب ابن الأمير في وقت ركوب الخيل.

وبمجرّد أن أبصر بنا العبيد عن بُعد، راحوا يطلقون لنا بضعة طلقات من البواريد لكي يوقفونا، أو يجبرونا على الرّجوع. فإنّه من المحظّر، كما أخبرني عنيبر، الاقتراب من الأفراس مخافة أن يصيبها أحدٌ بعين سوء. ولمّا رآنا العبيد نواصل تقدّمنا برغم ممانعتهم الصّارخة، هرعوا يزعقون لملاقاتنا، وراحوا يلوّحون بنبابيتهم *nabbut* ويظهرون مدى تَوقهم لضرب جنوبنا بها.

طفق عنيبر يضحك، وسُرعان ما تعرّفوا عليه، فتقدّموا منه باحترام وقبّلوا يده مهنّئين إيّاه بسلامة الرّجوع. ولّما تمّ إخبار الأمير بقدومه أمر بحضوره فوراً إلى خيمته، وبعد خمس دقائق استدعانـي إلى دخولها، وقال بتهذيب جمّ إنّ الموظّف لدى صاحب المعالي فؤاد پاشا يليق بأحسن استقبال، لدى عائلة تحمل سيفاً من سيوف السّلطان، وتعدّ نفسها من بعض عبيده. وبأنّ أباه بدلاً من الوقوع في تُرّهات الاستقلال، يتشرّف بخدمة الحكومة. ولقد أدهشه امتناعي عن التّدخين، فسألني ضاحكاً إذا ما كان الوهابيّون[1]، الذين لم يعد لهم وجود في نجد، قد شاع مذهبهم في إسطنبول. ولم يقبل الأمير أبداً بشرب القهوة قبل أن أبادر أنا إلى شربها، ولّما خجلتُ من الاستئثار بهذا الشّرف، تناول الفنجان *findgian* من يد العبد وقدّمه لي.

بعدما شربنا القهوة، أمر الأمير أن يطيّبوا لحيتي، ودعانـي لتمضية ثلاثة أيّام ضيفاً لديه، حيث أنّ عليه بناءً على طلب أبيه أن يعود إلى حائل، وبأنّه سيرافقني بذاته ويقدّمني إلى أبيه شخصيّاً. وسخر من عنيبر لقبوله تكليف الأمير عبد الله بمهمّة الشّرطي، وأضاف بتخابُث أنّني حتى لو كنتُ جاسوساً، فإنّ من دواعي سروره استقبال رعايا السّلطان المخلصين.

[الطريق إلى حائل]

رحل عنيبر بعد العشاء، وكان علي ماكثاً في طابَة. وفي يوم 31 مارس، سلكنا طريقنا صوب الصّبَان Seban، بعدما مررنا بطابَة لأخذ علي منها. ثمّ في يوم 1 أبريل بعد غروب الشمس، دخلنا حائل.

عند باب المدينة كانت مُلقاةً جيفة يهودي عَجمي، قتله الدَّهماء لادّعائه بأنّه مُسلم ولرفضه بعد افتضاح أمره النّطق بشهادة الإسلام: «أشهدُ ألاّ إلهَ إلاّ الله، وأشهدُ أنّ مُحمّداً رسولُ الله».

---

(1) انظر حول هذا الموضوع المذكرة التي قُدّمت إلى الجمعيّة الجغرافيّة في لندن، من قبل جيفورد پالجريف Gifford Palgrave (لجنة التحرير).

كان هذا التّعيس قد دخل إلى نجد قادماً من الحَماد، وراح يطلب شراء خيول لصاحب الجلالة شاه إيران. وإذا شئنا الحقيقة، ينبغي إدراك أنّه يستحقّ إلى حدّ كبير هذا المصير البائس الذي لقيه. فطالما كان الإنسان سيلقي بنفسه في مهمّة عسيرة، عليه قبل كلّ شيء، لكي يكون النّجاح حليفه، أن يقرّر استخدام جميع الوسائل الممكنة، وحتى أن يبذل المستحيل. وعليه ألاّ يتوانى ولا يتقاعس أمام أيّة عقبات كائنةً ما كانت.

هذا ولقد ساد الاعتقاد، في كلّ من مصر وفلسطين، بأنّ مَن قُتل كان أنا ذاتي، ذلك بأنّ الخبر انتقل من تَيماء إلى تَبوك وإلى باقي منازل الحجّ إلى مكّة. ودريتُ في القاهرة بأنّ المونسنيور غوبا Mgr Gobat، أسقف الكنيسة الأنجليكانيّة في القُدس، وبطريركنا في المدينة المقدّسة قد أتاهما الخبر من الإسكندريّة. وانتشر الخبر بسرعة بحيث أنّ عائلتي راحت تندب موتي، بينما كنتُ أنا أتنعّم بأكل عصيدة التُّمَّن (بيلاف *pilaff*)، وكنتُ أؤدّي فروض الصّلاة (الرّكعات *rikat*) بكلّ التّقوى والمواظبة المعتادين، متوجّهاً فيها إلى الله بقلبي، وتالياً بكلّ احترام اسم محمّد بشفتَي[1].

[كارلو جوارماني في حائل]

ترجّلتُ عن بعيري عند باب المسجد، عند السّاحة التي تفصل بينه وبين قصر الأمير. ودخلتُ المسجد مع بَندَر لأداء سبع ركعات، على اعتبار أنّنا لم نُصَلِّ أبداً طوال النّهار. كان المحراب موجّهاً نحو الجنوب، وليس باتجاه الكعبة، مثل جميع المحاريب التي شاهدتُها حتى الوقت الرّاهن. وهذا الأمر لم يكن بسبب الجهل بالجهات، وإنّما عن قصد، فإنّ الحَنية المستخدمة بالأصل في قرى سوريا للدّلالة على الجنوب *keblet*، أخذت شيئاً فشيئاً بالعاميّة اسم القبلة Kiblah، ولم يعد وارداً في الاعتقاد، ضمن الأقاليم المجاورة، بأنّه يمكن تحويلها إلى أيّ اتّجاه آخر.

---

(1) رغم أنّ جوارماني كان يتقمّص في رحلته شخصيّة مسلم، فهو لم يسئ الأدب في كتابه.

[في قصر الأمير بحائل]

اختتم بَندَر صلاته قبلي. وخرج لخمس دقائق لكي يُصدر أوامره، وعاد في اللحظة التي كنتُ أدير فيها وجهي إلى اليمين وإلى اليسار إلى الجدران (فالمسجد كان خاوياً)، وأعدّل لحيتي بأن أفرك ذقني بيدي وأنا أتمم عبارة «السّلام عليكم» "Salam Aleikom". فخرج ثانيةً معي، وتمنّى لي قضاء ليلة طيّبة ورجانـي أن أتبع عبده محبوباً. اجتزتُ السّاحة مع علي، رفيقي الذي لا يفارقني، ودخلتُ قصر الأمير عبر باب صغير ينفتح ضمن بوّابة البُرج الرّئيسي الذي يتمّ إقفاله في اللّيل.

اقتادنـي محبوب إلى قاعة القهوة، التي يبلغ طولها حوالي أربعة عشر متراً، وعرضها خمسة أمتار، وارتفاعها ستّة. وكان السّقف يرتكز على نَسَق من خمسة أعمدة، والجدران الرّماديّة منقّشة بزخارف عربيّة بدائيّة بيضاء، أمّا وَجرة النّار فكانت إلى يمين الدّاخل، وكان عندها شاب في العشرين من عمره يقوم على غلي العُقّار الأسود. لم أشرب من هذه القهوة سوى فنجانين صغيرين، لأنّه يُعدّ من قبيل الإهانة ملء فنجان القهوة، وتمّ اقتيادي تحت أروقة ساحة فسيحة مستطيلة. قدّم لي عبدٌ صينيّة *senie* تمور وسَمن طازج، لأنّ هذه الثّمار تؤكل مع السّمن لتحسين طعمها.

لم أرغب بعد ذلك بالعودة إلى قاعة القهوة، بل استفسرتُ عن بعيرينا ومَتاعنا. فأجابني محبوب بأنّه حسب أوامر بَندَر، قد تمّ إدخال البعيرين ضمن السّياج المخصّص لجمال الأمراء، وبأنّهما في كلّ صباح يؤخذان إلى المرعى. أمّا أمتعتنا فسوف نجدها في الدّار التي تمّ إعدادها لنا.

قام الأمير بتشييد كثير من الدّور الصّغيرة لضيوفه، جميعها على النَّسَق ذاته: ساحة تُستخدم للجمال والخيول، وثمّة حُجرة أو قاعة، ليس لبابها مصاريع، لأجل استقبال الزّيارات وشُرب القهوة، وغرفة صغيرة للنّوم. ولهذه الأخيرة بابٌ صغير ذو ألواح من خشب النّخيل مع قُفل ومُفتاح من الخشب مثل الموجود في جبل لبنان.

وأبواب الرُّدهة تُفتح على النَّحو ذاته وتتألّف من النّوع ذاته. وسقف الغُرف محمول على عضادة. وعلى عضادة غرفتي، في الجهة المواجهة للرُّدهة، قمتُ في بعض أوقات الفراغ بنقش عبارة: "Zulima, 1864"، وهو اسم ابنتي «سُليمى»، وسنة زيارتـي!

وللتعرّف على الدّار التي أسكنها، في حال رغب أيّ إنسان بالقدوم على مسار رحلتي: فعليه اجتياز السّاحة من بوّابة المدخل الكبيرة لقصر الأمير إلى القنطرة التي تواجهه، ثمّ عليه أن يتبع الشّارع الذي يبتدئ تحت هذه القنطرة، إلى أن يُفضي هذا الشّارع يساراً إلى شارع آخر يأخذ إلى السّوق، فأمّا الدّار الموجودة على يمين من ينعطف في هذا الشارع فهي داري.

كانت غرفتي معزولة من ثلاث جهات. وجدتُها جيّدة النّظافة، وكانت هناك نارٌ طيّبة من خشب النّخيل تتّقد في الوَجرة المحفورة إلى يسار الباب. وكان في الغرفة حُصرٌ وبُسطٌ ونمارق، كما وُضعت في إحدى الزّوايا جرّة مملوءة بالماء، وثمّة طاس من النّحاس المبيَّض يبلغ قطره 25 سنتمتراً يغطّي فوهة الجرّة.

[جولة في سوق حائل]

في يوم 2 أبريل، استيقظتُ مبكراً، وأحضر لي بوّاب القصر حليب نوق وقطعاً من الفطير، ونصحني بالخروج لرؤية البلد وتمضية الوقت، حيث أنّني لن أرى الأمير طلالاً إلّا بعد صلاة العصر. فذهبتُ في الواقع بعد تناول وجبتي أتمشّى في السّوق، فوجدتُها سوقاً رثّة جداً بالمقارنة مع سوق عُنيزة.

كان ثمّة العديد من التّجار الذين تعود أصولهم إلى مَشهَد علي (النَّجَف)، وآخرون من بغداد، ومن البَصرة، ومن قرى القريرة Gerire، ومن العراق. دخلت دكاكينهم وأنفقتُ مئتين من القروش الحقيقيّة على علي، لأنّني رغبتُ بكسوته حلّةً جديدة تتألّف من عباءة وكفيّة وقميص أبيض، برغم تمسّكه بلون الثّوب الأزرق الذي ترتديه عشيرته، والذي يشبه قمصان النّساء.

وأقول قروشاً حقيقيّة لأنّه في هذا السّوق يُعدّ القرش قيمةً اصطلاحيّة محدّدة بسبعة قروش ونصف مَلَكيّة. أمّا رسوم البضائع عند دخولها فتُدفع دوماً بالرّيالات الفضيّة المجيديّة[1]، وأمّا في القَصيم فتُدفع بالرّيالات الإسپانيّة.

في السّاعة العاشرة، أقفلت جميع الدّكاكين تقريباً، ولن تعود إلى فتح أبوابها إلاّ في السّاعة الثالثة.

اصطحبني محبوب، الذي كان يبحث عنّي منذ ساعة، إلى الدّخول مجدّداً تحت رواق ساحتنا، وراح العبيد يقدّمون لي التّمر والسَّمن كما في الأمسية الفائتة، وزيادة على ذلك قدّموا لي پيلاف التّمّن. وفيما راح المؤذّن من منارة السجد يؤذّن بلهجة نجديّة Meschit ليؤمّ بالمؤمنين إلى صلاة العصر، أتى بَندَر[2] ليأخذنـي ويقدّمني إلى أبيه.

[جوارماني يقابل الأمير طلالاً]

كان الأمير طلال بن رشيد رجلاً في الأربعين من عمره، قصير القامة جسيماً أسمر، ذا عينين سوداوين لمّاحتين وأنف أقنى. وكان يلبس عباءةً حَساويّة رقيقة جداً بنيّة اللون، وكفيّة بغداديّة، وعقالاً مقصّباً بخيوط الحرير والذّهب، وسُترة من الجوخ الأخضر الغامق، وثوباً طويلاً أبيض. كان قد خرج لتوّه من المسجد، وعقد مجلس قضائه عند الباب. كان جالساً على دكّة تُرابيّة تحتلّ جميع القاعدة الشرقيّة لجدار المسجد. وكان موظفوه الرّئيسيّون يجلسون حسب مراتبهم إلى يساره في نَسَق. وأمامه يجلس على الأرض في نصف دائرة حوالي عشرين عبداً وخادماً، جميعهم يرتدون ثياباً فاخرة تتألّف من عباءات سود رقيقة للغاية، وسترات من الجوخ الأحمر أو الأزرق كان أكثرها مطرّزاً بالذّهب، وبأيديهم، كما بيد الأمير وجميع حاشيته، سيوفٌ ذات أغماد فضيّة، هذا لأنهم لا يتنكّبون السّيف إلاّ عند امتطاء الحصان.

---

(1) الرّيال المجيدي يعادل 4,66 فرنكاً فرنسياً (لجنة التّحرير).

(2) بندر بن طلال سيكون الأمير الرابع لجبل شمّر بعد عمّه متعب، حكم 1870–1872 م.

وخلف الحَرَس الذين يشكّلون نصف دائرة، كانت امرأة فقيرة تتوجّه بكلامها إلى الأمير، طالبةً منه الإنصف في وجه حاكم قرية الوْسَيْطا، الذي قام بغير إذن منها باستخدام حمارها، وانتهرها عندما سألته عن موجب فعلته.

فأمر الأمير بأن يرافق المرأة اثنان من الخيّالة إلى القرية، وأن يؤخذ من بين حمير الحاكم خير واحد منها، وأن يُعطى هبة للمرأة كتعويض عن السُّخرة الجائرة التي فرضها نائبه على حمارها، ولقاء الإساءة التي تعرّضت إليها، تمّ الحكم على الحاكم بإعطائها كسوة كاملة. فابتعدت المرأة يتبعها الخيّالان، وهي تُسهب بالثّناء على الحاكم العادل وتشكره.

[لقاء صامت مع الأمير]

لم ينهض الأمير البتّة لاستقبالي، بل مدّ لي يده فلمستُها بيدي التي رفعتُها بعد ذلك إلى شفتَي وقبّلتُ أصابعي، ثم رفعتُها إلى جبهتي، كما فعل هو أيضاً بيده، وبإشارة منه دون النّطق بأيّ كلام جلستُ على الأرض إلى يمينه، على درجة باب المسجد. وبعدما قام بفصل ثماني قضايا مشابهة فصلاً مُبرماً خلال ساعتين، لبس خُفّيه وفضّ المجلس، وقام بتحيّتي بوضع يده على قلبه، مع ابتسامة. فقمتُ بردّ التحيّة له بالابتسام أيضاً. وكان ذلك مضحكاً، فهذه أوّل مرّة يتمّ استقبالي بها على طريقة البُكماء. أمّا بَندَر فذهب مع أبيه.

كان محبوب قد ظهر ليدعوني إلى العشاء، وهذه المرّة أصعدني إلى سطح الرّواق، حيث كان يمتدّ بساط كبير. قام صبي مغربي صغير بوضع طاولة مستديرة عليه، يبلغ ارتفاعها 25 سنتمتراً، وعليها وضع مغربيّان يافعان آخران صينيّة مليئة بالتُّمّن واللّحم والخبز.

بعد العشاء، قمتُ بغسل يدي باستخدام طريقة البدو المألوفة، وهي فرشاة آدم. وأثناء تناولي العشاء، كانت نساء الأمير ينظرن إليّ من خلال نافذة ذات شبك خشبي، ويبدو لي أنّني ميّزتُ من بين أصوات وشوشة النّساء صوتين رجوليّين لبَندَر والأمير طلال.

في دورة حياة كلّ إنسان، وإن كان من أوفر النّاس عقلاً، تأتـي عليه لحظة ينسى فيها نفسه ويتحوّل إلى حيوان دون أن يفطن إلى أنّه يخالف طبيعته الأسمى: وهذا عندما يجد نفسه مُهاناً - كما حصل لي شخصيّاً - بالتحوّل رغماً عنه إلى مجرّد حيوان غريب! نزلتُ الدّرج، دون أن ألتفت إطلاقاً إلى شبّاك الحريم ومتظاهراً بأنّـي أصمّ. وكنتُ أنوي شُرب القهوة في القاعة المعتادة، لولا أنّ بَندَراً أرسل يدعونـي بالنّيابة عن أبيه لدخول شقّته الخاصّة.

[اللقاء الثانـي مع الأمير طلال]

قبّلني الأمير ورحّب بي، ورحنا نتحدّث لحوالي خمس ساعات. وكان بين الفينة والأخرى يأمر بتطييب لحيتي وتقديم القهوة البيضاء والسّوداء لي. ولقد علم بأنّ جيادي ما زالت موجودة في المستجدّة، حيث كان يستجير رفاقي الهتيميّون خوفاً من المطير الذين كانوا يُغيرون في الجنوب بنواحي الحدود. فطلب بَندَر الإذن بمرافقتي وحصل عليه، ولكن بشرط ألاّ نتفارق إلاّ عند انقضاء أيّام الضّيافة الثلاثة. وتقرّر أن يقود عنيبر المرافقة، التي حدّد الأمير عددها بعشرين خيّالاً. كما أعطانـي أنا الإذن بالسّفر في النّهار. أمّا بخصوص توصية الأمير فيصل بن سعود، فلم يذكر كلمة واحدة.

حتى حلول يوم 5 أبريل، رحتُ آكل وأشرب وأتقيّل، وأكتب. وأمضيتُ كذلك بضع ساعات في الدّكاكين وكنتُ أحضر بشكل دائم جلسات القضاء، التي كانت تُعقد في الصّباح عند باب القصر، وتلك التي تُعقد في المساء عند باب المسجد.

كان الأمير يمارس حكماً كالوارد في الكتاب المقدّس: «مَن يحيا بالسّيف، بالسّيف يموت»، فكان يحكم على القاتل بالقتل، ومَن يجرح إنساناً في مشاجرة يأمر بقطع يده، أمّا الكذّابون وشهود الزّور فكان يحرّق لحاهم على النّار وحتى في بعض الأحيان تحترق عيونهم. أمّا السّارقون فلهم الحبس، والعُصاة الخارجون عن الطاعة يجازون بالاستيلاء على ممتلكاتهم.

قال لي مراراً إنّ الأرامل والأيتام أعزّ على قلبه من أهل بيته. وكانت أحكامه تفيض بالإنصاف وكرمه لا يُحدّ. وكان عندما لا يستقبلني مساءً في شقّته يأتـي ليمضي ساعة في قاعة القهوة. وكان الشعراء الباحثون عن المغانم يرتجلون قصائد في مدحه. أعطى في حضوري لشاعر ابن سعود الضرير مثل هوميروس كسوة كاملة، ومئة ريال مَجيدي، وبعيراً وحصاناً، لقاء قصيدة كانت خاتمتها هذا البيت: «ولابن رَشيد مُلكُ نجد بحالها»!

[جولة جوارمانـي إلى مَوقق وتَيماء]

في يوم 5 أبريل، ذهبنا للمبيت في الغزالة، بعدما مررنا بقفار Gofar. ويوم 6 منه دخلنا المستجدّة، في السّاعة الثالثة من بعد الظهر. وصرّح لي الحاكم بأنّ جيادي كانت في مراعي الرّوضة. وفي صباح اليوم التالي في الرّوضة، قيل لي إنّها قد توجّهت في اللّيل مجدّداً إلى المستجدّة. فرجعتُ إليها على الفور، فوجدتُها في الواقع على أتمّ حال وصحّة.

كان في انتظاري أيضاً خبرٌ طيّب: فلقد انسحب المطير إلى ما وراء وادي سلمى، وصار بوسعي الآن إرسال الجياد إلى قُفَيفة بكلّ أمان.

في يوم 8 أبريل، اصطحبتُ الجياد إلى السّليمة وتركتها تتبع المراعي وصولاً إلى وجهتها المعيّنة، ومشيتُ مع علي إلى الغزالة للقاء بَندَر وعنيبر، اللذين توجّها إليها مباشرةً. وعند القصر، شكرتُهما على حُسن رفقتهما، وكذلك فيما اجتازا بقفار، فقد بتُّ بها ليلة يوم 9 إلى يوم 10، عازماً على المضيّ إلى مَوْقَق وتَيماء، ما قبل العودة إلى حائل. ولم يبادر بَندَر إلى الرّحيل دون أن يعطي رسالة إلى الأمير سْمُحان ابن مْشَير Smoekan-eben-Mesceir حاكم مَوْقَق، وأمره بإعطائي مرافقة وأقواتاً.

في يوم 10 أبريل استرحتُ برهةً في لزّام، ومكثتُ حتى العصر في مَوْقَق، وتابعتُ طريقي إلى قُفَيفة، وكلّ اهتمامي منصبّ قبل كلّ شيء على التأكّد من أجل جيادي، من أن تكون هذه المراعي جديرة حقاً بما لها من صيت.

تحتلّ قُفَيفة بالقرب من الجبال سهلاً فسيحاً، حيث خلال عشرين سنة قادمة سوف يوجد العديد من القرى الأخرى، فقد بُدئ هناك سلفاً ببناء الدّور المنفصلة، وبحفر الآبار، وبغرس أشجار النّخيل. كان السّهل بمثابة بساط شاسع من النَّصي الذي يبلغ طوله حوالي القدمين. وكانت خيولي المطلقة، إنّما المقيّدة القوائم الأماميّة، لا تبقى أبداً بمنأى عن نظر رُعاتها. وكانت ترعى خلال النّهار، وفي اللّيل تُجلب للمبيت في القرية.

في يوم 11 أبريل، مكثتُ أربع ساعات في سهل قُفَيفة مع رَبعي، ورتّبتُ المسير صوب بِدعان Bedân، وهي قرية مُحدثة تسمّى أيضاً: البديع [المبيدع]، كما أنّ الحيّانيّة تُدعى أيضاً باسم الحناكيّة. وهذه القرية الأخيرة، التي تقع إلى الشّمال من جبل شمّر، كان من الأفضل أن تبقى على اسمها الأوّل، على اعتبار أنّ ثمّة حناكيّة أخرى في أواسط جزيرة العرب، في ديار بني حَرب.

في بدعان قمتُ بالتزوّد بالمؤن اللازمة، دون أن ألجأ إلى كرم شيوخ البلدة، وفي صبيحة يوم 12 أبريل تابعتُ طريقي صوب تَيماء. وحده علي كان يرافقني. جهّزتُ نفسي بالمؤن واللّوازم الضروريّة، بحيث أتمكّن من المبيت حيث يدركني غروب الشّمس. ولم أرغب على الإطلاق بالحصول على مرافقة، من أجل البقاء حرّاً في تقصّي الطريق بدقّة على خارطتي ولدراسة المنطقة.

في هذه الآونة، علينا أن نتوقّع الالتقاء عند كلّ خطوة على الطريق بمضارب عرب شمّر، ووُلد سليمان والأيدان. فلذا يمكن لنا اعتبار أنفسنا بمأمن من الخطر الذي يفرضه تجوال حملات البدو المعادين. ولا شكّ بأنّ النّفود في الشمال، والحَرّة في الجنوب هما بمثابة الدّيار القديمة لبني طَيّ. ولم يكن علينا ما نخشاه سوى المصادفة المنكودة لبعض اللّصوص المنفردين، غير أنّ هذا الاحتمال لم يقلقنا على الإطلاق، فلقد كنّا نمتطي متن رواحل سريعة، فضلاً عن أنّ تسليحنا كان متفوّقاً أيضاً. وفي حال الدّفاع المشروع عن النّفس سوف نتمكّن من التصرّف على وجه حسن، لأنّنا في حياة التّشرّد التي عشناها وجدنا نفسينا أكثر من مرّة مضطرّين إلى ما ينبغي للمرء عمله عند التعرّض لهجوم، لمّا يقتصر اعتماده على نفسه وعلى الله.

في غضون ثلاثة عشر يوماً، أي في يوم 24 أبريل، خرجتُ من بدعان مع علي ومحمّد والدّريبي. وقمتُ في طريق العودة بالتّجوال من جديد على الدّرب ذاته الذي سلكتُه عند مجيئي، وهذا ما أكّد لي أنّه لا يتعيّن عليّ القيام بأيّ تقويم لخارطتي أو أن آخذ أيّة ملاحظات جديدة حول تضاريس للأرض.

شُفي محمّد من رَمَد قوي، إذ قامت امرأة عجوز من تَيماء بمداواته بالكُحل، ثمّ بعد ذلك بالتّبخير بمغلي رؤوس المعزى وقوائمها، التي تُغلى بوبرها. وهذا العلاج يُعدّ عامّاً في الصّحراء لأجل جميع أمراض العيون، وخاصّة للكُمه (عشى الإبصار)، وينبغي أن يمكث المريض وهو مغطّى بعباءتين فوق القِدر بعد رفعه عن النّار، إلى أن يتوقّف تصاعد البُخار. وفي جبال البلقاء يُستخدم أيضاً التّبخير بورق الغار.

في يوم 25 أبريل، طلبتُ جلب الجياد إلى بدعان، وقمتُ بدفع أثمانها، وطلبتُ إعطائي وثيقة من الشّيوخ الشاهدين على عمليّة الدّفع. ودفعتُ كذلك أجرة الحارسين الهتيميّين، دون أن أنسى المكافأة التي يستحقّها علي، وسرّحتُ مرافقيّ وهم راضون وممتنّون. وفي يوم 26، أخذتُ من الأمير خيّالين شمّريّين، من حرس بدعان، ليحلاّ محلّ الهتيميّين، ورافقتُ الجياد حتى طويّة، إذ أنّني سأرسلهم إلى جُبّة، حيث سأوافيهم إلى هنالك.

في طويّة، ألفيتُ الأهلين مشغولين بتكويم الجراد الذي سيتمّ شيّه في وَجرات عميقة بالرّمل. واشتريتُ منه أربعة أكياس قمتُ بتحميلها على بعيرَي محمّد والدّريبي.

إنّ الجراد الذي يثير في جميع البلدان رُعب المزارعين، يعدّ مصدر غذاء ثمين لدى سكّان الصّحراء. وهم يتتبّعون بنظرات نهمة مسار الغيوم الملبّدة التي يشكّلها في السّماء أثناء طيرانه، وحيث يحطّ فالكلّ يخفّ راكضاً. ويقومون بحفر الأرض ويشوونه على عَجَل. ولقد أثبتت لي التّجربة أنّ الجراد ليس غذاءً جديراً بالتّوصية، بالرّغم من التّناقض الذي يُبديه الذّواقون الشرقيّون بأنّه طعام جيّد. فإذا شوي فإنّ طعمه غثٌّ تافه، وإن سُلق صار مُخاطيّ القوام.

[قيمة الجراد لدى أبناء البادية]

ولكن بالنّسبة للخيل فهو حتماً يعادل قيمة الشّعير، فإنّه يليّن باطنتها ويقوّيها ويزيد من حجم عضلاتها دون أن يكسوها بالشّحم. وأمّا عند تجفيفه وسحقه بشكل ذَرور، فهو يوفّر مادّة غذائيّة غنيّة ضمن حجم قليل. وعلى هذا النّحو، وبمعزل عن الرّطوبة، يمكن حفظه لعدّة سنوات.

إنّ مُدّاً من الجراد يعادل بكل جدارة مدّين من الشّعير، ويمكن جمعه من رقعة من الأرض لا تفي بتقديم مجرّد خُمس مُدّ من الشّعير. وإنّ جمع هذه الحشرات، ونزع أجنحتها وسيقانها، واستنباط قيمة الشّعير منها، هو ما يعدّه الفلاّح حتى يومنا الحاضر بمثابة آفة سماويّة تحوّلت بالنّسبة له إلى رزق أرضي حقيقي.

في يوم 26 أبريل، كان عليّ العودة بمفردي إلى مَوْقَق. وفي يوم 27 بصُحبة دليل إلى قفار. في حوالي منتصف الطريق، وقبل أن نقطع على ظهر الحصان مسيرة رُبع ساعة في الجبال، وجدنا على اليمين مغارة مشكّلة من كتل الجرانيت، متخلخلة بقوّة بفعل هزّة أرضيّة، أدّت إلى تهشيم هذه الكتل وفصلها عن الجبل، لكنّها لم تكن قويّة كفاية لخلعها نهائيّاً وتبديدها وإسقاطها في الوادي. في هذه المغارة يوجد ماء بوفرة كبيرة، ويزعم بعض النّاس أنّ هذا نبع، وبعضهم الآخر يقول إنّه حَوْيَة[1] ماء مطر يتغذّى من حَويات أخرى تتّصل مجاريها معاً تحت الأرض. والواقع أنّ مستوى الماء يبقى ذاته على الدّوام. كان الماء رائقاً وعذباً، لكنّني لم أشرب منه البتّة، إذ أنّه أعاد إلى ذاكرتي عمليّة العَرك بالسّمن الذي مارسته عليّ الأيدي الخشنة للرّاقصات البوهيميّات.

---

(1) أودّ أن أنبّه إلى أنّني عندما أتعامل مع النّصوص التراثيّة المتعلّقة بالبادية، أفضّل أن أستعمل بعض المفردات الطبوغرافيّة المتعلّقة بتضاريس الأرض حسب منطوقها العامّي، من أمثال: دَوّ، حَوية، خَبرة، شير، جُرد، حزم، فَلج، خُرّ، مَنقَع، قاع، عَريق، وهي لا تنبو كثيراً عن الفصحى. والسبب في رأيي أن هذه المفردات تعبّر عن جزء مهمّ ثمين من التراث الشفاهي لأبناء البادية، الذي يرادف تراث الفصحى، فيقارضه ولا يعارضه. ومن الغريب حقاً أن أحسن معجم لهذه التسميات وضعه مستشرق إنكليزي معاصر هو نايجل غروم Nigel Groom، بعنوان: «معجم الطوبوغرافية وأسماء الأماكن العربيّة»، نشرته مكتبة لبنان، بيروت 1983.

في المساء، قام باصطحابي الأمير زيد الخَشّاب[1] Zeid-el-Eksciab حاكم قفار، حيث حللتُ ضيفاً عليه في دار أمير بني تميم. هذا الأمير الذي كان العقب الوحيد المتبقّي من سُلالة أبطال والذي لا شأن له، يعيش حياةً رغيدة ولكن بغير قيمة أو اعتبار، في مدينة يقطنها بالكامل أحفاد رعايا أجداده. وكان هو أوّل من أعطاهم قدوة إحناء العنق تحت نَير طُغيان الحاكم.

[عودة جوارماني إلى حائل]

في يوم 28 أبريل، عدتُ إلى حائل إلى داري الصّغيرة، تغمرني سعادة غامرة. وكان بَندَر في قرية بَقعا Bahcaa. لم أفكّر أبداً في أن أذهب إلى هنالك، ولكن من أجل أن أتمكّن من تحديد موقعها، صعدتُ إلى تلّة مجاورة، يمكن من أعلاها استكشاف الجبال التي تحيط بها.

وبعد بضعة أيّام، لمّا ذهبتُ مع الأميرين عبد الرّحمن ورشيد بن رشيد، لمشاهدة خيلهما على الطريق الذي يؤدّي إلى هذه القرية، قمتُ بالتّجوال عليه على مدى 8 ساعات، ولاحظتُ أنّنا بعد 7 ساعات قد وصلنا إلى جبل يقع تقريباً على منتصف الطريق إلى قرية بَقعا.

كان الأمير يتأهّب للمضيّ في غزو، وعلمتُ بصورة سريّة أنّه كان عازماً على الإغارة على الشّرارات. وكانت نقطة التجمّع في الحيّانيّة. كم شعرتُ بمزيد الأسى على أنّ سليم اللّحاوي سوف لن يُغفر له أمر السّماح لفَندات عاصية على الحاكم بالإقامة في مضاربه بالذّات.

مضيتُ في 30 أبريل إلى قصر عقدة بصُحبة عنيبر، لكي آخذ أسلحتي التي تبقى مودعة هناك في زمن السّلم، وتكلّف ذلك قيمة أربعين بعيراً.

---

(1) أتعبتنا لجنة تحرير المجلّة كثيراً في رسمها المغلوط لأسماء الأشخاص والأماكن، وجوارماني اتّبع في قواعد transliteration مذاهب عوجاء. حاولنا قدر المستطاع رسم هذا الاسم حسبما يرد بالإيطاليّة، وكان المؤلف قدّم القول بأنّه يرسم حرفي الحاء والخاء بحرف k بالإيطاليّة. ولمّا لم نعثر على ما يضبط الاسم في المراجع التي بين أيدينا، فننتظر ممّن لديه علم بصوابه أن يكاتبنا كيما نصوّبه في الطبعة القادمة، وله جزيل الشكر والتقدير.

إنّ بوّابات قصر عقدة مكسوّة بصفائح الحديد. وللذّهاب إلى هناك من الوَسَيطا، يسلك المرء مدقاً لا يتجاوز اتّساعه في الغالب القائمتين الأماميّتين للبعير. ويبدو أنّ هذا القصر بمثابة ملاذ أعدّه الأمير لنفسه في المستقبل، في حال مال نَجم آل رَشيد إلى الأفول.

[حملة ابن رشيد على الشّرارات]

في يوم 4 مايو، عند بُزوغ الفجر، راحت راية الأمير ترفرف، وكانت ساريتها نُصبت عند بوّابة قصره بحائل. وكنتُ منذ مساء الأمس أُعلمتُ بأنّني سأرافق الحملة حتى الحيّانيّة أو الحناكيّة. كان عليّ الاستيقاظ باكراً في الصّباح، فقد كان الأمير مستيقظاً وقائماً قبلي. وراح يُشرف على توزيع السّلاح والأباعر على المتطوّعين الذين ينقصهم شيء، فقام بتوزيع حوالي ست مئة بعير.

في السّاعة العاشرة، انتضى أحد العبيد الرّاية، وامتطى حصاناً واستهلّ المسير، فما كان من جميع القوّات الحاضرة، والتي تصل ربّما إلى ألف رجل، إلّا أن تبعته جميعاً. وبعد ذلك تلا الأمير، مع علي ابن عمّه عُبيد، وأخيراً عنيبر وأنا. قام عنيبر بناءً على أمره بتوزيع كميّة كبيرة من قطع العملة البالغة عشرين بارة، على النّساء والأطفال والعبيد الذي رافقوا ركابنا لمدّة نصف ساعة خارج المدينة وهم يزعقون بالصّراخ (ويعدّون ذلك إنشاداً)، إشادةً بسيّدهم البالغ العَظَمة والكرم.

عند الوقيد، انضمّ ثلاث مئة خيّال من الأسلم والعبدة[1] إلى القوّات لدعمها. كما انضمّ إلينا المكلّفون من الدّغيرات والسّنجارة عند اللّقيطة Lechite، حيث أمضينا تقريباً اللّيل بأسره. وقبل الفجر بثلاث ساعات، تابعنا المسير ودخلنا الحيّانيّة بعد مغيب الشّمس، واستقبلنا تهليل خمس مئة متطوّع كانوا سبقونا إليها.

---

(1) الأسلم والعبدة من كبار أفخاذ شمّر في ديرة جبل طيّ، وإلى العبدة بالذات ينتمي عبد الله ابن علي بن رشيد مؤسس إمارة آل رشيد.

[حنكة طلال بن رشيد]

ليس للحيّانيّة المقامة منذ فترة وجيزة حتى الآن غير حِصن وثلاث دُور، وتحيط بها رمال صحراء النّفود، وأراها بمثابة ملاذ آخر أعدّه الأمير طلال في حال «أضحت أيّامه البيض سوداً». ومثل هذه الاحتياطات لا تُنبئ بالخير تجاه أعدائه، فمن الواضح أنّه يخطّط لمشاريع جريئة.

لا ريب أنّ هذا الرّجل قويّ الشّكيمة كحمار الوحش، ويحفّ برايته طالع السّعد! وأرجو من القارئ ألّا يظنّ بأنّني أقصد الإساءة إلى الأمير بتلقيبه بحمار الوحش، ففي العربيّة الحمار حيوان شديد الفطنة، وكلّما ازدادت فطنته قلّ خضوعه للأنسان، وبذلك كان يلقّب الخليفة الأموي الشهير بهمّته التي لا تعرف الكلل، مروان بن محمّد سيّد دمشق.

في يوم 7 مايو، بعد مسيرة مُضنية لمدّة ست عشرة ساعة في صحراء النّفود، شعرتُ ببعيري يتهاوى عند دخول جُبّة. ودون جدوى رحتُ أجذب حبل الرَّسَن، وهو اللّجام الوحيد الذي كان يفي بقياده. ودونما جدوى ضربتُه بالمحجان لكزة قويّة على رأسه، وإذا به يستلقي وراح يتلوّى ويتلبّد ويتمدّد مثل خنزير برّي في وكره. وكان هذا أيضاً ما جرى لبعيرَي مرافقَي. أمّا الدّريبي ومحمّد اللّذان جاءا لملاقاتنا، فقد طفقا يضحكان ملء أشداقهما، فضلاً عن أهالي المكان. وراح رفيقاي الشّمّري والرّويلي يسبّان ويشتمان كالمسيحيّين، ذلك لأنّ المسلمين نادراً ما تصدر عنهم شتائم، وإن جرى وفعلوا فيكون بعبارات ملطّفة للغاية.

اتّضح أنّنا دون أن نشعر قد مررنا على «المراغة»، أيّ حمّام الجمال الرّملي. والمراغة هي حفرة كبيرة مملوءة بالرّمل النّاعم للغاية، فإن تمدّد فيها بعير فهو يترك فيها رائحة لا يشعر بها الإنسان، غير أنّ الحيوانات التي من الفصيلة ذاتها لايمكن أن تمرّ عليها أبداً دون أن تتمدّد فيها وتتمرّغ هي الأخرى. وعندما سحبنا جمالنا منها عادت تحسّ بأعضائها طلقة نشيطة، وصار بوسعها متابعة طريقها لمسافات أطول ودون أن تستريح مجدّداً.

في يوم 9 مايو، خرجنا بشكل ناجز ونهائي من جبل شمّر. وفي يوم 8 كنتُ قد بعثُ بعيرَي الدّريبي ومحمّد لكي أشتري أربع نياق، سوف أنتزع منها حوارها لذبحها، فاثنان منها سوف يؤمّنان لنا مؤونة الغذاء عند اجتياز صحراء النّفود، وأمّا الآخران فلأجل وليمة أقمناها لسكّان القرية، الذين سوف لن نقصّر بإكرامهم. وفي المقابل، لم يرضَ هؤلاء أبداً بتركنا ندفع حقّ استقاء الماء أو ملء جرابنا بالتّمر والسّمن.

امتطى كلّ من الدّريبي ومحمّد متن حصان، وقادا الحصانين الآخرين بالرَّسَن. وكانت النّاقتان المحمّلتان بمتاعنا القليل وبمؤننا تليان في المؤخّرة، وعلى التّوالي ما بعد الشمّري ووراءه الرّويلي، كنتُ أنا في آخر الرّكب، على بعيري الأكثر نشاطاً من سواه، ولكنّه كان يتميّز بطبيعة أقلّ لطفاً من البعير الذي أخذه مني الأمير بدلاً من هذا. وأخيراً، كان ثمّة جحش أبيض اشتريتُه لابنتي من الصّلَيب، يعدو على هواه متقدّماً إلى الأمام ومتأخّراً إلى الوراء، دون أن يبتعد أبداً عن القافلة.

على ذلك، خرجتُ من ديار شمّر دون أن أتعرّض لأيّ مكروه، بل على العكس من ذلك لقيتُ كلّ اعتبار، فقط أذكر أنّ التعصّب الدّيني كان هناك زائداً.. فإنّ العودة إلى الأصوليّة القديمة ما بعد انكفاء الوهابيّة، أدّت بهم بشكل طبيعي إلى أن يبدوا متمسّكين بأهدابها بقوّة، وأن يُبدوا تقوىً سواء كانت حقيقيّة أم صوريّة. لكنّ تصرّفاتهم وعوائدهم وعرة جداً، ورجالهم منحلّون ونساؤهم منغمسات في البذخ.

ولهؤلاء النّساء بشرة سمراء مثل نساء القرى الواقعة على ضفاف النّيل، وعيونهن حوراء لوزيّة وتفيض بالنّار التي تقدح من أحداقهنّ السّود، أمّا أيديهن وأقدامهن ففيها ما يُلهب غَيرة أكثر حسان باريس أناقةً، وفي قدودهنّ الهيفاء ما ينافس بخلقته المرهفة الأنثى النّموذج التي نحت لها پراكسيتيل Praxitèle تمثالاً من رُخام في رائعته «ڤينوس الميديتشي» Venus de Medici، وأجمل الحسان ممّن ألهمن الأعمال الرّفيعة لكلّ من كانوڤا Canova وپراديه Pradier.

أمّا شعورهنّ فطويلة جدّاً، سوداء لمّاعة بفضل مَرهم عديم الرّائحة يقمن بتركيبه من الذَّرور النّاعم جداً المتّخذ من لحاء النّخيل. ومن الدّهن المصفّى من إلية الخروف... ربّما كان لهذا المستحضر التجميلي البسيط والنّقي إمكانيّة رسم البسمة على شفاه الحزينات من جميلات الغرب وقرعاواته.

* * *

[قِرى طلال بن رشيد بالفقراء]

كان من عادة الأمير في كلّ مساء عند غروب الشمس، أن يجمع إليه كلّ من ليس لديه قوت يومه، وهم يعدّون بالمئات في ساحة المسجد، وينتظرون منادياً عامّاً يدعوهم إلى دخول القصر، حيث يبلغ عددهم بداخله ألف شخص، فيقوم الأمير بتوزيع الأقوات على جميع النّاس، ويشرف بنفسه على عمليّة التّوزيع، حتى لا يبقى لأحد من داعٍ للتذمّر وأن يخرج مكسور الخاطر.

من خلال هذا الكرم والأريحيّة، يقوم الأمير طلال بتوسيع عدد موطنيه وأتباعه يوميّاً، وهو ما يغفر له أسلوب حكمه المُطلق، الذي فيه استبداد في بعض النّواحي. فإذا كان لكلّ البشر نقطة ضعف، فإنّ نقطة ضعف رعايا الأمير هي بطونهم، فما الضّير إذن من أن يستفيد الحاكم من هذه النقطة؟

* * *

إنّ سكّان الجبل يعطون عن طيب خاطر بناتهم للزّواج من الأغراب، حتى لو كانوا ببساطة من المسافرين، ويستعيدونهنّ عندما يسافر الزّوج، بشرط أن يُعتبرن بمثابة المطلّقات إن لم يعُد أزواجهنّ إليهنّ ضمن فترة محدّدة. هذا أمر غريب حقاً، ولكن له ما يبرّره في الأعراف المحليّة، فإنّ الأرامل يتمكنّ من الزّواج بشكل أسهل من الفتيات العزباوات. والعثور على زوج لبنت يُعدّ أمراً صعباً، وينبغي أن تضمن السّيدات المسنّات المحترمات عُذريّتها، فإن ثبت عدم ذلك فإنّ الفتاة تُردّ في صبيحة يوم الزّواج إلى أهلها، ويتمّ إثبات الكذب، ويستردّ منها العريس كلّ ما كان أعطاها إيّاه.

في جُبّة، رغبوا بتزويج محمّد من فتاة جميلة تنتمي إلى عائلة كريمة، وكان المهر الذي طلبه أهلها خمسة عشر ريالاً من أجل كسوتها، وعشرة أخرى من أجل مصاريف أخرى. فما كان من محمّد، الذي كان لديه وقت يضيّعه ويرغب بالتّسلية، إلّا أن طلب أولاً التثبّت من أمرها، مُدّعياً أن هذا هو العُرف في بلده. فوافقت النّساء المسنّات على طلبه مراضاةً له، فأقسمن بأنّها عذراء، وفتحوا فمها أمامه لكي يرى أنّها لا ينقصها ولا سنّ واحد، وضربن على ظهرها فلم تسعُل بل تشكّت من الضّربة، وهذا دليل على أنّ بُنيتها صحيحة وقويّة. لكن من حُسن حظّ محمّد أنّه رفض الموضوع.

وفي صبيحة اليوم التالي لوصولي إلى جُبّة، تمّ جلب الفتاة إليّ على يد أمّها التي روت لي ما جرى، وخلُصتْ إلى أنّ محمّداً كان مغفّلاً، وأنّ عليّ أنا أن أتزوّج الفتاة بدلاً منه، حتى أنّها خفّضت لي المهر. كانت المرأة الجريئة تودّ بأيّ شكل الحصول على أرملة أو مطلّقة. لكنّني لم أسايرها، وطلبتُ منها أن تلتمس لابنتها زوجاً في مكان آخر.

***

عندما تمّ لي تعيين جهة الجبال التي تقع إلى الجنوب الشرقي من اللّقيطة والطويّة والحيّانيّة وجُبّة، تمكّنتُ من تحديد موقع الغينة (؟) Ghenáa، وهي محطّة للرّحالين الذّاهبين من جُبّة إلى حائل وبالعكس.

في يوم 13 مايو، دخلنا في نطاق خِذْما في جوف عامر، وبتنا لدى شيخ سابق هو ابن عبد الله. وكانت تجتمع هناك قافلة كبيرة منذ بضعة أيّام، تيمّم شطر قرى وادي السّرحان وحوران. وسكّان الجوف الفقراء يذهبون إلى هناك في كلّ عام للعمل في حصاد سهولها الشاسعة، ولكي يلتقطوا ما يفضُل من الحَبّ حسب ما يرد في الكتاب المقدّس، ويسمح لهم بذلك الدّروز الذين لا يؤمنون بالكتاب المقدّس، غير أنّهم أصحاب شهامة وكرم. وكذلك فإنّ المسلمين أيضاً يسمحون لهم بالأمر، لأنّهم بغير ذلك ستعوزهم اليد العاملة لحصاد زروعهم، ولكانت بقيت بذلك طُعمةً للطيور. وكان زعيم القافلة الشيخ دْغيري بن خَميس راعي كاف، أي شيخها. وتحدّد الرّحيل يوم 16 مايو.

وصل الأمير طلال وربعه إلى سْكاكا، في ليلة يوم 12 مايو، ونوى أن يمضي فيها يومين للاستراحة، وأن يجول بعدهما في الصّحراء للعثور على مضارب الرّوَلة، الذين قيل إنّهم كانوا غير بعيدين في الحَماد. لقد تخلّى عن الحملة على الشّرارات، الذين بلغتهم أنباء حملته من أصدقاء لهم في جبل شمّر فهاجروا نحو الشمال، قبل أن يغادر الأمير عاصمته، ولا بُدّ أن يكونوا الآن بأمان قرب ديار بني صخر.

* * *

في يوم 14، كلّفتُ محمّداً ببيع النّوق، تلك الحيوانات الثّمينة التي كنّا نحتلبها صباحاً ومساءً لدى اجتياز صحراء النّفود، وكنّا نشرب حليبها الذي لم يكن ضرورياً أبداً للخيل أو للجحش.

عُدتُ إلى سْكاكا مع الأمير أحمد العقلة. ولمّا وجدتُ نفسي على أُهبة مبارحة أراضي الأمير طلال، فقد رأيتُ من المناسب أن أمثُل من جديد بين يدي هذا الأمير، كدلالة على الصّداقة والامتنان، فوجدتُه مشغولاً خارج البلدة. ولمّا رآني، هبّ هذه المرّة واقفاً وقبّلني بحضور جميع النّاس.

* * *

أضحى كلّ شيء جاهزاً لرحيلي مع القافلة. وبما أنّ وادي السّرحان وفير المياه، فلهذا السّبب طلبتُ بيع نياقي اللّواتي أضحى حليبهنّ غير ذي فائدة. وكان بعيري قادراً على حمل متاعنا، دون أيّ عناء يُذكر. أمّا بالنّسبة لنا، فكان علينا متابعة الرّحلة على متن الجياد. واستأجرتُ من أحد سكّن إثرة الذي كان عاد صُفر اليدين بعيراً لأجل نقل مؤونة الماء الضروريّة في اليوم الأول. وفي أثناء النّهار، قمتُ بزيارة البلد الذي كنتُ أعرفه مُسبقاً، إذ أنّني أتيتُ إلى هنا مرّة في عام 1851 م.

في المساء، دفعتُ أجر دليلَي الشمّري والرّويلي، من أجل أن يتمكّنا من العودة، الأول إلى كنف الأمير طلال في سْكاكا، والثاني إلى مضارب الرّوَلة من آل المشهور.

نسيتُ أن أذكر أنها أمطرت في النّفود بوابل منهمر خلال ستّ وثلاثين ساعة، من يوم 11 صباحاً إلى يوم 15 مساءً، كما أنّه في الجوف ذاته هطل رذاذ من المطر يوم 15.

[الانطلاق من الجوف إلى وادي السّرحان]

عقب صلاة الصّبح في يوم 16 مايو، شرعت القافلة في المسير بقيادة الدّغيري ونحن في ركابها، متوجّهة إلى مقصدها. وفي يوم 17، لمّا كنّا آمنين لعددنا الكبير (مئة واثنان وثمانون رجلاً، أكثرهم ذوو تسليح جيّد)، فقد توجّهنا عبر خانق الجبال الرّمليّة التي تؤدّي إلى بير الجراوي، وإذا بنا نتعرّض لهجوم من خمسة بُدوان يركبون إبلاً سريعة العدو.. لكنّ جرأتهم هذه أسفرت عن خيبة أمل فيما يبتغون.

أمر الدّغيري بتحميل الإبل، وجعل في الوسط النّساء، اللّواتـي كنّ كثيرات العدد ومع بعضهنّ أطفالهنّ، بينما شكّل جميع الرّجال من المشاة حلقة كبيرة، تراصّت كجبهة في وجه العدو الجسور الذي هاجمنا، والذين حسبناهم طليعة لقوّات أعظم عدداً. امتطى عشرون رجلاً أباعرهم للالتحام بالقتال، غير أنّ الأعداء ثنوا أعنّة إبلهم وفرّوا عبر وادي الجراوي. فسلكنا عندها اتجاه بئر شغار Scegar، وأنّ مضاربهم في هذه الحال ستكون موجودة على الطريق ما بين بئر الجراوي وبئر المعيصرة.

مضت أربعة أيّام منذ أن غادرنا الجوف، وباستثناء حادثة اللّصوص الخمسة المفترضين، فلقد قطعنا بأمان أربعاً وأربعين ساعة من المسير تقريباً، وكنّا نبيت في اللّيل حيثما واتانا ذلك، كما كنت فعلتُ مسبقاً مع مُرافقَي، في صحراء النّفود وما بين جبل شمّر وتَيماء.

ثمّ في اليوم الخامس، قمنا بنقض المضارب قبل الفجر، وعندما لاحت تباشير أشعّة الشمس، كنّا قد أمضينا مُسبقاً ساعتين من المسير. وما إن انقشع الضّباب حتى اكتشفت امرأة شراريّة على مبعدة في أفق السّهل الذي يمتدّ إلى جهة اليسار قوّات عديدة من البدو.

[تحرّكات مريبة لقوّات من البدو]

وخلال نصف ساعة بين الحين والآخر، تمكّن أشخاص آخرون من تمييز هذه القوّات، وحدّدوا بشكل تقريبي عدد الرّجال الذين تتألّف منهم بمئتي رجل.

جعلنا الدّغيري ننحرف قطريّاً إلى اليمين، وخلال نصف ساعة إلى مرتفعات بازلتيّة، في خانق جعل القافلة تدخله. وصعد ستّون بواردياً إلى المرتفعات المحاذية. كان البدو يتوجّهون صوبنا، واحداً إثر الآخر، ورحنا نعدّهم.. فوجدناهم مئة وستين. ولمّا وصلوا إلى سفوح الجبال، دخلوا في وادٍ صغير إلى جهة الشمال من مواقعنا، وشرعوا في ارتقاء هضبة ينخفض ارتفاعها قليلاً عن الهضبة التي نحتلّها من هذه الجهة. وعندما صاروا ضمن مدى بنادقنا، وقبل أن يبلغوا القمّة، قمنا بتحذيرهم بإطلاق النّار بأنّ عليهم التوقّف، فامتثلوا للأمر. استجوبهم الدّغيري لمعرفة نواياهم، فأجابوا بأنّهم من الشّرارات، وقد علموا بأنّ طلالاً بن رشيد كان في الحَماد، ولمّا نجوا من خطره فها هم أولاء الآن عائدون إلى مضاربهم.

كان الشّرارات أصدقاءً لنا، وعلى ذلك فلم يكن لدينا من داعٍ لنخشى شيئاً، وصار بوسع قافلتنا أن تتابع رحلتها بسلام. وحده الدّريبي شكّ بصدق كلامهم فطلب من جميع القوم وعلى رأسهم الدّغيري ألّا يتحرّكوا قيد أُنملة قبل رجوعه، وامتطى متن بعيري فهبط في الوادي. لدى البدو عُرفٌ في البقاء على مبعدة ثمّ الاقتراب، فتمكّن فعلاً من التعرّف إلى بعضهم بأنّهم من الشّرارات. ولأجل التثبّت أكثر من الأمر، قام بدعوة أحد شيوخهم بأن يتبعه. ولمّا عاد بصُحبته، قام باستدعاء بعض الشّرارات الذين كانوا معنا في القافلة وسألهم إن كانوا يعرفونه. فتعرّف أولئك إليه وسمّوا اسمه بأنّه دغيمان شيخ الشّرارات الضّباعين[1]. تبيّن إذن أنّ هؤلاء البدو لم يكونوا كاذبين.

---

(1) تذكر الليدي آن بلَنت عن هؤلاء الضباعين كيف أغاروا عليها في المنطقة ذاتها، وادّعوا بأنهم من الرّوَلة. فيبدو أن أسلوب التّمويه متّبع عموماً عند القيام بالغزو. والواقع أن آبار شقيق والهبكة العائدة لحَمَد بن بْنيّة كانت موضعاً مفضلاً لغزواته على القوافل.

[غزو فندة البْنَيّة من الشّعلان من الرّوَلَة]

عاودت القافلة النّزول من الجبال، ودخلت مجدّداً في السّهل. أمّا هم فركبوا مطاياهم وتوقّفوا عند المواقع التي غادرناها للتوّ.. فبَدَت لنا هذه المناورة مَدعاةً للشكّ! ولمّا لم تستطع قوّاتنا العودة على أعقابها فلقد انقسمت إلى ثلاث فرق، واحدة منها في المقدّمة والأخرى على الجانب في مواجهة الجبال، فيما بقيت الأخيرة في المؤخّرة وأنظارها ترقُبهم باستمرار. فمكثوا ثابتين لا يتحرّكون لمدّة عشرين دقيقة، ثمّ نزلوا في أعقابنا دون أن يدنوا منّا، ولكنّهم ظلّوا ضمن مدى البنادق لأكثر من ساعة. ولم نفهم أبداً ماذا يبغون.

كانت في قافلتنا خمس أسر من الشّرارات، وكانت منها اثنتان تنتميان إلى فَندة الضّباعين، مثل هؤلاء الذين يتبعوننا. كان الدّريبي من الصّخور، وعلى ذلك فهو بالنّسبة لهم ذو شأن عظيم، أمّا بقيّة القافلة فكانوا يتألّفون من سكّان الجوف، الذين طالما عاشوا متفاهمين مع الشّرارات. ولكن مع ذلك كلّه فإنّ ملاحقتهم لنا دلّت على نوايا عدوانيّة.

راح شُبّاننا، المصطفّون في ثلاثة أرتال، يسيرون وهم يُنشدون. وعلى سَوارٍ مؤلّفة من ثلاثة رماح راحت تخفق عصائب على شكل رايات. وراح عديد منهم يخرجون عن الأرتال للقيام بجولة ويرقصون، وهم يلقون أسلحتهم في الهواء ويعودون لالتقاطها قرب الأرض. لم يعد الدّغيري ينبس ببنت شفة، فيما كان الدّريبي، الذي ما زال ممتطياً بعيري، قد أخذ زمام القيادة تماماً.

في الختام، لكز البدو إبلهم لتجري بسرعة، وداروا باتجاه جانبنا الأيسر، فخففنا بسرعة لملاقاتهم، فتقدّموا إلينا ولم يتوانوا عن إطلاق مئة عيار علينا وهم يصيحون بنخوتهم الحربيّة: «أخو جُوزَة» و«شعلان»، تماماً كما فعل الغزاة الخمسة يوم 17 الشهر، الذين تبيّناهم الآن في الصّفّ الأول للمهاجمين.

تمّ بذلك اجتلاء الغموض تماماً: فلقد أغار علينا رَبع الشّعلان، بقيادة حَمَد بن بْنَيَّة، أمّا الشّرارات الذين في ركابه فكانوا يسيرون في ركابه حاليّاً، من أجل توحيد مصالحهم لمقاومة طلال بن رشيد.

توقّفت القافلة وراحت تقاتل ساعتين بشكل حذر وعلى مبعدة. ولم يُشارك مَن معنا من الشّرارات في القتال على الإطلاق، لكنّهم أعاروا أسلحتهم لأهالي الجوف ممّن لم يكن معه سلاح. أمّا أنا، فلعدم رغبتي بهدر رصاصاتي في الهواء، لم يُتح لي إطلاق طلقة نار واحدة.

[معركة غير متكافئة تنتهي بكارثة]

كان من السُّخف المضيّ في المعركة، فنحن لم نكن على قوّة كافية حتى نأمل في الانتصار، إذ لم يكن بحوزتنا سوى خمس وستين بارودة في مواجهة مئة وأربعين على الأقلّ. فلذلك قام الدّغيري بإيقاف إطلاق النّار، معلناً بذلك أنّنا نرغب في التّسليم. خرج من طرف الأعداء ستّ رجال وأتوا لمقابلتنا، فقدّمنا لهم كثيراً من العروض التي أعلنوا عدم إمكانيّة قبولها، وهذه كانت شروطهم النّهائيّة: الأمان للأصدقاء، أمّا القومانيّون (الأعداء) فيُجرَّدون من كلّ حلال لهم. أمّا الأصدقاء فيُقصد بهم الأسر الشّراريّة، والدّغيري وربعه، وأنا مع محمّد والدّريبي. أمّا الأعداء فهم الجوفيّون، وعليهم أن يضعوا أنفسهم تحت تصرّف المغيرين الظافرين.

كان التخلّي عن رفاق دربنا بمثابة تصرّف جبان، فإن كنّا ارتحلنا معاً فمعاً ينبغي أن ننجو. فابتعدوا ولم يتوانوا عن تحذيرنا بأنّه سيتمّ انتهابنا جميعاً طالما أنّنا رفضنا التّسليم بالشّروط التي عُرضت علينا.

استؤنفت المعركة من جديد، وهذه المرّة ضمن مدى الرّصاص، وخلال عشر دقائق مُنينا بقتيلين وعشرة جرحى، وتنصّلت الأسر الشّراريّة منّا، وفقد رَبعُنا رباطة جأشهم. وعندها تقدّم الدّغيري صوب العدوّ، وألقى على الأرض سلاحه، وصاح بأنّنا نستسلم.

غير أنّ الدّريبي تخلّص من متاعنا ومؤننا، ونزع أربطتها عن البعير والجحش، وبقفزة واحدة امتطى صهوة الحصان، وأمسك محمّد بلجام الحصان الآخر.

[هروب جوارماني وصاحبيه]

انتشر الشّعلان والشّرارات في حلقة، وبأيديهم السّيوف مُشهرة، وأتوا إلينا وهم يصيحون: «خَلّوا حَلالكم! خَلّوا حَلالكم!». فلمّا صاروا على مقربة، أطلقنا جيادنا بالعدو السّريع، ورحنا أنا والدّريبي نطلق باتجاههم النّار. فردّ كثير منهم علينا، فأصيب حصاني وسقط. فأخذ الدّريبي الحصان الذي كان يمسك به محمّد وقدّمه لي، فامتطيتُه وتابعنا الفرار. أمّا الجحش والبعير المعتادان على مصاحبة الجياد، فراحا بحَثّ صوت الدّريبي يجريان بسرعة خارقة.

تبعَنا بأعقابنا ثلاثون بدويّاً، ولمّا رأيناهم مفترقين بسبب تضاريس الأرض وعدم تساوي سرعة جري مطاياهم، قمنا باستدارة مفاجئة لمهاجمتهم فتراجعوا، ثمّ عادوا إلى الانضمام من جديد وبدأوا بملاحقتنا. بقينا على هذا النّحو، مطلوبين تارةً وطالبين طوراً، نتبارز إلى أن وصلنا إلى الجبال الغربيّة لوادي محيِضِر Meheder. فلمّا وصلنا إلى هنالك، عددنا أنفسنا قد نجونا، فتركونا لشأننا وعادوا أدراجهم ليحصلوا على حصصهم من أسلاب القافلة.

ريثما مالت الشمس نحو الأفق مكثنا في الجبال، ولمّا حلّ الظلام اختبأ محمّد وجواده مع الجحش والبعير في جوار وادي محيِضِر، وقام بمحو آثار أقدامه على الأرض، بينما رجعتُ أنا إلى ساحة المعركة مع الدّريبي.

[النتائج المروّعة للمعركة]

كان رفاقنا ما يزالون هناك: كان الرّجال عُراة، أمّا النّساء فلم يكن عليهنّ غير الثّوب الطويل، وكانت شعورهنّ محلولة، لأنّهم سلبوا منهنّ حتى الشَّمبَر *sciambar* الذي يغطّي الرّأس. ثمّ عند السّاعة العاشرة، لمّا وجدنا أنفسنا غير ذوي فائدة لهم، تركناهم لنرجع عائدين إلى محيِضِر (بير محيِضِر)، حيث كان محمّد بانتظارنا. ومن محيِضِر سرنا مجدّداً لحوالي أربع ساعات ونصف حتى العضيبات. فنلنا هناك قسطاً من الرّاحة، ثمّ لم نتوقّف حتى وصلنا إلى كاف، حيث وصلنا بفضل الله سالمين آمنين، لكن مُنهكين من التّعب والجوع.

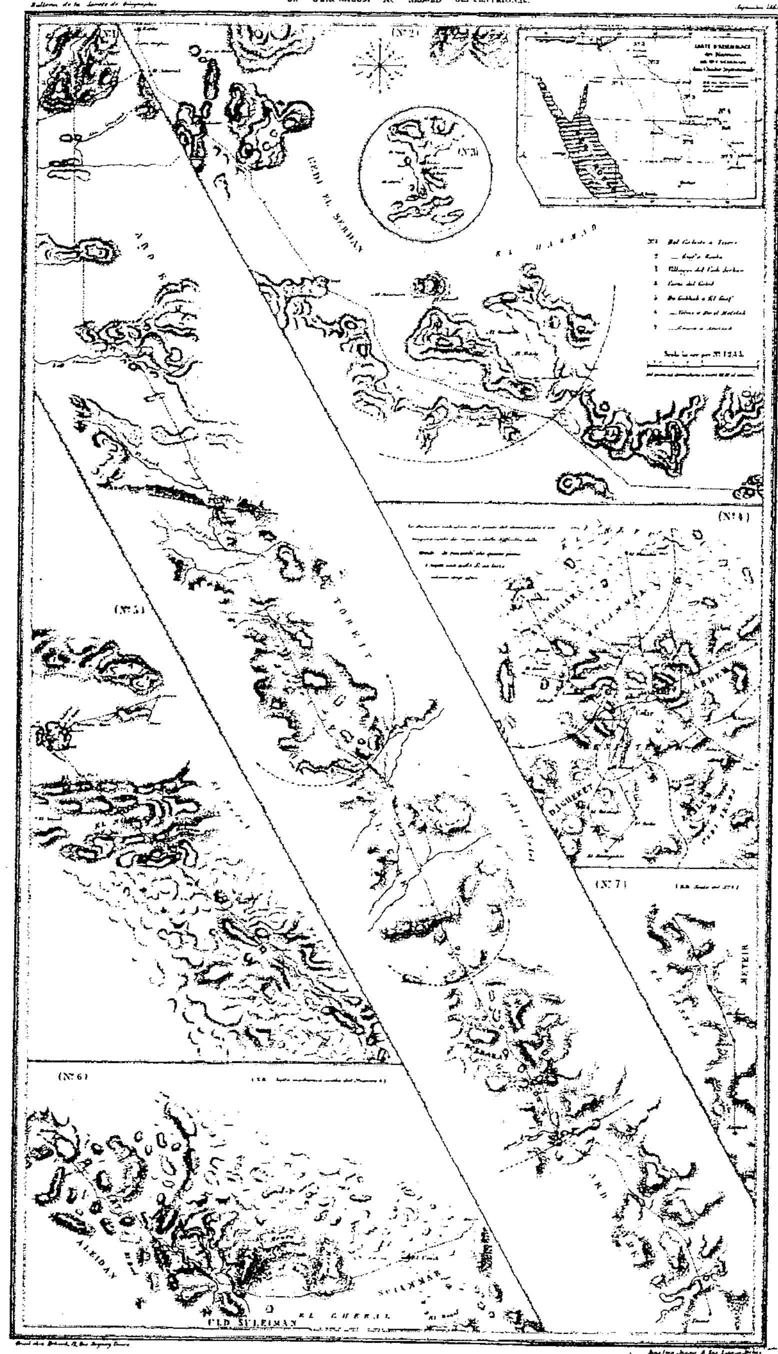
[وصول أفراد القافلة المنهوبة إلى إثرة]

في يوم 22 مايو، وصلت القافلة المنهوبة إلى إثرة في حال يرثى لها. فذهبتُ لملاقاتها، وقمتُ بتوزيع خمسين مُدّاً من التّمر عليهم. ورحت أساعد مَن يُعدّ طبيباً وجرّاحاً للقرية، بالعناية بالجرحى. أربعة من هؤلاء المساكين لم يمكن إنقاذهم، فدُفنوا في حفرة واحدة.

بعد ذلك، عدتُ إلى كاف، بالرّغم من إلحاح الأُسر التي كانت فيها مضى لتستضيفني، والتي رغبت في بقائي حتى الصّباح. وفي صباح اليوم التالي رحلتُ إلى حوران. وبدلاً من أن أسلك الطريق الذي يؤدّي مباشرة إلى حوران في اثنتين وثلاثين ساعة (إلى الشمال الغربي)، قمتُ بالالتفاف عبر الشّامة Scema، عارفاً تماماً بأنّ هذا الطريق سيستغرق مني ثمان وثلاثين ساعة.

* * *

تمّ نصّ الرّحلـــة


CARTE DES ITINÉRAIRES DE Mr C. GUARMANI,
DE JÉRUSALEM AU NEDJED SEPTENTRIONAL
(N° 1)
(N° 2)
(N° 3)
(N° 4)
(N° 5)
(N° 6)
(N° 7)
ALEIDAN
EL GHERAL
OLD SULEIMAN
SCIAMMAR
METEIR

[ملاحظة حول سجلّ مسار الرّحلة]

يجد القارئ ملخّص رحلتي مُبيّناً في سجلّ مسار الرّحلة الوارد أدناه. وإنّ الملاحظات التي تملأ صفحاتي من كاف إلى حين عودتي إلى أسرتي، مروراً بدمشق، وطبريّة، والنّاصرة، وجِنين، ونابلِس، ربما تَعُدّ يوماً واحداً في مذكّرات أخرى.

أمّا سجلّ مسار الرّحلة في مجاهل القفار فيبتدئ في القْليطة بنواحي أمّ الرّصاص، وهي قرية معروفة. ثمّ يعود في درب العودة رجوعاً إلى القْليطة عن طريق درب آخر سلكتُه من كاف، كما كنتُ فعلتُ في السّنوات الفائتة لكي أصل إلى قرى وادي السّرحان، ومن بعدها إلى الحَماد[1].

* * *

سوف يلاحظ القارئ على خريطتي، وهذا ربّما ما أُلام عليه، أنّني توانيتُ – على نقيض عادة الرّحّالين المعاصرين – عن تحديد إحداثيّات خطوط الطول والعرض للمواقع المختلفة التي زُرتها.

لربّما كان هذا النّقص هو الانتقاد الوحيد الذي يمكن توجيهه إلى نصّ رحلتي. ولربّما لا يكون من الممكن انتقادي على عدم تتبّعي للإحداثيّات بصورة تقريبيّة، ذلك أنّه لم تكن لديّ الوسائط لاستكمال سجلّ مسار رحلتي بسلسلة من الأرصاد الفلكيّة.



(1) بذلك يكون كارلو جوارماني الرّحّالة الوحيد الذي قصد الحَماد فوادي السّرحان فالجوف فحائل، قادماً من القدس فمعين بدلاً من دمشق فحوران والحَماد كما فعل بلَنت وغيرهما.

ملاحظات
ومعلومات جغرافيّة
للمُسافرين إلى نَجد الشّمالي

- 1 -

تحديد الانطلاق في شهر يناير، واختيار اليوم في آخر الشّهر. في هذه الفترة من السّنة يكون التّعامرة السّعَدة، الذين ينبغي الذّهاب برفقتهم إلى بني حَميدة، نازلين بدوّاراتهم أو مضاربهم[1] في وادي عليا Alia بالقرب من مُلتقاه مع أمّ العقارب، على مسافة نصف ساعة إلى الجنوب الغربي من دير مار سابا للرّوم الأُرثوذوكس، وعلى بُعد عشرين دقيقة إلى الشّرق من بير الدّلبة، أو في البغيصيّة، Beghesia[2] على بُعد ثلاثة أرباع السّاعة إلى الشّمال الشّرقي بشمال من قلعة المرد Merd، التي هي بالأصل دير قديم يُدعى دير الشّهيد San Martirios.

(1) الدّوّار مخيّم مُقام بشكل دائرة، تكون فيه أطناب الخيام متصالبة، البيت بجانب البيت، مع ترك معبر وحيد للسّوائم العائدة من المرعى والتي تتجمّع في الوسط لمبيت اللّيل. ويكون المدخل في العادة بالقرب من بيت الشّيخ أو البيت المجهّز لاستقبال الضيوف. والدّوّرات مألوفة لدى جميع العشائر الرُّحّل في جبال بَوادي غَزّة والفلاليح الرُّحّل. أمّا كُبريات عشائر برّ الشّام فتقيم مضاربها على العكس بشكل أنساق طويلة جداً، ينفصل الواحد عن البقيّة على اعتبار أنّ هذا أمر ضروري لاحتواء الحلال العائد لأصحاب بيوت الشّعر الموجودة في النّسق ذاته.
وفي مضارب الأنساق هذه، لا يتمّ إغلاق بيوت الشّعر إلّا من جهة الرّيح، وهناك دوماً بعض الرُّعاة ينامون في العراء ما بين طروش الحلال. والرّعاة إمّا أن يكونوا شركاء في الرّزق أو مأجورين. وفي هذه الحالة الأخيرة ينالون طعامهم وكسوتهم، ويكسبون في كلّ سنة قَعوداً (حواراً صغيراً)، إنّما في كلّ سنة من جنس مختلف، فمرّة ذكراً ومرّة أنثى (المؤلف).

(2) كذا بالأصل، ولدي شك في مقابلها بالعربيّة. رجعت إلى عشرات الخرائط الفلسطينيّة للديرة ما بين القدس وغربي البحر الميت، دون جدوى. ويبدو أن سلطات الاحتلال غيّرت الاسم.

وتقع قلعة المرد على مرتفع ينفصل عن السّلسلة الغربيّة لجبال البغيصيّة (؟) Begheia وله شكل جبل الفرنج، أي جبل هيروديوم *Herodium* القديم، أي بمعنى شكل مخروط ذي قمّة منحوتة ومُسوّاة، لكنّها اليوم مغمورة بالأنقاض. لدى المجيء من الجنوب، يصعد الرّحّالة من الجانب الأيمن، ويبتدئ بالارتقاء بالقرب من حوضين منقورين في الصّخر ويفصل بينهما جدار مُشكّل جزئيّاً من الصّخر ذاته. وبالقُرب من الحوضين صهريج كبير. كما يرى المرء أيضاً على منحدرات الجبال المجاورة وروابيها بقايا قناة، كانت تُسهم أكثر من ماء المطر بملء الحوضين.

أمّا الدّير القديم فلا يبدو بقياسات كبيرة. وبلاط الكنيسة معمول من الفُسيفساء المؤلّف من مُكعّبات يبلغ قياسها تقريباً سنتمترين، وهو فُسيفساء خشن تماماً، يماثل ويذكّر بفُسيفساء كنيسة الصّليب المقدّس Santa-Croce (سانتا كروتشِه) الإكليركيّة للرُّوم الأُرثوذوكس، على بُعد عشرين دقيقة من القُدس، التي كنتُ اكتشفتُها في عام 1852، وسُرعان ما ألفيتُها فيما بعد وقد غمرها التّعامرة بالتُّراب. ويمكن إعادة اكتشافها بسهولة بالحفر في المكان بعمق حوالي 25 سنتمتراً[1]، في جهة الشرق ما وراء فسقيّة كبيرة جداً كانت تُستخدم كأجران معموديّة، حيثُ على بُعد بضعة خطوات من الصّهريج المستطيل الأنيق المعمول بملاط روماني، نُقرت إلى الشّمال من المغائر التي تضمّ قبور الرُّهبان (ومنها واحدة أخرى أيضاً تقع إلى الأسفل قليلاً).

والمغاور التي تضمّ القبور تنفتح في الجهة الجنوبيّة من الهضبة. وثمّة ثمانية قبور، أربعة على كلّ جانب، وهي تتألّف من حجارة كبيرة تشبه للوهلة الأولى أرضيّة المغارة. ولا توجد أيّة إشارة واضحة تدلّ على أنّ هذه أضرحة، غير أنّ هذا الإجراء الاحترازي لم يمنع انتهاك القبور على أيدي السكّان الحاليّين، ثمّ فيما بعد خراب الدّير برُمّته. وأطلال هذا الصّرح المقدّس تدلّ على أنّه يعود إلى القرن الأوّل للميلاد، وهو مجاور لأسقفيّة مار سابا العتيقة والشّهيرة.

---

(1) يستعمل المؤلّف قياس: Palma، وهو مقياس روماني قديم يحادل 24.7 سم.

كان المفترض أن يجد المرء ذكراً لهذا الدّير في كتابات المؤرّخين، ولكنّني مع ذلك لم أجد له ذكراً إلّا في كتاب «الحلبة الرّوحيّة للآباء المقدّسين»، للأسقف ج. إڤيراتو آليسّاندرينو G. Everato Alessandrino، وذلك فقط للإشادة بالذّكاء الفائق لحمار من الحمير[1].

إنّ التَّعامرة[2] الذين جرت الإشارة إليهم أعلاه، تعود أصولهم إلى بني حارث في وادي موسى، بالإقليم الصّخري لجزيرة العرب Arabia Deserta. ويُحكى أنّ بعض فرسان بني حارث قد هجروا دوّارهم في زمن يتعذّر تحديده، ورحلوا مع عيالهم فنزلوا ببيت عُمَر[3]، بعدما قاموا برفع شيء من أنقاض أطلاله الخربة. وبيت عُمَر موقع أثري قديم في بريّة اليهوديّة Judaea، يبعد حوالي ميلين ونصف عن بيت لحم. ويبدو أنّ هؤلاء الحارثيّين قد تغرّبوا إثر بعض الشّجارات الدّامية مع إخوانهم، وبعد أن حاولوا إحلال الصُّلح غير مرّة بلا جدوى، ببذلهم للتنصّل من مغبّة الثأر ديّةً ما بدلاً عن الدّم المسفوك.

فالذي صار، أنّ هؤلاء النّازلين ببيت عُمَر تخلّوا عن اسمهم القديم «بني حارث» وسمّوا أنفسهم التَّعامرة. ويُقال إنّ الله بارك لهم بسبب سجاياهم الطيّبة فسُرعان ما تكاثروا وتوصّلوا إلى فرض احترامهم على جيرانهم المُشاغبين من فلّاحي جبال حِبرون (الخليل). ومن شيم التّعامرة أنّهم لا يبوقون أبداً بضيفهم ولا يُخلفون بوعدهم إن هم وعدوا.

لكن بعد أن اشتجر صراع عصبي جديد في يوم من الأيّام، أضحت بيت عُمَر تضمّ منهم من الأموات عدداً أكبر من الأحياء، فقرّر التَّعامرة أن يعودوا إلى حياة البداوة والتّرحال. وهم يحتلّون حاليّاً الدّيرة الممتدّة من وادي النّار شمالاً إلى وادي الدّرجة جنوباً، ومن وادي صالح غرباً إلى قرية أرطاس Ortas والخضر Gehar عند البحر الميت شرقاً.

---

(1) لا يُفهم ماذا يقصد جوارماني بذلك، ولا مجال أمامنا للعثور على كتاب آليسّاندرينو.

(2) كتبت لجنة التّحرير الاسم بالغلط: Faamri. والواقع أنّ اللفظ المحلّي لبدو فلسطين ينطق الاسم حقاً بكسر الراء مع إمالة، وليس بفتحها كما المفروض في الفصحى.

(3) حتى هذا الاسم كتبته اللجنة: Bet-Famar، ويبدو أنّ المؤلف كان يقصد: بيت تامار.

ورغم أنّهم يفلحون الأرض كالقروانيّين، فهم يعيشون في بيوت الشَّعر مثل بقيّة البدو. وينقسمون إلى ثلاثة أفخاذ: السّعَدَة، والجحاجحة، والعبيّات. وهم يتوحّدون دائماً ويتم تجييش سبع مئة بارودة للدّفاع عن خيامهم، وهم لا يعدّون بالإجمال أكثر من عشرين فارساً. وفخذ السّعَدَة أقوى أفخاذهم وأكثرها تمكّناً ونفوذاً، وأكثرها قِرىً بالضّيف، ولذلك فهي مرهوبة الجانب أكثر من باقي أفخاذهم لدى بقيّة البدو. وحلفهم مع بني حَميدة قديم جداً.

وعندما يضيق التّعامرة ذرعاً بإزعاجات نوّاب السّلطة المحليّة، فإنّهم على الدّوام يثورون على الحكومة، ويتراجعون إلى الوديان العصيّة في بريّة اليهوديّة، ومنها إلى وادي الدّرجة، في ديرة الرّشايدة والجهالين. وفي هذه الاحتماليّة كان بوسعهم الامتناع عن الاختراق إلى الغور الشّمالي واجتياز نهر الأردُن، بل فكّروا بالمرور بالكَرَك لكي ينحازوا بواسطة بني حَميدة إلى الضفّة اليُمني من وادي الموجب Mogeb، ثمّ المضيّ مباشرةً عبر ديرة بني صخر وقرى الطّفيلة Fafite (كذا) وسِنفة Senphe وضانا Dana، حيث لا ينقصهم الأدلّاء الخبيرون بذاك الموضع، ومن بينهم حسب فصل السّنة بنو صَخر النّازلون هناك. وينبغي للمسافر عدم الاستعانة بهذين الفريقين.

وإذ يتمنّعون على التّعامرة، يتمّ طلب مرافقة من الهتَيم Semana رَبع أبو نْصير، أو من الجحاجحة رَبع أبو Ted[1]، مع تعزيزهم بالظواهرة. والهتيم فخذان من سلالة الأولياء الدّراويش والمرابطين، وهم يعدّون عشرين خيّالاً وأربع مئة بارودة، ولا ينتمون إلى عشيرة هتيم النّجديّة، ومراعيهم توجد إلى الشّمال من مراعي ظواهرة الوادي، على سُفوح جبال فلسطين في الغور.

ينبغي اجتياز نهر الأردُن عبر مخاضة، بمساعدة ظواهرة الوادي في الحمّة El-Keme على بُعد عشرين دقيقة إلى الشمال الشّرقي من عين الغوير Geir، وهو نبع ماء مالح يمرّ به المرء في الغور على بُعد نصف ساعة من البحر الميت. وبعض هؤلاء الظواهرة يفيدون في زيادة عديد المرافقة التي يشكّلها التّعامرة.

(1) تسمية غريبة، وشيوخ الجحاجحة من التعامرة: آل العساكرة وآل الزّير.

يثبّت الظواهرة حول حقوَي الأشخاص الذين لا يعرفون السّباحة قِربة منفوخة بالهواء، وفي أذرعهم قِربة أخرى تتضمّن ثياب المسافر. وهم فوق ذلك يمرّرون أنشوطة مرخيّة لحبل في ذراعهم الأيسر، ويثبّتونه في ذراعهم الأيمن، بحيث إن لزم الأمر يقطرونهم، بينما يمسكهم سبّاح آخر من ذراعهم اليُمنى، لمواجهة جميع الاحتمالات ولإعانتهم بين الوقت والآخر.

يتمّ اجتياز نهر الأردُن بأعلى العوجِة، في مواجه ديرة العُدوان الذين يقدّمون مرافقة لاجتياز البَلقاء من شمالها إلى جنوبها، ابتداءً من ديرة بني حَسَن، الأعداء اللّدودين لبني صَخر، حيث أنّ الشّيخ الشّاب رميح بن سليمان الفايز قد قتل قبل حوالي ثلاث سنوات شيخهم أحمد الجلال. وشيوخ الهتيم، الذين يمتازون بالاحترام بسبب صفتهم الدّينيّة لدى العُدوان وبقيّة سكّان البَلقاء، هم ضمانة كافية لحياة وممتلكات الرّحّالين الذين يخفرونهم. إلّا أنّهم لا يعفونهم من دفع الأتاوات وحقوق المرور التي تفرضها العشائر المختلفة على كل مَن كان من غير البدو. ومهما بلغ من طيب علاقتهم مع بني حَميدة، فلا يمكنهم التّأثير عليهم مثل التّعامرة.

أمّا أنا، فقد انضممتُ إلى المسافرين بدلاً من الفِرَق التي اقترحها التّعامرة لتجنّب اللّقاء المحتمل مع عشائر معادية، والمتاعب التي جرت لهم مع آل المَجَالي في الكَرَك.

والظواهرة، الذين هم حاليّاً بدو رُحّل مثل التّعامرة، كانوا في الأصل قروانيّين يقطنون بيت ساحور التَّحْتا في وادي النّار. وفي هذا الوادي ينصبون بيوت شَعرهم في الوقت الحاضر. وقبيلتهم *kabile* تنقسم إلى ثلاثة بطون: الشّقيرات، الحَسَن Alhaza، والجَعافرة. وهم يسلّحون أربع مئة جندي مشاة، وليس لديهم من الخيل سوى خيول الشّيوخ، وهي عشرون على الأكثر.

وخفارة الظّواهرة ضروريّة لبلوغ وادي زَرقاء مَعين دون التعرّض للنّهب على أيدي العُدوان وسكّان البَلقاء الغربيّة وهم: الكَعابنة، والبحارات Baharat، والعَزازمة، والسّليط [السّلايطة] الذين يربطهم معهم حلف.

والكَعابنة عشيرة فقيرة، يزعمون أنّهم ينحدرون من كَعابنة الصّخور[1]، أي من بني صَخر.

والبحارات ثلاث بطون: البحارات، والغوانمة، والسّواريّة.

أمّا العَزازمة فلهم ثلاثة بطون: النّويصِر، والعويديّة، والحمينة.

وأمّا السّليط فينقسمون إلى: العميرات، والنّعامين، والجاريين، والغوانمة (نَسَبهم غير الغوانمة البحارات)، والرّجيلات.

يعُدّ الكَعابنة مئة جندي مُشاة، والبحارات ست مئة جندي مشاة ومئتي خيّال، أمّا العَزازمة فثلاث مئة وعشرين خيّالاً. وكلّ من البحارات والعَزازمة يذعنون لسُلطة العُدوان المنضوين تحت زعامة شيخ واحد، تحت يده ثلاث مئة حصان وألف وخمس مئة بارودة. والكَعابنة حُلفاء لبني حَميدة، والسّليط لبني صَخر.

يكون يوم الاستراحة الأوّل في مضارب التّعامرة، أمّا الثاني ففي الغوير، على بُعد ساعتين وثلاثة أرباع السّاعة إلى الجنوب الشرقي من الحمّة، ولكن برغم وجود المرافقة يبقى مبيت الليل غير آمن، فلذا من الأفضل متابعة الرّحلة، والتقدّم لحوالي نصف ساعة إلى الجنوب الشّرقي بشرق ضمن الجبال، دون التوقّف بينابيع المنشلة (الواقعة على مسافة ساعتين وربع إلى الجنوب الغربي بجنوب). ثمّ يمكن التوقّف للاستراحة بقدر الضّروري من الوقت، ثمّ المتابعة مروراً بوادي حَمارة الذي يبعد ساعة وعشر دقائق إلى الجنوب من المنشلة، ودون التوقّف قبل الوصول إلى زرقاء مَعين.

يتمّ الوصول إلى هناك بالدّوران حول الجبال من الجنوب الشّرقي بشرق إلى جهة الشرق الأصلي، ما بين الزّرقاوين، وحتى مسافة ¼ ساعة تحت الموضع الذي يغور فيه النّبع الأول تحت الأرض، فلا يعاود الخروج إلّا بعد ¾ السّاعة من هنالك في جهة الغرب، حيث توجد حتماً بعض فرق بني حَميدة.

(1) ليس الكعابنة النّازلون بديرة بني صَخر من أصل القبيلة، بل مستجيرون بها فعُدّوا منها.

ومن وادي حَمارة إلى الزّرقاوين تبلغ المسافة ثلاث ساعات. واعتباراً من مضارب بني حَميدة، تصبح المرافقة المزدوجة للظّواهرة والتّعامرة غير ذات فائدة، فيمكن أن تُردّ لأفراد هاتين العشيرتين الخيل التي سُلّمت للرحّالة، لسوقها إلى القُدس، والتي خدمت في هذه المرحلة الأولى من الرّحلة، وسيتمّ استبدالها من أجل بلوغ بني صَخر بخيول جديدة يؤمّنها بنو حَميدة.

وبنو حميدة، كفلاليح رُحّل، يصعدون بالتّدريج من مراعي الإقليم الصّخري من جزيرة العرب Arabia Petra إلى جبال الكَرَك ويتوغّلون في الحَرّة. وفي هذه الأعوام الأخيرة، قاموا بغزو جزء من البَلقاء وأقصوا إلى الشّمال كلاً من البحارات والعَزازمة.

وديرتهم تقتصر في جهة الغرب على البحر الميت، وفي جهة الشّرق على السّهول التي ينتابها بنو صَخر.

وهم في جبال الكَرَك يتناقصون بشكل يومي، أمّا في جبال البَلقاء فعلى النّقيض من ذلك يتزايدون، لكنّهم يوجدون بأعداد أكبر متركزين ما بين وادي الموجب والزّرقاء، في الحَرّة. وتنقسم عشيرتهم إلى بطون[1]: التّوايهة، والفواضلة، واللّبادنة، والنّهضة. ولديهم مئتا خيّال وألف من المشاة.

في الأيّام الأولى من شهر فبراير، تكون خيام بني صَخر (أو الصّخور) بعيدة بمسافة مسيرة يوم واحد عن دوّارات بني حَميدة، حيث يلتقي غالباً شيوخهم في زيارات صداقة أو في شؤون لهم. وينبغي للرّحالة، بصحبة بعض رجال بني صَخر، سلوك الطريق وصولاً إلى مضاربهم، دون أن ينسى بحال من الأحوال أن يصطحب دليلاً من بني حَميدة، أو كما يقولون: رفيق *Rafik*، أي صديق ضامن يفيد بالحماية من أعداء الصّخور في حال صادف المرء بعضهم أثناء قيامهم بجولاتهم الاعتياديّة[2].

---

(1) أقسام بني حَميدة اليوم هي: التّوايهة، اللّبادنة، النّهضة، الديارنة، البصراويّة، حَمايدة الطّفيلة.

(2) الرّفيق ينبغي أن يكون فرداً ينتمي إلى آل الشيوخ، أو أن يكون معروفاً لواحد من خلصائهم. ومهمّته حماية أي عدد من الأشخاص يشتركون بالتناسب في دفع مقابل لخدمته ويرحلون من المكان ذاته، فيقوم بإيصالهم إلى الوجهة ذاتها دون تتعرّض لهم عشيرته. وكثيراً ما تنتاب القوافل

ومن دَوّار وادي الزَّرقا يتمّ ارتقاء جبال الحَرّة خلال ساعة ونصف وصولاً إلى سفوحها الشرقيّة. وبعد التوجّه لمدّة 5 دقائق إلى الشرق حيث يبتدئ الصّعود، وبعد المسير لمدّة 12 دقيقة بشكل قطري صوب الشّمال الشّرقي، يعود المرء إلى اتّخاذ الاتجاه الأوّل عبر التعرّج من الشمال الشرقي بشرق إلى الجنوب الشّرقي بشرق. ولدى الوصول على هذا النّحو إلى السّفوح الشرقيّة، يتمّ النّزول منها عبر 55 دقيقة حتى خرائب لبّ Leb التي تقع على تلّة صغيرة، والتي يمكن للمرء أن يرى منها للمرّة الأولى إلى جهة الجنوب الشرقي مئذنة خرائب أم الرّصاص الأكثر أهميّة من الأولى، والتي يمكن بلوغها بعد مسير 4 ساعات و12 دقيقة، حيث نادراً ما تغيب عن الأنظار تلك المئذنة.

ومن لبّ إلى أمّ الرّصاص تستغرق المسافة 45 دقيقة باتّجاه الجنوب الشرقي، و45 دقيقة شرقاً حتى بير الملح في سهل المليح. ويلزم 5 دقائق صوب الجنوب الشرقي بشرق، و45 دقيقة باتجاه الشمال الشرقي بشرق لأجل بلوغ العقديّة، وهي منطقة ذات تضاريس متموّجة، أو بالأحرى هي سلسلة من التّجاويف الصّغيرة جداً، تنتصب فيها طلائع خيام بني صَخر. ويلزم 20 دقيقة باتجاه الجنوب الشرقي بشرق، و35 دقيقة باتجاه الجنوب الشرقي، لبلوغ وادي التّمَد الذي يتمّ التّجوال فيه لمدّة 10 دقائق، ثم يتمّ الخروج منه يساراً للتسلّق خلال 5 دقائق على تلّة الرّميل، وهي قرية خربة دون أيّ شأن يُذكر، ومنها إلى خرائب أمّ الرّصاص، مع البقاء دوماً على الطريق الأكثر استواءً، يلزم 25 دقيقة باتجاه [illegible] و15 دقيقة باتجاه الجنوب الشرقي بشرق، و27 دقيقة باتجاه الجنوب الشرقي لاجتياز مضارب بني صَخر، التي تتناثر في كلّ اتجاه من الشمال الشرقي بشمال إلى الجنوب الغربي بجنوب.

أخطار تلزم المرء أن يحتمي برفيق لئلا ينهبه ربعه. ولم يحصل أبداً أن تعهّد رفيق حماية أكثر من 4 أشخاص من غير البدو، واثقاً من عدم انتهابه. إنما عندما يحتجّ على مَن يماريه في عدد من هم تحت حمايته، فإنّ مَن يلوذ به يُحرّم انتهاكه بعد أن يعيّنهم ممسكاً بيد كلّ منهم. وأيّ اثنين من الغرباء ممّن لا صلة لهم بالبدو ينبغي لهما رفيق. إلا أنّ هذا الرّفيق لا يمكن له دوماً فرض احترام حقّه المشروع على ضَنا بشر العنزيّين إن لم يكن معه مرافقة كافية، ويمكن أن يجازيه شيوخه إن كان يعرف الأشخاص الذين هاجموه، ويلزموه بالتعويض على الخسائر (المؤلّف).

يُعدّ بنو صَخر من البدو الأقحاح، أي الرُّعاة وليسوا مجرّد عرب أو فلاليح رُحّل. وهم ينقسمون إلى بطنين رئيسيّين: الطُّوقة، والكَعابنة[1].

أمّا أفخاذ الطُّوقة فهي: الفايز، الحامد، الزَّبَن، الهقيش، الخضير، الدَّهامشة، الجحاوشة، الفاضل، الغواطنة، المطير، الدّغيم، والشلّال. أمّا أفخاذ الكَعابنة فهي: الخريشا، الجبور، الدّهام، القنوة، الجمازيّين، الهزّاع، الدّعاك، الجنيبات[2].

وفي الحروب التي جرت مؤخراً ضدّ العنزة[3]، بلغ عددهم 2200 خيّالاً و2000 بارودة. ولديهم فضلاً عن ذلك احتياطي يبلغ 4000 جندي مُشاة، مسلّحين بالسّيوف والرّدنيّات (الغدّارات) والرّماح.

ويُقال بين البدو إنّ خيار البدو، أي أكثرهم كرماً وقِرىً بالضّيف، هم بنو صَخر لا مُشاحّة، ومنهم تحديداً الطُّوقة، ومن الطُّوقة تحديداً الفايز، ومن الفايز تحديداً آل الفَندي.

فينبغي للرّحّالة إذن أن يقصد بيت الشيخ فَندي الفايز، الذي يجده بنواحي خرائب سالية Selia، ويقع على مسافة تقارب 20 دقيقة إلى الجنوب من أمّ الرّصاص، أو متوارياً بين طيّات أرض المنطقة على بُعد 16 دقيقة إلى الشمال الشرقي بشمال أو 30 دقيقة إلى الجنوب الغربي، ولن يكون أبداً على بُعد أكثر من نصف ساعة عن الصّهريج الذي يبعد 5 دقائق إلى الجنوب الغربي بجنوب عن الخرائب.

---

(1) ينبغي التفريق ما بين كعابنة البَلقاء وكعابنة شمال الحجاز، المستجيرين ببني صَخر.

(2) نبّه القارئ إلى أنّ المؤلف يخبط خبط عشواء في إدراج فرق الطّوقة والكَعابنة. ولقد اكتفيت بنقل ما كتبه حفاظاً على أمانة الترجمة، ولن أسهب في تعداد أقسام بني صَخر، فهذا ما يحتاج منا هنا إلى صفحات كثيرة جداً. وقُصارى القول إن الصّخور ينقسمون إلى فرق: الجبور، الخريشة، الفايز، الزَّبَن، الخضير، الهقيش، الطيب. والمشايخ هم آل الفايز من الغبين من الطوقة من بني صخر من طيّ من كهلان، وينقسمون إلى 12 فندة، هي: الفَندي، الجنيبات، البَخيت، النّمر، المحمود، القعدان، الكنيعان، الصّقور، الغوري، الدّعاك، الشوشان، المطيرات. ونخوتهم العامّة: «راعي الشّعثا».

(3) انظر كتاب الرحّالة التشيكي موزيل «عوائد عرب الرّوَلَة»، فصل الحرب مع العشائر الغربيّة.

أو قد يكون أيضاً على بُعد 10 دقائق تقريباً من العقبة اليسرى لوادي سالية، أو أخيراً بالقرب من خرائب الرَّامة، على بُعد 30 دقيقة إلى الجنوب الغربي بجنوب من الموضع المقصود الثاني.

لم يكن الفصل قد أوغل بعد من السّنة، فلذا إن لم يعثر المرء على فَندي الفايز نازلاً بالمنطقة أو واحداً ذا شأن من آله، مثل شلاش البَخيت[1] فارس القبيلة، أو عيد السّليمان[2] الذي هو كاتب *katib* القبيلة، فيمكن له أن يتوجّه جنوباً حتى وادي سعيدة Saide.

أو ختاماً، بابتداء المسيرة من المضارب الواقعة على بُعد 16 دقيقة إلى الشمال الشرقي بشمال من سالية Salia، فيمكن للمرء أن يتوجّه إلى الجنوب الشرقي بشرق صوب وادي سواقة Suaca الذي يبعد بمقدار 5 ساعات و25 دقيقة، بعد أن يغادر بمسافة 15 دقيقة صوب الشمال، وبعد مسيرة 50 دقيقة خرائب أم شطبة (؟) Setbe كي يصل بعد ساعة واحدة إلى مركز السّهل المسمّى سهل حيال Akial. وهذه النقطة تبعد بمقدار ساعة واحدة إلى الشمال الغربي بغرب عن درب الحجّاج الآخذ إلى مكّة، وبمقدار ساعة و30 دقيقة عن الهضاب الأولى التي تحيط بوادي سواقة.

وهذا الوادي يوجد بعد مسيرة ساعة و45 دقيقة ما وراء تلك المنطقة بالاتجاه ذاته: جنوب شرقي بجنوب، وينتهي بعد 50 دقيقة جنوب شرقي بجنوب في القْليطة[3]، وهي سيل عظيم به حَويات ماء واسعة محفورة في صخر مِهاده على أيدي بني هلال.

---

(1) شلاش البَخيت أحد كبار مشاهير فرسان بني صَخر على مرّ العصور، لم يلتق به جوارمانسي في زيارته للقليطة كما تقدّم أعلاه، ص 34.

(2) عيد السّليمان من فندة الجنيبات من آل الفايز، وأخوه الفارس المشهور رميح السّليمان صاحب الوقعات الذائعة الصّيت، مثل معركة «كون الشيحا»، المخلّدة في أشعار بني صخر حتى يومنا الحاضر. توفي رميح إلى رحمة الله سنة 1914 م. انظر ما تقدّم أعلاه ص 34.

(3) رغم أن العربيّة الفصحى تأنف من البدء بساكن، فلقد فضّلتُ إثبات التسميات بمنطوقها البدوي الأصلي، وكنتُ قدّمت القول إن في هذه الصيغ اللّسانيّة العامية بقايا مهمّة جداً تدلّ على بعض لهجات العربيّة الشماليّة القديمة، التي لم تكن بعيدة عن النبطيّة.

على افتراض أنّ الرّحّالة قد لاقى شيخ الطُّوقة بأكناف وادي القْليطة، في نهاية وادي سواقة[1]، فإنّ بني حَميدة يعودون أدراجهم ومعهم الخيل التي قدّمتها العشيرة، فعندها ينبغي للرّحّالة شراء أباعر تلائم بشكل أفضل لمتابعة رحلته في الصّحراء.

يكلّف البعير ما بين 50 إلى 150 ريالاً مجيديّاً. وينبغي أن يكون ذكراً متقدّماً في السّن، وهذه الصّفة الأخيرة ضروريّة جداً من أجل رحلة طويلة وخطرة، ذلك لأنّ البعير الذّكر في أوج فتوّته، لا يصدر أبداً أصواتاً تُسمع عن بُعد، وبالتالي فهو لا يجتذب انتباه الأعداء، سواء في اللّيل عند المبيت أو في النّهار عند المسير.

(1) لدى الوصول إلى أحد المضارب، يمكن تمييز بيت الشَّعر المخصّص لاستقبال الضيوف من خلال الموقع الذي يحتلّه في أحد الجوانب، أو يكون منفرداً بعض الشيء إن كانت المضارب مقامة في أنساق طولانيّة، أو بالقرب من المدخل المتروك لمرور الماشية في حال كانت المضارب على شكل دوّار. يقترب المسافرون على شكل حلقة طويلة، أو يتوقفون ويترجّلون عن مطاياهم بالقرب من أوتاد الأطناب التابعة للجانب المحجوب عن الرّيح. فإذا كان الشيخ غنيّاً يقوم عبيده (وإن لم يكن كذلك، يقوم بدوي ذو شأن من آله) بالتقدّم من المسافرين لإعانتهم على ربط مطاياهم وتنزيل أحمال السّفر عنها. ويقوم بدو آخرون أو أبناء الشيخ على الفور بفرش البُسط والنّمارق وأقتاب الأباعر (شداد) في بيت الشَّعر على النّحو المعتاد، ويلي التحيّات المعتادة والتّعارف دعوتهم للجلوس. وإذا جاء المسافرون ماشين ولم يكن الماء عزيزاً، يقومون بتقديمه لهم ليغسلوا أرجلهم، وليس من عادات البدو أبداً غسل أرجل ضيوفهم بأنفسهم، ولا كان هذا ما يجري في عصر الكتاب المقدّس. نقرأ في سِفر التكوين 18: 4 أنّ إبراهيم يقول للملائكة: «ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم»، ولم يقل لهم: أنا أغسل أرجلكم. وعبر متابعة القراءة إلى الأصحاح التاسع تتمّة الفصل المذكور، مع مجرّد استبدال البعير والخروف والنّعجة والعنزة والجدي مكان الماشية، يمكن للقارئ أن يفهم على نحو أفضل ممّا يمكن لريشتي تبيانه، أصول الضيافة التي يتلقّاها الضيوف في خيام البدو الرُّحّل. وما لا يذكره الكتاب المقدّس بينما ينظر إليه البدو بغاية الأهميّة، فهو أنّ الأشخاص ذوي الشأن والاعتبار ينبغي ألا يكفّوا عن الأكل حتى وإن شبعوا، إلى أن يشبع مَن يحيط بهم من الأشخاص الأدنى شأناً. وفي اليوم التالي عند الفجر، يتمّ على يد أحد العبيد إرسال الهدايا المخصوصة بالشيخ إلى الشقّة المعدّة للنساء من بيوت الشَّعر، دون أدنى ذكر لها عند لقاء الشيخ ودون أن يتفوّه هو بأي شُكر. ويمكن فهم إعجابه بها من خلال بذله الفوري لخدماته وصداقته. ورغم أنّ أصول الضيافة تتيح ثلاثة أيّام قبل الحديث في أيّ شأن، فالأفضل تبيان الغاية الصّريحة من الرّحلة. أمّا الهدايا المفضّلة لديهم فهي الأسلحة (المؤلف).

وينبغي كذلك الحصول من بني صخر على كيس صغير من الطحين «المَريس» *maris*، أو اللّبن الجَميد، وعلى كميّة صغيرة من الملح ومن العنّاب، وهذه كلّها تكفي لخمسة عشر يوماً. وكذلك ينبغي الحصول على قربة للماء، وعلى معطف من فرو الحملان للوقاية من شرّ البرد في اللّيل. ومن المفيد إضافة ما يلائم المظهر الإسلامي وينبغي ارتداء زيّ البدو. أمّا الثياب التُّركيّة أو الأوروبيّة، وخاصة ما يدلّ على الدّيانة المسيحيّة، فليست بمقبولة ما وراء ديرة بني صَخر.

وثياب البدو معروفة وغنيّة عن الوصف هنا. وجميع البدو يرتدون ثياباً متشابهة، لذا يستحيل التعرّف عليهم وسط حشد منهم إلّا عن طريق صياحهم. وكنتُ في البداية أظنّ أنّ عباءاتهم والعقالات المصنوعة من وبر الإبل التي تُربط بها كفّياتهم من شأنها أن تفي بالدّلالة على عشائرهم المختلفة.

ولاحظتُ أنّ وبر الإبل قد يكون أحياناً ذا خيوط رخوة، ولا يربطه ببعضه إلّا عقدة تبلغ سنتمتراً واحداً، وعلى مسافات متفاوتة، وفي هذه الحالة يسمّى «العقال» *aakal*. وفي بعض الأحيان الأخرى تكون الخيوط أو الأشرطة متصالبة، وعندها تسمّى «جديلة» *gedile*. والخيوط الرّخوة تكون دوماً من اللّون ذاته، وأمّا تلك اللّواتـي تستعمل لربطها أو لجمعها معاً فيمكن أن تكون متماثلة أو مختلفة. وكذلك فإنّ أشرطة الجديلة يمكن أن تكون من اللّون ذاته أو مغايرة.

أمّا بالنسبة للعَباءة «العَبَا» *abah*، فلقد رأيتُ منها أنواعاً بيضاء بالكامل، ومنها سوداء، أو بنيّة. والأكثر استعمالاً هي المقلّمة بالأزرق والأبيض، وهذا النّوع من العبي يسمّى «العراقي». أمّا المقلّمة بالأبيض والبنّي فهي «مبيّضة» *mebeda*. والمقلّمة بالأبيض والرّصاصي والضاربة إلى الكستنائي تُدعى «بَرقا» *barka*. ولكن ليس اللّون وحده هو ما يميّز هذه العبي فحسب، بل والعرض المتناسب لتقليماتها.

* * *

يقوم شيوخ الطُّوقة، أو أحد أفراد آلهم، بانتقاء رجال من عشيرتهم لكي يؤلّفوا جماعة المرافقة الجديدة، والتي يُضاف إليها حتماً رجل شمّري، وآخر شراري، وثالث عنزي من الوُلد علي.

لدى الرّحيل عن مضارب بني صَخر على أكناف وادي القْليطة، يصل الرّحّالة بعد 4 ساعات و30 دقيقة وفق المسير المعتاد للإبل (86 متراً في الدّقيقة) إلى أرض الصّوّان، بعد التعرّج في منطقة تخالطها الهضاب والسّهول، وذلك بمعدّل ساعتين صوب الجنوب، و35 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، وساعة و35 دقيقة جنوباً، و20 دقيقة صوب الجنوب الغربي.

وبعد متابعة المسير في أرض الصّوّان خلال ساعتين و45 دقيقة جنوباً، يصل النّهار إلى ختامه عند سيل أبو شرشوح، الذي يتوفّر فيه الماء حتى شهر يونيو. وهذا السّيل الذي يتّجه من الشّمال الشرقي بشرق إلى الجنوب باتجاه وادي المجر، يظهر فيه بعد بضعة أيّام من هطول المطر، عدّة خَبرات مياه في مِهاد غريني ممتزج بالحجارة الغنيّة بالسّيليكا. وتنمو في جنباته بوفرة الأعشاب التي تطلبها الإبل: الشّيح، والعطيفة، والرّتم، والعطيفان.

ويمكن للرّحّالة العثور على وادي أبو شرشوح دون أن يخطئه، إذا هبط هضاب البَلقاء الأخيرة ولاحظ أمامه تماماً إلى جهة الجنوب جبلين منفصلين في السّهل، يقعان على خطّ واحد من الشرق إلى الغرب، فيمرّ من نواحي الجبل الأصغر بينهما، الذي يقع إلى الشّرق من الدّرب.

وأرض الصّوّان، ذات تربة السّيليكا والكوارتز الممتزج بالسّيليكا، تحتلّ مسافة قدرها 48 ميلاً مربعاً. ولهذا السّهل بُنية متماوجة ويتألّف من تجاويف مطمورة، نظير السّهل، وله طبقة من شظايا الصّوّان التي لا بُدّ أنّها كانت في سالف العصور كتلة قشرية واحدة هائلة، ثمّ طُحنت تحت فعل عناصر المناخ. وفي فواصل نادرة تُصادَف نجوات بارزة في الأرض تنمو بها على نحو كثيف جداً النّباتات المألوفة في الصّحراء، وهي أوفر في مِهاد السّيول وعلى ضفافها، وغالباً ماتصير شظايا الصّوّان أصغر حجماً، خاصّة في السّهل.

وفي أرض الصّوّان تخترق من جهة الشّمال الغربي هضاب رمليّة، ومن جهة الشّرق جبل بازلتيّة. والماء وفير في القيعان العميقة التي تنجم عن تضاريس أرضيّة المنطقة. هذا ولقد أضحت أرض الصّوّان أرضاً محايدة بسبب أنّها لا تنتج كمّيّات كافية من المراعي، وتعبرها باستمرار قوّات عديدة من البدو أثناء قيامهم بغزو أعدائهم[1]. فحتى لو كان المرء يرتحل برفقة واحد أو عديد من الصّخور أو شمَّر أو الشّرارت وعَنِزَة الوُلد علي، فإنّ من دواعي الحيطة والحذر أن يقوم باجتياز أرض الصّوّان على وجه السّرعة.

بعد ساعة و30 دقيقة من أبو شرشوح، يصادف المرء وادي المجر الذي يمتدّ من الشّرق إلى الغرب. وبعد اتّباع دربه خلال ساعة و17 دقيقة، يصل إلى هضاب الرّمل التي تحتلّ، كبحر خفيف الموج، فُسحة كبيرة جداً من السّهل وتسمح بشكل توضّعها بسلوك دربها في خطّ مستقيم.

وبعد ساعة و15 دقيقة تُبذل في اجتيازها، يعاود المرء دخول السّهل الصّوّانـي الذي يجول فيه لمدّة ساعتين و55 دقيقة صوب جهة الجنوب، ثم يتذبذب 25 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب، و15 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، و15 دقيقة صوب الجنوب الغربي، و8 دقائق صوب الجنوب، و30 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب.

---

(1) الغزو هو الإغارة على حلال عشيرة معادية. والشيخ الذي يزمع أن يكون «العَقيد» *Achide* أو قائد الغزو، يقوم بتحديد مكان التجمّع ويومه، ولا يُفصح عن الوجهة التي ينويها ولا العدوّ الذي سيُغير عليه. فيجتمع مقاتلوه على متون الخيل أو الأباعر، ويقومون باحتساب عديدهم، وبمقدار ما يبلغ هذا العدد يتمّ تقرير مدى الغزو، وأيّة عشيرة سيتمّ الإغارة عليها والوجهة المقصودة. ومن حقّ العَقيد أخذ جميع الأفراس المغتنمة من العدو، باستثناء اللواتـي جُندل عنهن خيّالتهن أثناء القتال، فيكنّ عندئذ من نصيب مَن صرع خيّالتهن. أمّا بخصوص البقيّة، فيعطي لكل رجل بعيراً، أو في أحسن الأحوال حسب مقدار كرمه يعطي من أطيب أسهم الغنيمة. وإنّ صيحة الحرب [أي النّخوة، أو العزوة] الخاصّة بالعَقيد تفي بالتّعريف عنه، ولئلا يسمّي نفسه صراحةً، ممّا يُعدّ لدى العرب مفاخرةً مذمومة، فهو يصيح باسم أخته أو إحدى أدنى قريباته منه نسباً. هذا وإنّ اسم «أخو جُوزَة» الذي يحمله حَمَد بن بُنيَّة من شيوخ الشّعلان، يُنذر برُعب شديد لجميع بدو حدود نَجد. ولقد أمضى حَمَد بن بُنيَّة حياته في الإغارة والغزو ضمن الدّيرة التابعة لعشيرته الرّوَلَة (المؤلف). قلتُ: استزد من كتاب موزيل.

ثمّ يصادف بعض الفجوات الصّوّانيّة، ويتابع مسيره من جديد صوب الجنوب، خلال 4 ساعات و16 دقيقة، وصولاً إلى سفوح الجبال التي تفصل هذا القسم الأول من أرض الصّوّان عن وادي الشّمّري، الذي يجتازه المرء من جهة الشّمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في ساعة و52 دقيقة. ووداي الشّمّري يبعد 35 دقيقة، منها 20 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب، و15 دقيقة صوب الجنوب الشرقي.

ثمّ يتوجّه الرّحّالة صوب الغرب، ويقوم بتغيير ماء القِرَب، ويختتم هذا النّهار المُضني بعد 15 ساعة و13 دقيقة من المسير بأن يترك الأباعر ترعى خلال نصف ساعة دون أن تغيب عن ناظريه، ويبحث عن ملاذ يبيت فيه اللّيل في نواحي منطقة السّيل، ما بين الرّوابي العالية لضفّتيه، أو ما بين صخور الجبال المتاخمة.

* * *

في صباح اليوم التالي، قبل الاستيقاظ فجراً، يتمّ اجتياز وادي الشمّري ثمّ ارتقاء مرتفعات عقبته اليُسرى خلال 40 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، و5 دقائق شرقاً، ثمّ 25 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بشرق، ثم الهبوط منها ثانية خلال 15 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، و15 دقيقة صوب الجنوب، و25 دقيقة صوب الجنوب الشرقي. ويتجوّل الرّحّالة في غضون 40 دقيقة صوب الجنوب الشرقي عبر وادٍ ضيّق من الصّخور الكلسيّة، ثم يعاود من ثَمّ دخول الوادي، أي وادي غوير مَنّاع.

ووادي غوير مَنّاع يستمدّ اسمه من نتوء شاقولي لمنطقة رمليّة، تقوم على هضبة مرتفعة في أرض الصّوّان وتمتدّ إلى الجنوب الشرقي دون أن تنفتح على أيّ وادٍ. ولا بُدّ أن تكون هذه الهضبة المرتفعة في الماضي السّحيق مرتبطة بالوادي عن طريق سفوح أقلّ عسارة ومكسوّة بالصّوّان. ولمّا كانتْ هذه السّفوح أسهل تكسّراً فقد انفصلت وشكّلت سفحاً عموديّاً.

* * *

في غضون 5 ساعات و55 دقيقة، باتجاه عام صوب الجنوب الشرقي بجنوب (15 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، وساعتين و10 دقائق صوب الجنوب الشرقي، و3 ساعات صوب الجنوب الشرقي بجنوب)، وعبر منطقة رمليّة أكثر منها صوّانيّة، يصل المرء إلى آكام صوّانيّة أكثر منها رمليّة، وعند ذلك الموضع يبلغ وادي غوير منّاع نهايته. ويجول المرء بالهضاب من الشمال إلى الجنوب في غضون 20 دقيقة إلى أن يرى عن بُعد كبير في جهة الجنوب الشرقي بجنوب رأس الطّبيق، و35 دقيقة صوب الجنوب الشرقي ⅓ الجنوب الشرقي بجنوب. وبعدها يعاود المرء دخول سهل أرض الصّوّان الذي يستمرّ فيه الطريق مستقيماً (50 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب، 25 دقيقة صوب الجنوب، ½ دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب، ثم ساعتين و5 دقائق صوب الجنوب الشرقي بجنوب) وصولاً إلى سيل وادي العنّاب، بالقرب من رُجم *Redjem* أقامه البدو بمثابة نقطة علّام وإرشاد للمسافرين(1)».

---

(1) الرّجم هو كوم من الأحجار الحمر يُقام في ذكرى حدث ما. والرّحّالة في أرض الشرق يجد منه في كل خطوة يخطوها، وإذا جُمعت الرّوايات المتعلقة بها يمكن أن تسدّ ثغرات في التاريخ.
وأول رُجم ذي شأن يُلاحظ لدى مغادرة بيت المقدس، وعلى بُعد حوالي 150 متراً إلى الشمال من قبر راحيل، الذي هو صرح أقيم محلّ الأحد عشر حجراً اللاتـي كانت الأثر الوحيد الذي أقامه يعقوب لذكرى زوجته. والرّجم المذكور يدلّ على مكان قتل التّعامرة في عام 1858 م لشاكر آغا حاكم بيت لحم، وكان قبراً مؤقتاً له. وخلاصة الحكاية أنّه كان تم توقيف أشخاص من التّعامرة في بيت لحم، حيث وجّه ثريّا باشا الذي كان آنذاك حاكماً لفلسطين، أمراً إلى شاكر آغا باقتيادهم إلى القدس، حيث يتوجّب زجّهم في السّجن. فامتثل شاكر آغا للأمر، وقام بخفر المساجين ومعه عشرون خيّالاً من العسكر غير النظامي، وإذا به يتعرّض لهجوم من أكثر من مئة من التّعامرة الكامنين على الطريق بقيادة صافي الزّير أحد شيوخهم. فما كان من خيّالة الحاكم إلّا أن لاذوا بالفرار، وتم تحرير المساجين، أمّا شاكر آغا الذي كان الرّاغب الوحيد بالقتال فقد لقي حتفه ضحيّة بسالته والتزامه بواجبه. وحيث سقط تمّت مواراته في الثّرى. وبعد بضعة أيّام، تمّ نبش جثمانه ونقله بتابوت أسرته إلى القدس. فكل مَن حضر إخراج الجثمان من القبر قام بوضع عدد من الحجارة على القبر الذي ظلّ فارغاً. ومنذ ذلك الحين، يقوم كل رحّالة برمي حجره أثناء عبوره بالمكان، فمع مضيّ الأيام راح الرّجم يكبر، وبهذا يبقى اسم شاكر آغا ماثلاً في التاريخ. ولدى المرور قرب الرّجم الذي أقيم حيث مات شاكر آغا ميتة الشجعان، يذكر المرء حجارة يعقوب في بيت إيل التي وضعها تكريماً لله تعالى، قبل حوالي ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة. وكذلك الحجارة التي كوّمها في جلعاد ذكرى وشاهداً على مسيرته مع حميه لابان، وقريباً منها الأحد عشر حجراً التي أقامها على قبر زوجته المحبوبة راحيل (المؤلف).

ويبتدئ وادي العنّاب عند قاعدة رأس الطّبيق، ويمتدّ صوب الشمال الغربي مع عدّة انعطافات، بحيث أنّه ينبغي اجتيازه عدّة مرّات. ومِهاده الرّملي يمتصّ بسرعة ماء المطر، ولذا لا يمكن الرّكون إلى العثور على الماء منه في أيّ فصل من الفصول. بل ينبغي ملء قِرَب الماء من واحدة من تلك البرك الطبيعيّة الضخمة التي يصادفها المرء إلى يمين الطريق، على بُعد ساعة و25 دقيقة من الهضاب، أو ساعة و55 دقيقة إلى جهة الشمال الغربي بشمال من وادي العنّاب. أو أيضاً من المَنقَع الذي يجده المرء عبر متابعة الطريق لمدّة 43 دقيقة (48 دقيقة منها صوب الجنوب الشرقي بشرق، و10 دقائق صوب الجنوب الشرقي، و5 دقائق صوب الجنوب الشرقي بجنوب).

أمّا بخصوص البقيّة، فمن المحتمل أنّه يمكن العثور عليها على بُعد ساعة و10 دقائق من المسير قُدُماً، صوب الجنوب الشرقي بجنوب، ما بين الهضاب التي تنتهي عندها بشكل نهائي أرض الصّوّان، ومنعطف جديد لوادي العنّاب يمتدّ من الشرق إلى الغرب. وينبغي التّواري هناك لمبيت الليل والارتياح من الرّحلة المضنية التي دامت 14 ساعة و48 دقيقة.

ثمّة سلسلة طويلة من الآكام الرّمليّة تخالطها صخور بازلتيّة وتقطعها مراراً سهول صغيرة، وشظايا البازلت ونباتات السِّمح Semeck التي تكسو التّربة[1]، وهذا كلّه يدل على دخول الطّبيق من بعض جهاته.

---

(1) نبات صغير يمكن تصنيفه ضمن طائفة الحبوب النّجيليّة graminées-céréales. وهو ينتش من التربة في أيّام الرّبيع على شكل سوق أنبوبيّة صغيرة ذات شكل مغزلي، وهي مليئة بلُبّ ذي عُصارة سائلة، حُبيبيّة وبرّاقة. والسّمح ينضج في الصّيف، وعندها فإنّ الأنابيب التي تكون اصفرّت وتحوّلت إلى أسطوانات مجوّفة، تحمل زهرة ذات موشور منكسر في الدّاخل ويتألف من خلايا مليئة بالحبيبات الورديّة والمكسوة بحراشف صغيرة تنتهي بوبر، ترتبط بالنصف العلوي من الموشور وتنفرج في الوسط فتمنع الحبيبات من السّقوط. ويبلغ قطر الزهرة سنتمتراً واحداً، والنبتة الصغيرة بأكملها لا تتجاوز أبداً 15 سنتمتراً وتحتلّ من التربة مساحة مساوية لارتفاعها. والسّمح ينتج إن تمّت زراعته، حتى في المناطق التي ينو فيها، أو على الأقل لا يُعرف حتى هنالك كيفيّة استكثاره. وكذلك فإنّ عرب الشّرارات وسكّان جوف عامر لعدم معرفتهم بالآليّة الطبيعيّة، يؤكّدون أنّ هذه النبتة من نتاج أهواء النّدى المتقلّبة.
وعند حصادها، تُلقى نباتات السّمح في أحواض ماء كبيرة، كيما تتفتّح حراشف الأزهار عنها،

بعد ساعتين صوب الجنوب الشرقي بجنوب من المنعطف الأخير لوادي العنّاب، ينتصب بأعلى مَنقَع ماء (خَبرة) بمحيط حوالي 10 متر جبل مستقلّ بذاته وعالي الارتفاع: فهذا هو راس الطّبيق، وهو يتألّف من كتلة بازلتيّة قمّتها متصدّعة، وجوانبها مكسوّة بالصّخور المتراكمة التي تنفصل منها شظايا بشكل دائم. ولدى بلوغ المَنقَع بعد 20 دقيقة من المشي صوب الجنوب، يصل المرء إلى السّهل الذي تكسوه بالكامل طبقة البازلت الذي تلاشى إلى غبار ناعم. وثمّة عدد كبير من السّيول الصّغيرة، بعد أن تدور في عدّة اتجاهات تأخذ اتجاهاً يمتدّ من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي.

وفي خلال 3 ساعات و45 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب، يتمّ التّجوال في وسط السّهل، الذي توجد على يساره سلسلة من الجبال البازلتيّة، مثل راس الطّبيق، وعلى يمينه كثبان تأخذ بالاقتراب شيئاً فشيئاً. وهي في أقصى السّهل تتوحّد بشكل هضاب بازلتيّة وكلسيّة تؤدّي إلى فصل وادي الطّبيق عن واحد من فروعه، وهو وادي الفيحة Fihe[1] الذي يبعد 30 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب من مبتدأ التقاء الرّحّالة بالهضاب. والفيحة وادٍ رملي ضيّق، تحدّه على جانبيه جبال رمليّة على غراره، وتبرز من بينها إلى اليسار في بعض الأحيان صخور بازلتيّة يفصلها الرّمل عن السّلسلة الرّئيسيّة.

وبعد بذل ساعة و20 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بجنوب في التّجوال بالسّفوح الأخيرة للهضاب التي شكّلتها، يصل المرء إلى حوض مائي صغير محفور بشكل طبيعي في وسط بعض الآكام التي تنتصب فوق أرض السّهل الرّمليّة، وكأنّها جزائر صغيرة في بحر طام. وما بين هذه الرّوابي الصغيرة ينتقي المرء ملاذاً لمبيت الليل. وتكفي رحلة 8 ساعات و5 دقائق بعد المسيرة المُنهكة في اليومين الفائتين. ووادي الطّبيق هو ديرة الشّرارات، وليس فيه ما في أرض الصّوّان من مخاطر على الرّحّالة.

فتسمح بخروج الحبيبات من مكامنها. ويتمّ تجفيف هذه الحبوب في الشمس، ثمّ تُطحن فتعطي خبزاً مقبول النّوعيّة وعصيدة polenta لذيذة، وللسّمح طعم متميّز مع مربّى البلح (المؤلف).

(1) كذا التسمية في الأصل المطبوع، وأخشى أن تكون محرّفة عن: التّيهة. ولم أجدها في الخرائط.

وينقسم الشّرارات إلى أربعة بطون هي[1]: الضباعين، والحلِسَة، والعَزّام، والفليحان. والقوّة المسلّحة لهذه البطون الأربعة تبلغ 4000 جندي مُشاة، منهم 2500 مسلّحون بالبواريد، و20 خيّالاً. وهؤلاء المُشاة في حالات الغزو يركبون ذلائل يربّونها بأنفسهم وتشتهر بأنّها من أكرم وأسرع سلائل الإبل التي جابت مفاوز الصّحراء قاطبةً[2].

يُزعم أنّ الشّرارات ينحدرون من بني كلب. وهم لا يتزاوجون على الإطلاق مع باقي البدو[3].

---

(1) كلام المؤلف هنا صحيح ودقيق تماماً، ويلاحظ بالإجمال معرفته الطيّبة بشؤون البدو، لكنه في النقل الشفاهي عن أنسابهم وفروعهم المختلفة يغلط، وأظن مَن كان يملي عليه يسهو عن ذكر الأنساب بشكلها الصّحيح. زد على ذلك أنّ سوء قراءة لجنة التحرير لخط المؤلف (وكذلك في الترجمة الإنكليزيّة) سبّبت أغلاطاً جمّة في أسماء العشائر والأشخاص والأماكن.

(2) ثمّة شهرة كبيرة للنّاقة الشّراريّة، يعرفها البدو ورحّالو الجزيرة جميعاً.

(3) تُقتنى المرأة أو تُعطى عطيّة، ويبلغ سياقها بعيراً أو أكثر، ويتراوح معدّل مهرها صعوداً أو نزولاً بحسب مكانة أسرتها الاجتماعيّة، لا بحسب مزاياها الشخصيّة. ولا يقوم البدو على الإطلاق بإجبار فتياتهم على الزّواج ممن لا يحوز إعجابهن، والأب لا يرتبط بأيّ عرض زواج ما لم يأنس من ابنته علامة واضحة على قبولها ورضاها.
وعندما يرغب شاب بالزّواج، يتقدّم إلى بيت شَعر والد الفتاة ومعه جدي، فيقوم بطلب الفتاة ويعرض مهراً لها، تتمّ زيادته وفق طلب الأب. فإن تمّ الاتفاق بلفظ الأب عبارة: «بارك الله!»، يقوم الشاب فيذبح الجدي ويقوم بتجهز بيت الشّعر الذي يأخذ إليه عروسه، فتتمّ الزّيجة.
أمّا الزواج بغير مهر فأمر يجري بين الأقارب ضمن أسر الشيوخ. وأمّا بنت الشيخ التي تتزوّج من غير أبناء عمومتها فيبلغ سياقها مئة ريال مَجيدي، وفَرَس وعشرة من الإبل على الأقلّ.
وبالرّغم من موافقة الفتاة على الزّواج أحياناً، قد يرفض أبوها تزويجها، فلا يبقى أمامها عندها إن هي رغبت بهذه الزّيجة إلّا أن تهرب مع محبوبها. فإن تمّ الإمساك بها قبل أن تلوذ بمأوى في جيرة شيخ قوي، يتمّ قتلها. أمّا إن استطاعت بلوغ ملاذ آمن، فتستقبلها النّساء ويزرنها للتثبّت من أنها لا تجلب عاراً على القبيلة التي استجارت بها. فإن تبيّن أنها عذراء، يتمّ على الفور ذبح جدي، ويتمّ زفّها إلى بيت الشّعر المعدّ لخاطفها. أمّا إذا تبيّنت النساء أنها قد فقدت عذريّتها فهي تُطرد من القبيلة مع صاحبها الذي تُوجّه إليه أشنع نعوت القدح والذمّ.
غير أنّ والد الشاب يدخل في تسوية مع أهل الفتاة، ويتمّ دفع مبلغ بمثابة تعويض إلزامي عن اختطاف البنت، بالإضافة إلى مبلغ آخر للقبول بالأمر الواقع.
في بعض الأحيان، لا يرضى أهل الفتاة بالسّماح بحصول الزّيجة، ويطلبون تسليمهم الفتاة. وفي هذه الحالة، إن تمكنوا من استردادها فهم لا يعاملونها بقسوة، وإن كانت حاملاً فإن طفلها سواء كان ذكراً أم أنثى يعود إلى أبيه بمجرّد أن يقدر على المشي ويتمّ فطامه (المؤلف).

ينظر إليهم البدو على أنّهم من بوهيميّي سكّان برّ الشّام، بسبب رواية تزعم أنّ بني كلب تناسلوا من نتاج زواج امرأة بكلب[1]، ومن غير المعروف المغزى المجازي لهذه الرّواية. وهم صيّادون ماهرون للنَّعام والغزلان وبقر الوحش، ومن كبار أصحاب الهجن والإبل، لكنهم معدودون بين البدو متشرّدين بكل معنى الكلمة. ففي كلّ مساء تراهم ينصبون خيامهم، ثمّ ينقضونها في الفجر ويحمّلونها على ظهور جمالهم، فيبدّلون على هذا النّحو في كلّ يوم موقعهم للعثور على مَراعٍ أوفر في ديرتهم الواسعة، وللتملّص من طلب أعدائهم الكثيرين.

تكفي إحدى عشرة ساعة للخروج من وادي فيحة. وفي السّاعتين الأوليين و20 دقيقة يتبع الرّحّالة طريقاً مستوياً ومنتظماً تماماً ما بين سيلين. وفي خلال 20 دقيقة يتمّ اجتياز الهضاب، ويعود المرء إلى السّهل ليجد أنّه بعد 40 دقيقة لم يجتز منه سوى أقلّ من ساعة ونصف من الطريق.

تنقسم هذه الهضاب الأخيرة إلى سلسلتين: إحداهما بالكامل تقريباً ذات بُنية رمليّة، بينما الأخرى التي هي الأكبر بينهما تتألّف برُمّتها من البازلت. وفي السّلسلة الأولى نتوءات وفجوات خفيفة، أمّا الأخرى فتصبح سلسلة حقيقيّة من الجبال، لكنّها مع ذلك تتلاشى تحت رُكام الرّمل الطامي.

يفضي انحدار سريع إلى مركز الوادي، ولدى متابعة المسير على خطّ مستقيم خلال ساعتين ونصف، على أرض رمليّة وشديدة التّماوج، يصادف المرء هضاباً بازلتيّة جديدة.

---

(1) كلام فارغ وتافه وعامّي تماماً، فقبيلة كلب اليمانيّة من قُضاعة من أكبر قبائل اليَمَن، هاجر منها العديد إلى الشمال عبر العصور، ومنهم أعداد كبيرة رافقوا الفتح الإسلامي لبلاد الشام، فقطنوا كثيراً من مدنه، كدمشق والمزّة وحمص والبقاع وجبل لبنان. لكنّ ثمّة حروباً ضارية نشبت في التاريخ بينهم وبين القبائل القيسيّة المُضريّة، دامت عصوراً. فهذا بالضبط سبب هذه الدّعاية المغرضة. وكثير من الادّعاءات في التاريخ مردّها إلى النّزاع القيسي اليمني، مثلاً صيت أهل حمص في برّ الشام بالحماقة، فهذه دعاية قيسيّة ألصقت بها إبّان تحالف زعيمها النّعمان بن بشير الأنصاري مع مروان بن الحَكَم الأموي، الذي استخلص الخلافة من أيدي أبناء عمومته السّفيانيّين من بني أميّة (وكانت قيس حليفتهم).

ثمّ لدى تغيير اتجاهه اعتباراً من هذه النقطة، يبلغ في حوالي ساعتين الخانق الذي ينتهي عنده وادي فيحة، وينفتح في الجهة الأخرى على وادي الغَرّا Gara. ووادي الغَرّا ليس قسماً من وادي الطّبيق، بل هو يؤلّف الحدّ الجنوبي لرمال الحجاز.

عند هبوط الهضاب التي تؤلّف رأس وادي الغَرّا، يبلغ المرء سهلاً شاسعاً يكسوه حجر أشهب مُتلاشٍ إلى غبار ومنزاح إلى المنطقة المجاورة، فترتفع أرضه شيئاً فشيئاً. وبعد القيام بعدّة التفافات دون الابتعاد كثيراً عن الاتجاه العام نحو الجنوب الشرقي بشرق، يصل المرء في ختام بضعة ساعات من المسير إلى مَنقَع ماء تبلغ مساحته حوالي 5000 متر مربّع، ولدى متابعة ضفّته اليمنى وصولاً إلى أكمتين يجتاز بهما الدّرب، يفضي المرء من جديد إلى السّهل في خط مستقيم طويل يبقى ثابتاً عليه خلال 6 ساعات من المسير، مارّاً على جميع الجهات بعدد كبير من مناقع الماء تتفاوت في أهميّتها. والمَنقَع الأخير لا يبعد سوى أقلّ من نصف ساعة عن تحدّب جديد من جبال وادي النّيال Neiel، الذي بعد أن يقتحم وادي الغَرّا، وكأنّه يشطره، يضمحلّ شيئاً فشيئاً ويختفي صوب الغرب.

ووادي الغَرّا لا ينتابه الشّرارات قبل شهر مايو، وفي شهر فبراير يُعدّ المسير به خطيراً للغاية، فإنّ وفرة مياه مناقعه وخَبراته، التي لا يجفّ بعضها بشكل كامل مُطلقاً إلّا حتى شهر مايو، تجتذب جوّالي البادية الضامنين ملء قِرَبهم وإرواء عطش إبلهم. فلذلك، يشبه وادي الغَرّا ملتقى البدو المُنتمين إلى أكثر القبائل تباعداً، والذين غالباً ما يكونون أعداءً للشّرارات وحلفائهم، أو من اللّصوص الذين يُغيرون بغير تفريق على الأصدقاء والأعداء إن لم يكونوا على قوّة تكفي للذّود عن أنفسهم وحلالهم.

هذه الأسباب تجبر الرّحّالة على اجتياز وادي الغَرّا بسرعة، وعلى ألّا يرتاح ولا لبضعة هُنيهات إن كان أدركه التّعب، إلّا عندما يأمن إلى التّواري في ثنايا الأرض أو في مِهاد بعض السّيول العديدة التي تتفرّع عن الوادي لتتّجه صوب الجنوب، ثمّ تميل بعدها صوب الجنوب الغربي.

والاحديداب الأخير لجبال وادي النّيال في وادي الغَرّا يتم اجتيازه خلال 25 دقيقة، ثمّ تلي منطقة ذات تموّج يسير تتألّف من الحصى، ومن الحجر الرّملي ومن الصّخور الكلسيّة الواطئة. وعقب ذلك بنصف ساعة يدخل المرء وادياً صغيراً تحجبه من جميع النّواحي رواشن المنطقة التي تحيق به، وهي تحتوي على الكثير من المغاور.

ولدى الخروج من هذا الوادي الصغير، تصبح تضاريس الأرض مستوية تماماً على مسافة 3 ساعات من المسير. ويستعيد الرّحّالة اتجاه الجنوب الشرقي بجنوب حتى الجبال المنعزلة التي تبعد بمقدار 20 دقيقة إلى الجنوب الشرقي بجنوب، و12 دقيقة إلى الجنوب الشرقي، وابتداءً من عندها يبلغ المرء الهضاب التي هي رمليّة بالكامل، والتي تفصل ما بين وادي الغَرّا والفجر.

ومن الحدّ الجنوبي الأقصى لوادي الغَرّا، تلوح لناظري الرّحّالة، على سفوح الجبال وفي السّهول المجاورة، قطعان الشّرارات ويليها أصحابها الرُّحّل.

إنّ توايهة بني عطيّة[1]، والعْنِزَة الْمحَلَف، وضَنا بِشْر في برّ الشام، وشمَّر، هم البدو الوحيدون الذين يجرؤون على الإغارة على الشّرارات في وادي فجر.

يستغرق الرحّالة 4 ساعات من الوقت تقريباً في اجتياز سهل من الرّمال يلامس سلسلة من الجبال الرّمليّة الآتية من جهة الغرب، تليها مرتفعات أخرى ذات قمم بازلتيّة. وهذه الأخيرة تمتدّ من جهة الشرق. وبعد 3 ساعات جديدة على الطريق ضمن اتجاه يتراوح بين الجنوب الشرقي بجنوب والجنوب الشرقي، يختتم المرء يوم المسير البالغ من 9 إلى 10 ساعات، عند جبال من الرّمل تنساب من الغرب إلى الشرق.

---

(1) يعدّ بدو بادية الشام الكبرى بشكل مغلوط أنّ التّوايهة Tiaha يشتملون على جميع العرب الرّحّل من جبال يترا إلى تخوم مصر، ومن الحدود الجنوبيّة لفلسطين إلى جبل التّيه في شبه جزيرة سيناء. هذه الدّيرة الشاسعة تجول فيها، باستثناء الفواعرة، ست عشرة قبيلة، الأولى منها حقاً التّوايهة، التي تنقسم إلى بطنين متعاديين: يمني وقيسي. وهذه العشائر عند اتحادها يمكن أن تجنّد 10000 جندي مشاة، و3000 خيال و20000 مقاتل يمتطون متون الهجن. وبنو عطيّة من التّوايهة أعداء الشّرارات ما زالوا يقومون أحياناً بالتوغّل في مصر وتخوم نجد (المؤلف).

يهبط الرحّالة خلال ساعة و55 دقيقة صوب الجنوب الشرقي من راس الفجر إلى السّهل، وبعد 20 دقيقة من الهبوط يبلغ هضبة مسطّحة رمليّة مفروشة بشظايا البازلت، ويمكن عبورها خلال ساعة واحدة. وبعد مغادرة هذه الهضبة المسطّحة يجد المرء سهلاً تنتصب عند مخرجه تلال كلسيّة صغيرة تنتشر فيها الصّخور. وما بين الصّخور التي يتوفّر فيها ملجأ مريح لمبيت اللّيل، يجد المرء غدراناً صغيرة ذات ماء رائق للغاية.

في صباح اليوم التالي، لدى المسير خلال ساعة صوب الجنوب الشرقي، خلال سهل متموّج جداً، كما هي السّهول التي سيصادفها المرء من الآن فصاعداً يصل الرحّالة إلى سهل آخر له معدّل ارتفاع ينخفض قليلاً عن سابقه. وفي هذا السّهل الثانـي تتوالى نهاية ثالثة بسيل يتّجه صوب الشّرق، والذي يتمّ اجتيازه للوصول إلى نَشَز من الأرض يطلّ المرء من أعلاه على وادي تَيماء. ويتمّ بلوغ هذا الوادي بعد هبوط يستغرق 50 دقيقة.

- 2 -

تَيماء قرية يقطنها 1000 نسمة، يحكمها لصالح طلال بن رشيد الأمير رُمّان بن هتيمة من شمَّر الفْرِجَة من الجزيرة. ولدى النظرة الأولى، تلوح القرية بشكل مزرعة نخيل واسعة، يحيط بها ويحميها نطاق من الأبراج المدوّرة والأبراج المضلّعة، يبلغ ارتفاع الواحد منها من 5 إلى 6 أمتار. وهذه الأبراج تقوم ضمن مسافات غير منتظمة على أعلى بَدَنات سور يبلغ ارتفاعه 3 أمتار وسماكته 0.20 متراً، وهو نظير الأبراج مجفّف في الشمس.

وتنقسم القرية إلى ثلاثة أحياء، يفصل ما بينها جدران الأسوار الداخليّة، وكل حيّ بمزارعة الخاصّة يستقلّ عن الآخر. والدّور تتوارى بأجمعها تقريباً ضمن نطاق المزارع، وهذه الدّور القليلة العدد توجد على نفس نسق جدران طرفي الشارع، ولها شكل أبراج ذات طابقين، وتنال الإنارة خاصّة من باحة داخليّة صغيرة. ولها أيضاً في جدرانها الخارجيّة كوى وطاقات صغيرة.

وأمّا سقوف الدّور فهي تتألّف من جذوع وجرائد النّخيل المكسوّة بتربة رمليّة وجرانيتيّة، وهي توضع بشكل مائل لأجل تسهيل انزياح ماء المطر في الشتاء. ولكنها أيضاً قد تكون مبنيّة بالآجرّ المجفّف بالشمس. وبعض هذه السّقوف تتألف ببساطة من طبقات متراكبة بعضها فوق بعض من رمل البازلت أو الجرانيت، الذي بعد أن يبتلّ يتصلّب بفعل أشعّة الشمس، وعند قاعدتها توجد بعض الحجارة الكلسيّة الحمراء مرصوفة. أمّا المساجد فهي حجرات كبيرة وبسيطة. والمحراب يتوجّه صوب الجنوب، وأعلى مئذنة فيها لا تتجاوز كثيراً رؤوس أشجار النّخيل التي تحيط بها.

تمثّل تَيماء متاهة حقيقيّة من الشوارع الصّغيرة التي تتفيّأ بأشجار النّخيل، وجذوع الكرمة وأغصانها الناتئة بين الجدران الطرفيّة، وأشجار التّين والدّرّاق والرُّمّان. وهذه الأشجار تمّ استجلابها قبل بضعة سنوات من دمشق، فنجحت زراعتها هنا بشكل تام. وتتمّ السّقاية هنا بواسطة أقنية، غالبيّتها من جذوع النّخيل، تجتاز الشّوارع بُغية إجراء ماء الرّيّ إلى المزارع المحرومة من الآبار، ومصدر هذا الماء من الآبار البلديّة أو بعض الآبار الأخرى الأقرب مسافة، التي تعود ملكيّتها لأصحاب المزرعة. أمّا البئر الذي لم يعد مملوكاً من قِبل سُلطة القرية إلّا بالاسم، فهو يُضحي مُلكاً شخصيّاً لأفراد الأسر الأقوى نفوذاً. ولكنهم لا يحقّ لهم في حال عدم استخدامهم للبئر أن يمنعوا السّكان الآخرين من الاستقاء منه، إن هم قدّموا له تعويضاً رمزيّاً بشكل يومي.

وهذا البئر الذي يبلغ [illegible] حوالي 40 متراً [illegible] 48 [illegible] باستقاء الماء منه على الدّوام، كما هو الحال في سهل غزّة، ولكن ضمن نظام حركة أكثر إتقاناً بكثير.

يوجد في القرية أيضاً عدّة حقول صغيرة مزروعة بالشّعير والحنطة والتّبغ والبطيخ والشّمّام. ومصادر الدّخل الرئيسيّة للسكّان تعتمد على التّمور والسّمن. وما من سوق عامّة أو بازار هنا على الإطلاق، بل إنّ أعمال البيع والشّراء تتمّ في دُور مَن يتعاطون مهنة التّجارة.

وهؤلاء التجّار يتزوّدون بالبضائع من الباعة الجوّالين القادمين من نَجد، أو من الحجّاج القادمين إلى مكّة من منزلة البَلقاء، التي تبعد عن هنا مسيرة يوم ونصف. والعملة السّائدة هنا هي البعير والتّمر.

في تَيماء، ما برحت توجد جميع عوائد البدو وأعرافهم بصورتها الخالصة النقيّة. وبواردِيّة تَيماء البالغ عددهم 150 ببواريدهم أمّ فتيل، وفرسانها العشرون الذين لكلّ منهم فرسه، لا يكفون أبداً لحماية القرية، لكنّها من أتباع طلال ابن رَشيد حاكم الجبل، وهي بنتيجة ذلك من حلفاء الشّرارات والعْنِزَة وُلد سليمان والأيدان، الذين هم الوحيدون ممّن يدخل أراضيها.

والأيدان، الذين هم فخذ من الوُلد علي، انفصلوا مثلهم مثل فرقة من الوُلد سليمان وضَنا بِشر، فأضحوا في البداية حضراً مقيمين في خَيبَر، ثمّ صاروا بعدها بدواً رُحّل في صحراء نَجد الشّماليّة. بينما نجد جميع البطون الأخرى من عْنِزَة تهاجر من أواسط جزيرة العرب، وتنتشر في بوادي برّ الشّام. والأيدان الذين ينقسمون إلى فخذين: الفُقَرا والطّوالة (ينبغي عدم الخلط بينهم وبين طوالة شمَّر)، يعدّون 150 خيّالاً و2500 بواردياً يركبون الهجن، ويقطنون في الوديان الممتدّة من تَيماء إلى خَيبَر، موطنهم القديم.

أمّا الوُلد سليمان فيعدّون 200 فارس و2500 بواردياً من الهجّانة، وينقسمون إلى الأفخاذ التالية: العنقة، المسيلم، المرتعد، السّلمات، الغضاورة، الشّملان، السّهول، الخمشة، البجايدة. وهم مثل الأيدان والشّرارات والهتيم، من أتباع طلال بن رَشيد. وديرتهم التي تحدّها الصّخور التي تفصل أرض تَيماء عن الحلوات Haulat (كذا) تنتهي في جهة الجنوب الشرقي بشرق عند جبال ضراف Draaf الجرانيتيّة، على بُعد 10 ساعات من المِسما Mesma، وتشتمل على جوف، وهو وادٍ فسيح وعميق، يسمّى جوف وُلد سليمان، لتمميزه عن جوف عامر، أي دُومة الجَندليّة القديمة. وهو يمتدّ من جهة الشّمال الشرقي بشرق إلى الشّمال الغربي بغرب، عند سفوح جبل الحَرّة، وصولاً إلى خَيبَر، ويبعد عن تَيماء بمقدار 47 ساعة صوب الجنوب الشّرقي بشرق.

وجبل الحَرّة عبارة عن سلسلة طويلة متحدّرة من الجبال البازلتيّة التي تتناهى في رمال صحراء الحجاز. وهو يبتدئ جنوباً عند جوف وُلد سليمان، وفي جهة الجنوب الغربي عند جبل ضراف Draaf. والمراعي فيه تنتابها الفرق التالية من الهتيم: الخَيرات Hairat، وبني رشيد، والـ Maimzet (؟). أمّا بخصوص الخيل فليس لدى الهتيم سوى عشرن فرساً، وهم يربّون هجائن كريمة جداً ويسلّحون 3500 بوارديّاً. وأثوابهم الزُّرق الطويلة تميّزهم عن باقي البدو، وهم يجولون في المثلّث الذي يشكّله جبل الحَرة، والحدود الغربيّة للقَصيم، وديرة بني حَرب.

أمّا خَيبَر فهي قرية يقطنها 2500 نسمة، وتتوارى دُورها تحت مزارع النّخيل. وهي تنقسم إلى سبعة أحياء يحتلّ كلٌّ منها واحداً من الوديان السّبعة لجبل الحَرّة، الذي يضمّ في هذا الموضع كثيراً من ينابيع الماء البالغ الصّفاء. وعلى هذه الوديان تُشرف الصّخرة السّامقة التي تلوح عليها أطلال قصر قديم جداً، يُدعى قصر اليهودي أو قصر اليهود. وسكّان خَيبَر يتألّفون من المغاربة ومن الأحباش، الذين هم عقب عبيد الوُلد سليمان والأيدان. وهؤلاء العبيد ظلّوا يقيمون بخَيبَر بعدما أباد مرض الجُدري أسيادهم قبل عدّة قرون، فعَزوا هذا المرض إلى الماء وتركوا القرية لهم، لكن دون أن يتنازلوا كليّاً عن مُلكيّتها، فلقد عيّنوا عليهم حقّ ملكيّة عذقين من التّمر على كلّ نخلة عند جني الطَّلع، وتركوا لهم فيما عدا ذلك حريّة زراعة المحاصيل الأخرى على حسابهم.

وفي كلّ عام، يقترب الوُلد سليمان والأيدان من خَيبَر دون أن يدخلوها، إذ يعتقدون أنّ ماءها يبقى قتّالاً لا محالة، فيجلب لهم السكّان المغاربة التّمور التي تعود عليهم وعلى الجزية بمبلغ 2000 ريال مجيدي (9320 فرنك فرنسي)، التي يتعيّن عليهم أن يدفعوها لطلال بن رَشيد، وهذه هي الجزية الوحيدة التي يترتّب عليهم دفعها.

وجميع سكّان خَيبَر مسلمون وذوو نفوس طيّبة. ومن الخطأ حقاً الظنّ بأنّ اليهود كانوا في القرن الثامن عشر يقطنون خَيبَر.

من تَيماء إلى بير المطلّة في نَجد، تُصادَف دوماً مضارب البدو من عْنِزَة ومن شمَّر نَجد. والدّرب الذي ينبغي أن يتوّجه في خطّ مستقيم صوب الشرق ¼ جنوب شرقي بشرق، لولا أنّ الرّمال تقف في وجهه حائلاً، يمتدّ بشكل هلال دون أن يتمكّن من تجنّبها تماماً، خلال 57 ساعة ونصف من المسير. وعبر ساعة و25 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بشرق يصل الدّرب إلى أقصى الوادي، الذي لا يعيق انتظام المسير بأدنى حركة أو انثناء في الأرض. وعبر 5 دقائق صوب الجنوب الشرقي، يتحوّل الدّرب في وسط الصّخور إلى مرقى خفيف ليصل إلى الجبال التي تُشرف من جميع النّواحي على أرض تَيماء، ويتّجه خلال ساعة و10 دقائق صوب الجنوب الشرقي إلى نهاية هذه الجبال.

خلال 5 دقائق يستعيد المرء اتجاه جنوب شرق بشرق، ثمّ ينحدر دون أن يشعر خلال 20 دقيقة، ويبلغ في السّهل حوض ماء ذا مِهاد من الحجر الكلسي. وعلى بُعد ساعة طريق اعتباراً من هذه النّقطة، يترك المرء على اليمين وعلى اليسار مَنقعَي ماء كبيرين جداً، يبعد واحدهما عن الآخر 25 دقيقة. وهما يجفّان دوماً في شهر أبريل. وأخيراً، يصل المرء إلى الصّخور التي تفصل أرض تَيماء عن الحلوات، ويتمّ اجتيازها بنصف ساعة.

هذه النقطة هي بداية الحلوات. وعلى مبعدة تلوح للمرء في جهة الشمال الشرقي رمال صحراء النّفود، التي تمتدّ من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويلاحظ الرحّالة مقابله صوب الجنوب الشرقي بشرق ½ جنوب شرقي، الخانق الذي يفصل جبل حلوان عن العنقة Enka. وفي جهة الجنوب الشرقي يقوم جبل البرد Berd، وهو جبل مستقل ومنفصل برمال سلسلة عنقة البازلتيّة، وحلوان في الشمال الشرقي، وبقيّة الجبال التي تنتصب وتحتجب عن الأنظار في الجنوب الغربي.

والحلوات تغشاها الهضاب الرّمليّة والصخور التي هي كلسيّة من الشمال الغربي إلى الغرب وإلى الجنوب، وبازلتيّة من الجنوب إلى الشرق. ومن الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بشرق تجعلها أكناف النَّفود رمليّة بالكامل.

في فصل الشتاء لا يؤدّي الماء أبداً إلى تشكيل سيول، ولا توجد هنا لا آبار ولا ينابيع ولا خَبرات ماء. فعندما يتوقّف هطول المطر، فالقليل الباقي من الماء الذي لم تمتصّه التّربة يسارع إلى التّبخّر. غير أنّ طَلّ الليل ونَدى الصّباح يهبطان هناك بوفرة، ولذا فالقطعان التي تُساق إلى المراعي تعثر فيها على العُشب مبتلاً، فلا يلزمها سقاية خلال عدّة أيام.

يتمّ اجتياز الحلوات في غضون ساعتين، بالاتجاه صوب الجنوب الشرقي نحو السّهل الذي يفصل في الأفق جبل العنقة عن جبل البرد. وخلال ساعة ونصف يعبر المرء الهضاب الصّخريّة التي تقطع الدّرب، والتي تليها هضاب أخرى. وبعدها إثر بضعة ساعات من المسير، يصل المرء إلى الخانق الذي يتقدّم داخل جبل العنقة وداخل جبل حلوان. ويُرى هذا الجبل الأخير ممتدّاً من جهة الشرق لينضمّ إلى رمال النّفود. والخانق الذي يفصم الجبلين يستدير لمدّة 10 دقائق صوب الجنوب الشرقي بشرق، و10 دقائق صوب الشرق، ثمّ ينفتح نحو سهل بني هلال.

وجبل عنقة يبتعد على اليمين، ويرسم نصف دائرة ليعود نحو أقصى السّهل، وصولاً إلى الموضع الذي تبتدئ عنده سلسلة من الهضاب التي تتلاقى عند السّفوح الأخيرة لجبل عرنان Arnen، الذي يرسم حدّ سهل بني هلال من جهة الشرق إلى الجنوب الشرقي، والذي يرد اسمه مراراً في الأناشيد الشعبيّة لجزيرة العرب. وكذلك فإنّ صحراء النَّفود ترسم في الجهة المقابلة نصف دائرة من الشمال الغربي إلى الشرق، وتستند بأقاصيها إلى جبل عرنان وعلى الهضاب المنفصلة عن جبل حلوان.

والسّهل أكثر توحّداً من الحلوات، وأرضيّته رمليّة أكثر. وفي المركز تقوم كالقصور الخُرافيّة جلاميدُ ضخمة ذات مقاطع موشوريّة بازلتيّة، منفصلة عن جبل عنقة بواسطة الرّمل الذي كان قد مهّد وديانها المنخفضة. وثمّة العديد من السّيول تجري في كلّ اتجاه، غير أنّ الماء الذي يملؤها في حال نزل المطر سُرعان ما تمتصّه رمال مِهادها، ولا يبقى منه نقطة واحدة في نهاية الشتاء.

ولدى النّزول خلال ساعة و15 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بشرق، في انحدار خفيف على السّفوح الشرقيّة للجبال التي تؤلّف الحدود الغربيّة لسهل بني هلال، يرى المرء السّهل غير مستوٍ أبداً عندما يسير فيه خلال ساعة و20 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، و5 ساعات و30 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بشرق، وصولاً إلى آخر صخور جبل عنقة. واعتباراً من هنالك، وخلال ساعتين ونصف، يصل المرء إلى قاعدة جبل عرنان. ويلزم ساعتان و45 دقيقة لاجتياز هذا الجبل. وفي منتصف الطريق توجد أحواض محفورة في الصّخور بفعل الطبيعة، وتمتلئ بالماء حتى الرّبيع وأحياناً حتى الصّيف، إذا كانت أمطار الشتاء غزيرة.

وجبل عرنان ينثني نحو الشمال الشرقي ثمّ نحو الشرق والجنوب الشرقي ويتابع حتى يلتقي بجبل المِسما Mesma الذي يوجد في مقابله، بحيث يشكّل ثلاثة أرباع مدرّج طبيعي يُشرف على قسم من وادي القبال Ghebal الكبير. وهاتان السّلسلتان الجبليّتان تتعرّضان للرّيح من جهة الجنوب. أمّا الرّمل الذي يتكوّم عندها منذ مئات السّنين فينحدر إلى وسط السّهل، على الخط الذي يستند من الغرب إلى الشّرق إلى حدّيها الأقصيين، وتأخذ المساحة التي يحيقان بها بذلك شكل المدرّج فعلاً.

والعرب يسمّون هذه الفرجة المنحدرة: «بين القرنين»، وهي في الواقع تنتهي على الطرفين بتلّتين صغيرتين ترتكزان بقاعدتيهما فقط إلى السّلسلتين الرّئيسيّتين وتنتآن نحو السّهل وكأنّهما حدّا طرفَي هلال.

أما القبال Ghebal فهو سهل رمليّ فسيح مثل سهل بني هلال، تحدّه في الجنوب الحَرّة، وجوف وُلد سليمان، وجبل ضراف. وفي الشمال جبل عرنان، وجبل المِسما، ورمال صحراء النَّفود. أمّا في الشرق فتحدّه تخوم جبل شمَّر، وفي الغرب الجبال التي تتابع سلسلة عنقة، ولو أنّها كثيراً ما تعترضها فواصل. فهذا هو عاتق القوس الذي يؤلّفه كلّ من جبل عِرنان و المِسما، والذي يمتدّ في خطّ مستقيم صوب الشرق خلال 4 ساعات و15 دقيقة.

يبصر المرء أعالي ذُرى الحَرّة عند السّاعة الثامنة عشرة صوب الجنوب الشرقي بجنوب، بعدما يكون جاب هذا الخط في غضون ساعتين، أي وصولاً إلى الموضع الذي يلاقي فيه خلال نصف ساعة إلى يمين السّهل جبلاً مدوّراً ومعزولاً. فالقسم من بين القرنين المتّصل بجبل عرنان والهابط خلال 55 قيقة، يستغرق المسافة البالغة ساعتين و45 دقيقة نحو الجنوب الشرقي بشرق التي تلزم لاجتيازه. أمّا القسم الذي يرقى إلى جبل المِسما فهو ينثال خلال ساعة و55 دقيقة صوب الشمال الشرقي بشرق في خطّ مستقيم نحو الثّغرة التي تتركها في الجبال الهضبة الأخيرة التي تنفصل عنها. بحيث أنّ الحدّين القصيّين لبين القرنين يبعد أحدهما عن الآخر مسافة مسيرة 7 ساعات و5 دقائق.

وبعد ارتقاء القسم الثاني من بين القرنين، على ذُرى جبل المِسما اللواتي لم تطمرهنّ بعد الرّمال، وبعد ترك اتجاه شمال شرق بشرق إلى الجنوب الشرقي، يقوم الرحّالة بالدّوران 30 دقيقة ما بين صخور الهضبة التي تنفصل، لنقُل عن السّلسلة الرّئيسيّة، وبعد المضيّ من جديد صوب الشّمال الشرقي بشرق خلال 3 ساعات و10 دقائق، يصل المرء إلى النّقطة التي ينتهي عندها جبل المِسما، ويبتدئ بالهبوط في وادي القبال، وهو يصادف في كلّ خُطى مسيره خلال هذه السّاعات الثلاث و10 دقائق حويات ماء مطر هائلة. وبالمِسما تنتهي على الطريق الجبال البازلتيّة. وعند السّاعة العاشرة صوب الجنوب الشرقي بشرق توجد جبال ضراف وعند قاعدتها يتوارى جوف وُلد سليمان، وهو وادٍ طويل وعميق يحتوي على اثني عشر بئراً من الماء الصّالح للشرب، كان احتفرها الوُلد سليمان من ضَنا بِشر الذين يعود إليهم وحدهم حقّ الاستقاء منها.

ولدى النّزول صوب الشمال الشرقي بشمال خلال 40 دقيقة، يجد المرء نفسه مجدّداً في وادي القبال، الذي يغدو رمليّاً أكثر من ذي قبل، حيث أنّ رمال النّفود لا تعود ترتدّ إلى الجبال. ويبلغ المرء خلال 6 ساعات من المسير العُريق، وهو جبل من الحجر الجرانيتي، وإلى الجنوب منه بضع جلاميد صخريّة تنثال صوب جبل ضراف، تدلّ على ذُرى نسق من الجبال المطمورة في رمال النَّفود، والتي كانت في الماضي الغابر تؤلّف مع جبل ضراف سلسلة واحدة.

بعد متابعة الطريق صوب الشمال الشرقي بشرق خلال 6 ساعات، وبعد اجتياز نسق من الهضاب الرّمليّة، يصل المرء إلى جُلمود صخري جرانيتي مرتفع يحتوي جانبه الذي يواجه الغرب، في تجاويفه الدّاخليّة، على أحواض ماء يمكن بلوغها عبر الكوى التي حفرتها أيدي البشر. اتركوا الجلمود إلى يساركم، وبعد ساعتين وربع تصلون أخيراً إلى بير المطلّة، في شمالي الجبل الذي يحمل اسمه، وبه يبتدئ نطاق جبل شمَّر. ومن العُريق إلى المطلّة، ينصب عْنِزَة النّجديّون بيوت شَعرهم على نحو أكثف. وبما أنّ هذه الدّيرة مجاورة تماماً لجبل شمَّر، فلقد تمّ تخصيصها لشمَّر، الذين يعدّون أنفسهم حقاً رعايا لطلال بن رَشيد، بينما يبقى بقيّة البدو التّابعين له توّاقين إلى الاستقلال.

وجبل شمَّر هو الإقليم الأقصى شمالاً من نَجد، وهو كما يقول العربان واحد من سبعة نجود. ورمال النَّفود تمتدّ من المطلّة إلى سلمى، وتحتجز قرى جُبّة وطويّة والحناكيّة وغينة (؟) Ghenáa، تفصل جبل شمَّر عن جوف عامر، الذي يقع بعد 5 ساعات بطريق القوافل صوب الشمال الغربي. ومن المطلّة إلى سهل المستجدّة تُرى هضاب البازلت ذات المواشير والكتل المدمّجة تنتصب في بحر من الرّمال، وتتماهى في جبال ضراف الجرانيتيّة، التي من جهة الشمال الشرقي تتّصل بسلسلة جبال وادي سلمى المزدوجة، وتنضمّ في الجنوب الغربي إلى جبل الحَرّة. ومن الشرق إلى الجنوب، نجد كلاً من جبل سلمى ووادي سلمى يتاخمان ديرة الغافة Ghafel، التي يجتازها المرء لبلوغ القَصيم، وهو إقليم آخر من أقاليم نَجد أكثر أهميّة بكثير من جبل شمَّر، وفيه من المدن الرئيسيّة: عنيزَة، والرُّسّ، وبْريدة.

كان الإقليم بأكمله في الماضي السّحيق مغطى بسلسلة واحدة من الجبال الجرانيتيّة، وتشرف عليها ذُروة جبل سلمى السّامقة. أمّا الآن، فبما أنّ الرّمال قد اخترقت إلى قلب الوديان، فقد تمّ طمرها تقريباً بالكامل، وهي تنقسم إلى كميّة من السّلاسل الصغيرة من الهضاب التي سيتفرّع منها أيضاً سلاسل أخرى، إن بقي مستوى ارتفاع الرّمل مطّرداً. وسيأتي يوم لن يظهر فيه من هذه الهضاب سوى بعض الصّخور الضائعة في خضمّ الصحراء المترامية.

والأمير الذي يحكم جبل شمَّر حاليّاً مستقلّ بشكل ما. ففي الواقع أنّ الأمير طلالاً بن عبد الله، الذي ينتمي إلى شمَّر العَبدة الجعفر، لا يرسل إلى الدِّرعيّة في كلّ سنة إلّا جزية رمزيّة تتألّف من ستّ أفراس، هي أسوأ ما في إصطبلاته، فيقوم فيصل بن سعود بإيصالها إلى السّلطان بواسطة شريف مكّة، مع أفراس أخرى منتقاة بعناية أكبر بكثير من هذه. ولابن رَشيد على رعاياه حقّ الحياة والموت، ولو أنّ عليه أن يحكم وفقاً لشرائع البدو.

وفي هذه السّنوات الأخيرة تعاظمت سُلطته، وأخضع للجزية كلاً من فَيْد والغافة على طريق القَصيم، وجوف عامر (المعروف قديماً بدُومة الجَندليّة)، ومدينة سكاكا، وقريتي خَيبَر وتَيماء، والكثير سواها. وكذلك يخضع له العَنْزَة وضَنا بِشر، والوُلد سليمان النّجديّون، والأيدان، والشّرارات، والهتيم، وشمَّر تومان الجزيرة، الذين يقتربون مراراً من نَجد. وسكّان المدن والقرى الخاضعة يدفعون مثل السكّان الحضريّين في الجبل، عُشر غلال الأرض. أمّا الأعراب البدو، مثل بدو شمَّر، فيدفعون ثلاثة معايير من السّمن على بيت الشَّعر الواحد، وخُمس مَجيدي على كلّ بعير، وعشرة قروش على كلّ قطيع ذي عشرين رأساً من النّعاج والماعز.

وسكّان جبل شمَّر يتألّفون من قسم حَضَري وقسم بدوي، ويمكن تقدير عديدهم بحوالي 75000 نسمة. والحضريّون منهم ينقسمون إلى بني تميم وإلى شمَّر، وأمّا البدو فجميعهم ينتمون إلى شمَّر.

وشمَّر ينقسمون إلى: السِّنجارة، والأسلَم، والعَبدة، والدّغيرات. وفيما بينهم يقتسمون مراعي الإقليم، الذي يعود وفق ذلك مقسوماً إلى أربعة ديرات للبدو، وديرتين للحَضَر.

وبنو تَميم هم أقدم سكّان البلد، وما زال أحد أحفاد أمرائهم على قيد الحياة، وهو الأمير علي بن عايد، ولكن ليس في يده أيّة سُلطة تُذكر، وموضع إقامته في قفار.

* * *

أمّا مدن جبل شمَّر وقراه فهي: حائِل: 7500 نسمة، وفيها يُلاحظ قصر الأمير، ومسجد كبير والسّوق، الذي هو الوحيد في هذا الإقليم. والمَوقَق: 2000 نسمة، بما فيهم 5 أسر من بني خالد. اللّقيطة: 1500 نسمة، جُبّة: 950 نسمة. والمسافرون القادمون من الجنوب يدفعون عند هذه النّقطة ضريبة تبلغ ريالاً مَجيديّاً، وأمّا القادمون من جهة الشّمال فيدفعون ريالين، من أجل الحصول على حقّ الانتفاع بالماء الذي يصادفونه. فإذا كانوا من التجّار فعليهم أن يضيفوا إلى هذه الضريبة ثمن قميص من الكتّان. القُفيفة: 600 نسمة. طويّة: 500 نسمة. الغينة: 200 نسمة. الوقيد: 400 نسمة. البدن: 400 نسمة. الوْسيطة: 400 نسمة. عقدة: 300 نسمة. Lezram: 300 نسمة. الحناكيّة، التي يدعوها كثير من البدو الحَيّانيّة: 100 نسمة.

أمّا بنو تَميم فيقطنون قفار، وهي قرية ذات 8500 نسمة. والرّوضة: 2000 نسمة. صبان Sebam: 2000 نسمة. المستجدّة: 1800 نسمة. بَقعا Bahcaa: 1000 نسمة. القصر: 800 نسمة. الغزال El-Garal: 500 نسمة. السّليمة: 400 نسمة. طابَة: 300 نسمة.

ومن بير المطلّة إلى بدن يلزم ساعتان و30 دقيقة، وعلى بُعد 5 ساعات إلى الشرق ½ الجنوب الشرقي بشرق عن البدن توجد المَوقَق، وتبعد ساعة و30 دقيقة عن السّلسلة الرئيسيّة لجبال منطقة جبل شمَّر. ومن المَوقَق إلى Lezram 30 دقيقة صوب الجنوب الشرقي، والقُفيفة على بعد ساعتين و45 دقيقة نحو الجنوب الغربي، والطويّة على بعد 7 ساعات صوب الشمال الغربي بشمال، يمتدّ الدّرب بشكل نصف دائرة عند قواعد جبال النَّفود الرّمليّة.

وتقع جُبّة على بُعد 10 ساعات إلى الشمال الغربي بشمال من تَيماء. وتبعد المستجدّة عن المَوقَق 20 ساعة نحو الجنوب ½ الجنوب الشرقي بجنوب، أمّا حائل فتبعد 20 ساعة نحو الشمال ½ الشمال الشرقي بشمال، وتبعد السُّليمة 5 ساعات و30 دقيقة نحو الشمال الغربي بشمال، والرّوضة 6 ساعات نحو الشمال الشرقي، والغزال 9 ساعات نحو الشمال ½ شمال شرقي بشمال.

والغزال تبعد بمقدار 5 ساعات نحو الشمال الشرقي بشمال من السُّليمة، وبمقدار 7 ساعات صوب الشمال الغربي عن الرّوضة، وبمقدار 6 ساعات نحو الجنوب ⅓ الجنوب الغربي بجنوب عن القصر، وبمقدار 7 ساعات صوب الجنوب الشرقي عن المَوقَق، وبمقدار 8 ساعات صوب الجنوب الغربي بجنوب عن قفار، التي تبعد بمقدار 3 ساعات صوب الشمال الشرقي ⅓ الشمال الشرقي بشرق عن القصر. وتبعد قفار عن المَوقَق 8 ساعات و30 دقيقة صوب الجنوب الشرقي بشرق، وعن حائِل بمقدار 3 ساعات صوب الجنوب الشرقي.

وعلى بُعد 15 ساعة صوب الشمال الشرقي بشرق من حائِل توجد البَقعا، وعلى بُعد 12 ساعة صوب الجنوب الشرقي توجد صبان Seban، تحت جبل سلمى الذي عنده على بُعد 4 ساعات صوب الجنوب الشرقي بشرق توجد طابَة في وادي سَلمى. وعلى بُعد 30 دقيقة من حائِل توجد الوْسيطة، وعلى بُعد 45 دقيقة صوب الجنوب الغربي من الوْسيطة، في الجبال المتحدّرة، توجد عقدة. وأخيراً، على بُعد 4 ساعات نحو الشمال تقريباً من حائِل توجد الوقيد El-Ugid. ومن الوقيد إلى اللّقيطة Lechite ثمّة ساعتان صوب الشمال الغربي، واللّقيطة تبعد عن الحناكيّة بمقدار 14 ساعة جنوباً ½ جنوب شرقي بجنوب، وعن الغينة (؟) Ghenáa بمقدار 4 ساعات صوب الجنوب الشرقي بشرق. ومن هذه القرية الأخيرة يمكن الوصول إلى جُبّة في غضون 12 ساعة باتجاه الشمال الغربي بغرب.

* * *

وجميع هذه المواضع لها مزارع نخيل فسيحة، تمتدّ في السّهول التي شكّلتها الرّمال وسط الجبال. وهي محاطة بسور من الطّوب المقسّى والمجفّف بالشّمس، وتحفّ بالسّور أبراج. أمّا الدُّور فلا تختلف بأيّ شيء عن تلك التي في تَيماء، لولا أنّ البعض منها هنالك ذات حجم أكبر. وليس هناك أيّة صناعات حرفيّة تُذكر، وتنسج النّساء شقق القماش المألوفة، والعبي (المعاطف المقلّمة) من الصّوف، والبُسط السّميكة.

وهنالك باعة جوّالون يجوبون البلد باستمرار، ويقايضون على هذه الصّناعات بضائعهم المجلوبة من أقاليم نَجد الأخرى، ومن العِراق العربي ومن الحجاز.

تتألّف ثياب الرّجال من ثوب طويل من القماش الأبيض، ومن عباءة من وبر المعزى ذات لون أسود كستنائي، وكذلك منها مقلّمة بيضاء وسوداء، ومن كفيّة رُبط على الرّأس بعقال، وزوج من النِّعال. أمّا النّساء فيلبسن ثوباً أزرق، وشَمْبَر، أي وشاحاً كبيراً أسود من الحرير المجعّد، لتغطية الوجه، وعباءة سوداء أو كستنائيّة، تكسوهنّ من الرأس إلى القدمين.

والدّين لديهم هو الإسلام السّنّي، ورغم أنّه لم يعد يوجد هناك وهابيّون، فما زالت بعض الأسر تتمسّك بسنّة حلق الشارب والامتناع التّام عن التّدخين، كما هو الحال لدى أتباع عبد الوهاب[1]. أمّا الأمير طلال فهو لا يدخّن عَلناً أمام النّاس.

وسكّان جبل شمَّر الشّديدو التّزمّت لا يطيقون النّصارى ولا اليهود. والرّاية الوطنيّة ذات لون أخضر ومؤطّرة بالأحمر، وتحمل كتابة بالأبيض تحت سيف مسلول تمثّل الشهادتين: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله.

في حال نشوب حرب، يتوجّب على جميع الرّجال المتاحين حمل السّلاح. وجبل شمَّر الذي يُقدّر عدد سكّانه من الحَضَر بـ 33000 نسمة تقريباً، يسلّح 4000 بوادري، جميعهم يمتطون ظهور الهجن. وإلى هجّانة جبل شمَّر ينبغي إضافة 600 هجّان آخرين من المغاربة التابعين للأمير. وهم كلّهم تقريباً عبيد ويركبون الأفراس العائدة له. وبدو المناطق التابعة للأمير وسكّانها الحَضَر قلّما يتنافسون على مهمّة الدّفاع العام، فالبدو ما عادوا يُعَدّون موالين إلى حدّ كافٍ، وأمّا الحَضر فلا يمكنهم المخاطرة بخلوّ بلداتهم من الرّجال المسلحين.

---

(1) كذا بالأصل، والمقصود طبعاً الإمام محمّد بن عبد الوهاب. ودوماً يذكر الرحّالون بالغلط تسمية: الوهابيّة، والصّواب: الدّعوة الإصلاحيّة السَّلَفيّة. لكنني أترجم بدقّة، وترك عبارات المؤلف على حالها أدعى لمعرفة مواقفه وآرائه بشكل واضح.

لكن برغم ذلك فإنّ البدو غالباً ما يقدّمون لجيش الأمير مؤازرة تتألّف من بضعة آلاف من البواردِيّة، ومن 300–400 هجّان إضافي في حال تمّ شنّ حملة على أعداء بعيدين، وإن كانت هناك آمال في الحصول على مغانم. وخلال الحملة يتعيّن على كلّ واحد تأمين تجهيزاته بما يمكنه من الذّخائر والمؤن. وأمّا الأعداء الذين يحاربهم الأمير طلال بن رَشيد على الدّوام فهم عْنِزَة برّ الشام، وضَنا بِشْر، والرّوَلَة[1]، والظَّفير، وعتيبَة، ومْطير.

والأمير طلال بن رَشيد يقوم بتجهيز مرافقة تتألّف من 600 رجل يقودهم أخوه متعب[2]، لاصطحاب قافلة الحجيج القادمين من إيران، التي تتوجّه في كلّ عام من بغداد إلى مكّة. وهو يمتلك 800 عبد و600 فرس من أصائل الخيل، ويُعدّ بمثابة أغنى أمراء أواسط جزيرة العرب بالمال.

وهو يُكنّى عموماً: «أبو بَندَر» على اسم ابنه البكر، وكذلك يُطلق عليه اسم «ابن رَشيد» تكريماً لموقعه في رأس أسرته الحاكمة. ومن زوجاته الأربع، اللّواتي منهنّ ثلاث من بنات شيوخ شمَّر وواحدة هي أخت فيصل ابن سعود، لديه 16 ولداً على قيد الحياة[3]: 9 أبناء و7 بنات[4].

* * *

(1) في كتابنا القادم «عوائد عرب الرّوَلَة وشمائلهم في بوادي الشام والجزيرة» للرحّالة التشيكي ألويس موزيل، عرض شائق لحروب الرّوَلَة مع ابن رَشيد، وكيف استخلصوا منه الجوف في أيّام الشيخ النّوري بن هزّاع الشّعلان، فحكمها ابنه الأمير نوّاف (1902–1922 م).

(2) بعد موت طلال بن رَشيد منتحراً عام 1867 م، سيغدو أخوه متعب الأمير الثالث للجبل 1867–1870 م، ويليه بَندَر بن طلال 1870–1872 م.

(3) لا ريب أنّ معلومات جوارمانـي فيها استقصاء ودقة كبيران، برغم الفترة القصيرة التي استغرقتها رحلته من 26 يناير إلى بُعيد 22 مايو (4 أشهر).

(4) بعد 8 سنوات من زيارة جوارمانـي، سيقوم محمّد أخو طلال بن رَشيد بالاستيلاء على الحكم، بأن يقتل ابن أخيه الأمير الشاب بَندَر وبعض إخوته. ثمّ يندم على فعلته ويطلب بعض من بقي منهم ليتخذه ولداً له، حيث أنه لم يُرزق بأبناء سوى ابنة واحدة في أواخر عمره (نورة) تزوّجت أحد أمراء آل الرَّشيد ويُدعى حْمود بن سَبهان، وتوفي محمّد سنة 1897 م.

يوجد في جبل شمَّر من الحيوانات: النَّعام، وبقر الوحش، والفهد، والنّمر[1]، والثّعلب، والأرنب البرّي، والغزال. ومن الحيوانات الأليفة: الجمل، والحصان، والثّور، والحمار، والكلب، والقط، وقطعان عديدة من الحملان والمعزى. وللصّلَيب أو النَّوَر سلالة من الحمير البيض سريعة الجري، وهي مليحة الشكل جداً[2].

إنّ كلاً من قريتَي فَيْد (2000 نسمة)، الواقعة على بُعد 6 ساعات صوب الجنوب الشرقي بشرق من طابَة، وقرية الغافة Ghafech (2000 نسمة)، الواقعة على بُعد 28 ساعة صوب الجنوب الشرقي من حائِل، هما أوّل منزلتين من منازل القوافل المتّجهة صوب عُنيزَة، عاصمة القَصيم والمدينة الأكثر أهميّة والأكثف آهليّة بالسكّان بين مدن أواسط جزيرة العرب.

تتألّف عُنيزة من سبعة أحياء يمكن تسميتها بالقرى[3]: العادليّة، الأحمر، المسوكَف، El-Guche، الحضر، القاع Kabb، القصيع Gossea. وهي تعدّ 15000 نسمة، وتتميّز على مدن جبل شمَّر بسماكة أسوارها المحيطة بها، وبمزرعة نخيلها الخارجيّة التي تتوّجها، ويحميها خمسون برجاً منفصلاً.

في عام 1863 م، ثارت عُنيزَة في وجه فيصل بن سعود[4]، فحاصرها الأمير عبد الله، ابن فيصل [بن تُركي] وخليفته الوراثي، وكذلك حاصرها الأمير طلال ابن رَشيد، فواجه في البداية مقاومة شرسة، وشرعت قوّات الأمير عبد الله بالانهزام متراجعةً بعدما كُسرت بشكل تام، لولا أنّ المطر الذي أعقب ذلك بلّل فتائل بواريد المدافعين. فاضطرّ هؤلاء إلى التّراجع، ولم يتمكّنوا من صدّ غارة هجّانة جبل شمَّر الذين يقودهم الأمير محمّد أخو طلال.

---

(1) لا يُقصد به البَبر البنغالي، بل نوع من السّنوريات الكبيرة الكاسرة، ذو لون ترابي أغبر.

(2) في ختام الشتاء يجتاز العديد من الصّلَيب نهر الفُرات للذهاب إلى صيد حمار الوحش في بلاد الرّافدين، الذي لم يعد له وجود في الحماد Tammard (كذا). ويمسكون منه بضعة أعداد حيّة فيستخدمونها للنّزو على أتنهم. أمّا المواليد الذّكور فيتمّ إخصاؤها وتباع في سنّ السّنتين بأسعار تصل إلى مئتي ريال مَجيدي للحمار الواحد (المؤلف).

(3) حاولت ضبط الأسماء بالرجوع إلى مصادر، ومن أقدم أحيائها: الجناح، الحيالة، المجلس.

(4) الواقعة معروفة والتفاصيل التي يذكرها صحيحة، وكان على عُنيزة الأمير زامل السّليم.

فانهزم المدافعون على أعقابهم بشكل فوضوي، وأصيبوا بحوالي 200 قتيل في أرض المعركة. وفي الصّباح استسلم القصر، أمّا الأمير زامِل الذي كان مُطلق السّلطة بالأمس فقد تمّ إقصاؤه عن حكم المدينة، وتمّ تعيين ابن عمّه الأمير عبد الله بن سَليم مكانه. وتمّ دفع الجزية المتأخرة، وبارح المنتصرون عُنيزة دون أن يدخلوا أسوارها.

***

في السّهول الواقعة إلى الشرق من عُنيزة، حتى الوديان الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الغافة Ghafeh، تقطن قبيلة مْطير، التي لها 2500 هجان.

ويتألّف المطير من فخذين اثنين: العَلْوَى، والبْريْه، وكانت ثارات الدّم القديمة أنشبت بينهما حرباً ضروساً قائمة. وينقسم العَلوى إلى الأفخاذ التالية: الدّوشان، الجبلان، الصّهبة، المقالدة، العقيهات، العراقبة أو البراعصة. وأمّا البريه فينقسمون إلى الأفخاذ التالية: السِّرّان [السّاير]، المريخات، البريصان، الوساما، الدّياحين، العبيرات، ولد عبّاد، بني عبد الله.

ولّما كانوا أتباعاً لفيصل بن سعود، فهم بمثابة أعداء لطلال بن رَشيد، وللهتيم ولبني حَرب، وغالباً ما يقومون لإقلاقهم بالتوغّل مروراً إلى جنوب جبل شمَّر. وأكثر ضحايا غزوهم من الهتيم ومن شمَّر، ذلك لأنّ بني حرب المسروح وبني سالِم، اللذين يتفرّع الأوائل منهم إلى بني علي والعوف وبني سفر، والآخرون إلى المَيمون والمسارحة، يتواجدون إلى الغرب والجنوب الغربي من ديرة الهتيم، بالقرب من المدينة المنوّرة ومن Guarkie. ولبني حَرب عدّة 1000 هجّان، وهم كذلك تابعون لفيصل بن سعود، ولكنّهم فوق ذلك حلفاء لعرب عتيبَة، الذين هم أعداء لجميع أمراء نجد قاطبةً.

وقبيلة عتيبَة، التي ضاءلتها الحروب المستمرّة إلى 700 هجّان، تحتلّ السّهول الفسيحة التي تمتدّ من جبل عماريّة إلى الحدود الجنوبيّة لديرة الهتيم، في جنوبي المسكب. وخيل عتيبة تشتهر بأنّها نخبة الخيول العربيّة في الصّحراء.

***

على بُعد مسيرة يوم صوب الشمال تقريباً من عُنيزة، تقع بْريدَة وهي مدينة حجمها أكبر من حائل لكنّها أقلّ كثافةً بالسكّان، وتشتهر بسوق الخيل التي بها. وبعد متابعة المسير 3 ساعات صوب الشمال، وشيئاً ما صوب الشمال الغربي بشمال عن بْريدَة، تقع قرية العين التي يقطنها 1500 نسمة. وما بين العين والغافة توجد أيضاً قرية أخرى هي القوارة (2000 نسمة) تقع على بُعد 10 ساعات نحو الجنوب الشرقي بجنوب من الغافة، وعلى بُعد 12 ساعة صوب الشمال الغربي بشمال من العين. واعتباراً من القوارة هذه يبتدئ إقليم القَصيم.

- 3 -

تدين جُبّة إلى رياح الجنوب، وإلى جبل أم سنمان وجبل الغطّي، اللّذين يحميانها في جهتي الشرق والغرب، بفضل عدم انطمارها بعد برمال النّفود. ولها في جهة الشمال على بُعد ربع ساعة جبل رملي يسيطر عليها بالكامل، وإلى يمين هذا الجبل يمرّ طريق جوف عامر.

وطريق جوف عامر هذا من عمل بني هلال. ويقع جوف عامر على بُعد 49 ساعة و30 دقيقة إلى الشمال الغربي من جُبّة. والطريق يتعرّج في غضون 47 ساعة في الرّمال، صوب الشمال وصوب الغرب، ثمّ يمتدّ بعدها في خطّ مستقيم صوب الشمال الغربي على أديم سهل رملي، ويهبط نزولاً لمدّة نصف ساعة. ولعمل هذا المسلك الذي يحمل اسم الطريق بغير وجه حق، تمّ طمر وديان مليئة بالتّلال وتسوية قدر المستطاع أرض النَّفود الرّمليّة، المتماوجه كبحر تهبّ عليه العواصف.

من الصّعب تماماً على عين شخص أوروبي تتبّع تعرّجات هذا الطريق، فينبغي تجنّباً للضّياع الالتزام باتجاه الشمال الغربي، بالانحراف صوب الشمال أو الغرب عندما لا يتمكّن المرء من اتّباع الاتجاه الأوّل، إلى أن يغيب عن ناظريه جبل العالِم، وهو عبارة عن ثلاث هضاب تقع على بُعد 25 ساعة من جُبّة، يمكن رؤيتها من جميع الاتجاهات لعدّة ساعات قبل بلوغها.

اعتباراً من قاعدة جبل العالِم [العَلَم] وإلى نهاية صحراء النَّفود، يصبح من المستحيل تماماً وبأيّ شكل من الأشكال تمييز طريق بني هلال، باستثناء بعض المعالم التي لا يسهل اقتفاؤها.

يترك الرحّالة جبل العالِم خلفه في الجنوب الشرقي، ويتابع طريقه متعرّجاً خلال 7 ساعات مستمرّة ما بين التّلال للعودة إلى معالم الطريق المزعوم الذي يتجه صوب الشمال الغربي نحو الجوف، عبر المرور بالفلوح Fluh. والفلوح هي الجزء الأكثر انتياباً في صحراء النّفود، وأعسرها على الاجتياز. وهي نَسَق من التّلال المتحدّرة والوديان العميقة، يتوجّب معها القيام بالآلاف من الالتفافات في جميع الجهات، والابتعاد مراراً كثيرة بشكل بالغ عن الخط المستقيم، ثمّ العودة إليه مجدّداً بصعوبة بالغة، وهكذا إلى بلوغ المحجان Mohgean.

يتمّ اجتياز الفلوح في 3 ساعات، أمّا المحجان فهو سدّ عالٍ من الرّمل ذي الحبّة الدّقيقة جداً، ينثال لعدّة أميال من جهة الشرق إلى الغرب. ونباتات البادية تنمو هناك بوفرة، لكنّها تجفّ بها بسرعة. أمّا أدغال العَوسَج العالية والشُّجيرات التي تُرى هناك تبقى على الدّوام - باستثناء الشتاء - جرداء لا خُضرة فيها. أمّا ما يدلّ على المحجان فهو الخطّ الذي ترسمه ذُروته في الأفق.

وبمجرّد اجتياز المحجان، تصبح تموّجات الأرضيّة أصغر حجماً، وتصبح نباتات الصحراء أكثر اخضراراً وقابليّة لامتصاص نسبة كبيرة من النّدى في اللّيل. ويُطلق اسم المحجان خلال مسيرة 8 ساعات و30 دقيقة على الأرض التي تفصل بينه وبين البُنَيَّة. فإذا غادره المرء المرء لمسافة 4 ساعات نحو الجنوب الشرقي، يصل إلى وادٍ أعمق بكثير من الوديان الأخرى في منطقته، ويفضي هذا الوادي خلال 10 ساعات إلى بئر الشقيق (الشِّجيق) Scegik الخرب، أو كما يلفظ اسمه العديدون: «الشّقيق» Sceghik. وهذا البئر الذي احتفره الرّوَلَة العنِزيّون، تمّ تخريبه بأمر من الأمير طلال بن رَشيد، الذي لم يكن راغباً بترك الرّوَلة يحصلون على الماء في صحراء النَّفود، لكي يتمكّن بذلك من الدّفاع بشكل فعّال عن الحدود الشماليّة لجبل شمّر.

أمّا البنيَّة فهي سَدّ ثانٍ من الرّمل النّاعم جداً، أو سهل عالٍ فسيح، تقوم على أديمه بعض النّتوءات الصّخريّة، وتلعب الرّيح على الدّوام. وهذا ما يجعلهما متغيّرين في أشكالهما على الدّوام. وعندما يهبط الرحّالة صخور البنيَّة على سفح يسير جداً، يصل بذلك إلى نهاية رمال صحراء النَّفود، في السّهل الرّملي المحيط بالجوف وينتهي بعد 6 ساعات صوب الشمال عند أقدام جبال حَماميّة. وهذه السّلسلة الجبليّة تبتدئ بعد مسيرة 5 ساعات صوب الغرب، وتنخفض تدريجيّاً صوب الشرق، إلى أن تتلاشى عن النّظر فتصل إلى أسوار سكاكا.

يبعد الجوف بمقدار ساعتين عن الحدود الشماليّة لرمال النَّفود، لكن برغم ذلك تلزم نصف ساعة إضافيّة للدّخول في أسواره، حيث ينبغي في هذه النصف ساعة النزول من السّهل الذي يسيطر عليه إلى سهل آخر في الأسفل يحمل اسمه وبين رياض نخيله تقوم دُور سكّانه. ومن جُبّة إلى جوف عامر يجعل تجوال بدو الظّفير والرّوَلة العنِزيّون الطريق خطراً جداً على الرحّالين الذين يسافرون في أعداد صغيرة. فإن صادف المرء بدو الظَّفير فعليه أن يقاتلهم.

ينقسم الظَّفير إلى السّعيد، والعريف، والأبو دراع، والمعاليم، والفلوح، والمسامير، وهؤلاء جميعاً تحت قيادة السيخ سُلطان بن سويط. وهم يسلّحون 1800 هجّاناً و3000 بواردياً، ويجولون من سوق الشيوخ في جوار سكاكا بالتّخوم الشماليّة لنَجد، ما بين ديار شمّر وديار العَنِزَة من ضَنا بِشر.

أمّا جوف عامر فهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكّانها 6000 نسمة، وهي مبنيّة كبقيّة مدن نَجد عموماً بالطّوب المجفّف بالشمس، والدُّور مغطاة بالتّراب الرّملي المقسّى والمجفّف بالطريقة ذاتها، كما تدخل في بنائها جزئيّاً الحجَارة الحمراء الكلسيّة الصغيرة التي تُجلب من جبل حماميّة. أمّا السّور الذي كان يحيط بأحيائها الأربعة عشر فقد تمّ هدمه، ولكلّ حيّ سوره الخاص. ومثل عُنيزة في القَصيم، تبدو الجوف منذ خراب الدّلهميّة وكأنّها تتألّف من ثلاث عشرة قرية، ترتبط بين بعضها بمزارع نحيل متصلة لا انقطاع بينها. ويجدر تسميتها بالمدينة، لأنّها لا ينقصها وجود قرى على مسافة قصيرة منها.

وأوّل حيّ منها هو الحسيني في الشمال الغربي بغرب، ثمّ يلي بعد ذلك عال الغرب Aal-el-Garb، الزّرعي، الغيط Gait، الدّيرة، ديرة حطّاب. وبعد ذلك الجزء الأكثر امتداداً من الخطّ الذي ينعطف صوب الجنوب الشرقي حيّ السّلمان، والـ Habbuh، والصّيدان، والرّحبين، والعلادية، وعين زُغبة وخِذْما، وخرائب الدّلهميّة. وهذه الأحياء متراصفة إن جاز التّعبير على خط مُتحاذٍ الواحدة بعد الأخرى، بحيث أنّ مزارعها بأكملها تحتلّ مسافة طولانيّة يلزم لتجوالها 50 دقيقة، ولكن ليس لها من العرض في أقصى اتّساع لها ما يصل إلى 10 دقائق. والمنطقة الأعرض بها هي ديرة حطّاب، التي تبعد عن الحسيني مسافة 20 دقيقة، و30 دقيقة عن خرائب الدّلهميّة.

أمّا حصن مارد، ذو البناء القديم جداً إنما السّميك جداً، فينتصب على أكمة من الحجر الرّملي إلى الجنوب الغربي من ديرة حطّاب، عند الدُّور التي يجاورها، وإلى الجنوب الغربي من الدّيرة، التي يرتبط به منها سور عالٍ. لا بُدّ أن حصن مارد قد أعيد بناؤه أكثر من مرّة، وهو اليوم مشيّد بالحجر حتى ثلثي ارتفاعه، أمّا قسمه العلوي فمبني بالطّوب المقسّى. وشكله البدائي يتألّف من مربّع تحيط به أربعة أبراج مدوّرة، وفي مركزه برج أكبر حجماً، يمكن الإشراف منه بسهولة على السّهول المحيطة. ولقد تداعى البُرج الكبير إلى الخراب، وأمّا الأبراج الأخرى العديدة المقامة على جوانب المربّع لتدعيمه فقد أفقدته انتظام شكله الذي كان عليه فيما مضى. وفي خِذْما يوجد نبع ماء نقي جداً. كما توجد ينابيع أخرى في بقيّة الأحياء، غير أنّ ماءها ضارب بعض الشيء إلى الملوحة. ولقد تمّ حفر عدّة آبار في مزارع النّخيل وفي الحقول، التي تغلّ المحاصيل ذاتها التي توجد في جبل شمّر وفي تَيماء، بالإضافة إلى السِّمح.

يأخذ جوف عامر اسمه الحالي من القاع أو الوادي العميق الذي يقع فيه، وهو في العربيّة يُسمّى «الجوف»، ومن اسم بني عامر الذين أنشؤوه على أطلال دُومة الجَندَليّة القديمة، التي يدعوها بعض النّاس: دُومَة الجَندَل، وهذه المدينة القديمة كان فتحها خالد بن الوليد، كما اشتهرت بالتّحكيم الذي نجم عنه خلع عليّ بن أبـي طالب، أعظم محارب عربي في عصره.

في مطلع القرن التّاسع عشر، كان يحكم الجوف أمراء ينحدرون من أسرة [بني سَراح] من قُرى وادي السّرحان المستقلّة التي تدفع الخوّة للرّوَلَة. وفي عام 1853 م حاصر طلال بن رَشيد الجوف واستولى عليه برغم المقاومة الباسلة التي دامت عشرين عاماً. وتمّ أسر أميره حطّاب بن سَراح وإيداعه السّجن، وما زال إلى الآن يعيش في سجون قصر حائل، أمّا أبناؤه فقد عادوا إلى وادي السّرحان وعمّروا فيه قرية الوشواش Uschevasc، بالقرب من إثرة Etere والأخضر Ekder، إلى الشمال الغربي من الأولى، وإلى الشرق من الثانية.

أمّا القرى التي تتبع الجوف فهي: الجرانـي، والغُطّي، والبْحيرات (؟)، ووادي الدّربة في الوادي. وتبعد قرية الجرانـي عن الجوف بمقدار 20 دقيقة صوب الجنوب الغربي، والغُطّي بمقدار 10 دقائق صوب الجنوب الشرقي بشرق، ووادي الدّربة بمقدار 25 دقيقة صوب الشمال، والبْحيرات بمقدار 45 دقيقة صوب الشمال ¾ الشمال الغربي بشمال عن خِذْما. وفي وسط التّلال هناك الحصيبا (؟) Hasia على بُعد 40 دقيقة إلى الشمال الغربي بغرب من الحسيني. وكذلك جاوة Giawa والمويسِن في السّهل الأعلى على طريق سكاكا، وتبعد جاوة بمقدار 45 دقيقة، والمويسن بمقدار ساعة صوب الشمال الشرقي بشرق من وادي الدّربة.

وكلّ من البْحيرات Bahirat ووادي الدّربة والغُطّي Gotti تستند إلى نَشَز من الأرض ينتهي عند حدود الجوف، وما بين القريتين الأخيرتين مَنقَع ماء مطري، يصبح مائلاً إلى الملوحة بسبب الأرض الرّمليّة المالحة.

أمّا سكاكا فبلدة يبلغ عدد سكّانها 1000 نسمة، تقع عند أقدام جبل حماميّة، وتبعد عن الجوف بمقدار 8 ساعات صوب الشمال الشرقي بشرق، وعلى بُعد 4 ساعات صوب الجنوب الغربي بغرب توجد قرية قارة Gara، وعلى بُعد ساعتين صوب الجنوب الغربي بجنوب قرية[1] Atier. وقارة تعدّ 1500 نسمة، أمّا Atier فحوالي 800.

(1) يذكر المؤلف في نصّه مئات أسماء الأماكن والأشخاص وأفخاذ العشائر، بطريقة مبهمة تماماً.

على بُعد 64 ساعة صوب الشمال الغربي ½ الشمال الغربي بغرب من الجوف توجد كاف، إحدى قرى وادي السّرحان، التي خُرّبت في القرن الخامس عشر وأعيد إعمارها في القرن الثامن عشر. وكانت في الماضي منزلة من منازل القوافل المتجهة من دمشق إلى المدينة [المنوّرة].

لدى الخروج من باب حيّ الحسيني، يبدأ المرء بالارتقاء برفق ما بين بضعة تلال، إلى أن يصل إلى السّهل العُلوي، حيث تخلّف أمطار الشتاء إلى الجهة اليسرى كثيراً من الخَبرات الصغيرة. وينبغي في البداية التوجّه صوب الغرب، وبمقدار ما تسمح به التضاريس الخفيفة للأرض، متابعة المسير في هذا الاتجاه على امتداد 9 ساعات و30 دقيقة. وبعد انقضاء 6 ساعات، يصبح على يمين المرء جبل دوارة، الذي بعد مسير 10 ساعات صوب الشمال ينضمّ إليه جبل حماميّة. ثمّ يتابع الرحّالة المسير 3 ساعات و30 دقيقة أخرى في القسم الأول من السّهل الذي يحمل هذا الاسم ذاته (حماميّة).

وفي غضون القسم الثاني من المسافة، يتّجه الطريق خلال 7 ساعات صوب الشمال الغربي. وبعد 4 ساعات و35 دقيقة، يترك الرحّالة خلفه أواخر الصّخور الجنوبيّة الغربيّة للدّوارة Douare. وفي ختام 3 ساعات ونصف من المسير تقريباً، بلغ المرء بير شغار Scegar في الشمال الغربي بغرب. وهناك يجد بئراً مفتوحاً في صخرة، مليئاً بماء منتن. وهو محاط بالرّمال المالحة وتسيطر عليه الجبال المؤلفة من الحجر الكلسي والرّمال التي تكسر الكتل الصوّانيّة الموشكة على التشظّي. وعلى بُعد 15 ساعة صوب الغرب، يقع جبل سبيعة (؟) Sbehe، الذي يخفي ما بين صخوره الغربيّة على بُعد ساعة واحدة و20 دقيقة تقريباً من شغار بئر ماء مالح أيضاً، غير أنّه أقلّ إنتاناً من بير شغار.

لولا أنّ المرء ترك اتجاه الشمال الغربي للدّخول في وادي السّرحان، في نواحي الشّغار، لكان صادف على مسافات متساوية تقريباً بئر الجراوي، وبئر النّبشة، وبئر العويشجة، وبئر شيبة Scheba، وبئر نباج Nebach، وبئر معيصرة، وهي آبار يمكن بالكاد اعتبارا قابلة للشُّرب، فهي ذات طعم أُجاج ومذاقها سيء للغاية.

ومسافة الطريق ما بين بئري الجراوي ومعيصرة خطرة إلى حدّ فائق جداً، إذ ينتابها مراراً بدو العَنِزة من ضَنا بِشر في غاراتهم على الشّرارات وشمَّر، أو الكمائن المعدّة للاستيلاء على القوافل ذات الحماية الضعيفة. وثمّة نسق من الجبال تفصلها عن الوادي الأسفل لوادي السّرحان، الذي يتحدّد في جهة الغرب ما بين عدد كبير من التّلال الرّمليّة، وبعض الهضاب البازلتيّة الأخفض من هضاب جبل الطّبيق والفيحة.

ومن بير شغار يسير المرء 9 ساعات صوب الشمال الغربي بغرب، وساعة صوب الشمال الغربي، وساعتين و15 دقيقة صوب الشمال الغربي بشمال، و30 دقيقة صوب الشمال. وينبغي للمرء القيام بهذا الانعطاف لكي يدنو من الجبال على يسار الطريق، وهو لا يستطيع أن يسير بمحاذاة الوادي، ذلك لأنّ الجبال الواقعة على جهة اليمن تبتعد عنه على الدّوام قُدُماً. يصل المرء بعد ساعة و30 دقيقة إلى الجنوب من بير معيصرة، وتتزايد تماوجات الأرض حتى بير أويسِط الذي يتمّ بلوغه بعد 4 ساعات و30 دقيقة، ببعض المسير صوب الشمال الغربي بشمال، وبعضه الآخر صوب الشمال الغربي.

ولبئر أويسِط أربع فتحات تتوارى خلف رواب رمليّة تعلوها شجيرات عَوسَج عالية. ويلاحَظ بالقرب من الفتحة الرّئيسيّة وجود عشرين شجرة نخيل يبلغ ارتفاع الواحدة منها مترين.

بعد مسير 18 ساعة صوب الشمال الشرقي بشرق، يلوح رأسا جبل نسمة السّرحاني، وبعد 24 ساعة صوب الشمال الشرقي بشرق تُلاحظ قمّة جبل سِلا Sela. وبعد 10 ساعات صوب الغرب توجد الجبال التي تفصل ما بين وادي السّرحان وأرض الصّوّان. وعند بير الأويسِط، يعود السّهل رمليّاً ويبقى كذلك باستمرار، ولكن تضاريس الأرض تصبح تقريباً غير بادية للعيان. ومن جهة الشمال الشرقي بشرق إلى الجنوب الغربي بغرب، يمكن حساب اتّساع الوادي بمسيرة 30 ساعة، وهذا هو أكبر عرض له. والطريق يتوحّد لمدة 9 ساعات و30 دقيقة صوب الشمال الغربي بشمال، ويلامس لمدّة 45 دقيقة دون انحراف أقدام سلسلة من الجبال البازلتيّة قادمة من جهة الشمال الشرقي.

ودون أن يجتازها الطريق، ينعطف صوب الشمال فيدخل مجدّداً في السّهل الذي تصبح تموّجات أرضه أكبر من ذي قبل. ويتجه الطريق كذلك لمدّة ساعة و10 دقائق صوب الشمال الغربي بشمال، وبعد 3 ساعات و45 دقيقة صوب الشمال الغربي، تاركاً إلى يساره بير المحيضِر Meheder، الذي له مياه تميل إلى الملوحة لكنّها أقلّ إنتاناً من ماء بير شغار، ثمّ يهبط الطريق تدريجيّاً لمدّة 50 دقيقة صوب الشمال الغربي بشمال، ليصل إلى المناقع المالحة.

يتمّ التقدّم خلال ساعتين و45 دقيقة صوب الشمال الغربي، وخلال ساعة صوب الشمال الغربي بشمال، وصولاً إلى بير العضيمات. وبعد ساعتين و30 دقيقة صوب الشمال الغربي بشمال يصل المرء إلى بير أبو طريفيات، وخلال هذه المسيرة تنزلق أخفاف الجمال على الرّمل المُتخم بالملح المبتلّ من أمطار الشتاء وندى الصّيف. فإذا لم يكن مع المرء دليل ذو خبرة، فهو يتعرّض لخطر الوقوع في كلّ لحظة في الحُفر الموحلة المغطاة بطبقة من الملح الرّقيق للغاية، وأن يضلّ طريقه في المعابر التي تجتاز مناقع الماء في جميع الاتجاهات.

توجد آبار العضيمات وأبو طريفيات وحصيبا Kseba في ثلاث واحات تنتابها الثّعابين وبقر الوحش. والماء ممتاز. وفي حصيبا يوجد حصن تبلغ مساحته 14 متراً مربعاً، بناؤه حديث لكنه غير مأهول بعد. ويُرى بعد مسيرة 6 ساعات إلى الشرق ½ الجنوب الشرقي بشرق بير البريدة، الذي ينتهي عنده الطريق لينعطف في اتجاه الجبال الواقعة إلى الشمال من حصيبا، أي الطريق الذي يجتاز وادي السّرحان اعتباراً من بير الجراوي، من جهة الجنوب الشرقي إلى جهة الشمال الغربي.

هذه الجبال الأخيرة تتألّف بأسرها من البازلت، وبما أنّ أجنابها ما زالت على حالها لم تتغيّر، فليس لها أيّة رمال عند قاعدتها. بينما توجد الرّمال على قواعد القسم الأعظم من الجبال التي يصادفها المرء قبل الوصول إلى هذا الموضع، وكذلك ما بعده قُدُماً. وهذه الجبال تبعد عن حصيبا بمقدار 30 دقيقة، ويتمّ ارتقاؤها بطريق منحدر، ومن شعابها يمكن رؤية جبل المجال El-Magal في جهة الشمال.

وتكون كاف بالتالي على بُعد 30 دقيقة صوب الشمال الغربي، حيث أنّ الطريق يدور باستمرار في وديان جرداء ورمليّة لتجنّب الشّناخيب البازلتيّة الضخمة التي تشكّل كثيراً من السّدود الطبيعيّة، وهي بمثابة تحصينات حقيقيّة يلوذ بها سكّان قرى هذه المنطقة في أثناء حملات الإغارة السّريعة التي يقوم بها البدو.

وقرية كاف التي تسمّى يضاً ديرة الرّبابة، تشبه قرى جبل شمَّر والجوف، مع فارق وحيد هو أنّ التّراب المبنيّة به دُورها وأبراجها وأسوارها أفتح لوناً، وبأنّ نخيلها أقلّ اخضراراً وأقلّ مغلاً، وربما كان ذلك بسبب الأبخرة المالحة للمستنقعات المجاورة لها. وهي مقامة على تُخوم السَّبخات المالحة، التي هي أفضل سبخات الوادي، وعلى الأقدام الجنوبيّة لجبل الصّعيدي Saïdi، وهو جبل كان متوّجاً سابقاً بهامة حجريّة، لم تتحوّل بعد تماماً إلى خراب، وكان قام بانتزاعها كما يقال رجل مصري من الصّعيد، كان يجبي حق المرور من قوافل مكّة.

وهذه القوافل، بسبب كثرة الينابيع الموجودة في كاف والسّهل المحاذي لها، أسّست فيها واحدة من منازلها. ويبعد جبل الصّعيدي عن كاف حوالي 10 دقائق، ويمكن ارتقاؤه بمسلك منحدر، وهو منفصل عن الجبال الأخرى للجزيرة البازلتيّة والرّمليّة التي تسدّ حدود هذه القرى. وهذه الجبال تؤلّف حول كاف هلالاً، وجبل الصّعيدي يشرف على النّاحية الغربيّة من سَبخات الملح.

في كاف 250 نسمة، وهي تبعد بمقدار ساعة و30 دقيقة صوب الشمال الشرقي بشمال من عقيلة [المشعان] Akeile، وهي قرية منبثقة عن كاف تقع في السّباخ ذاتها على نَشَز من الأرض، ولا يقطنها سوى 15 شخصاً. وهي تبعد 3 ساعات صوب المال من الغُطّي El-Gotti التي تعدّ 150 نسمة والخَرِبة جزئيّاً، إذ أنّ عدداً كبيراً من سكّانها قد تركوها مؤخراً ليستقرّوا في جوف عامر، حيث أسّسوا قرية بالاسم ذاته، وهي تقع على بُعد 10 دقائق صوب الجنوب الشرقي بشرق من خِذْما.

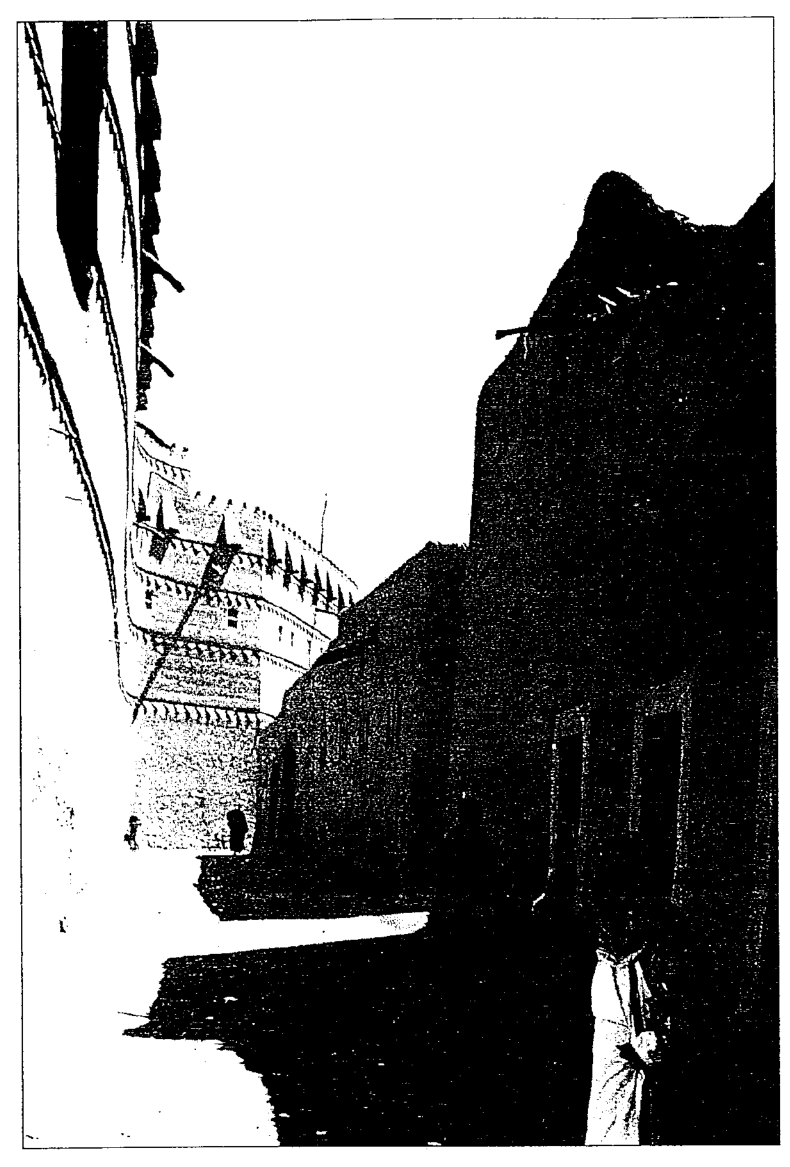
على السّفح الشرقي للجبال التي تواجه الجزء الأقلّ أهميّة من سَبخات الملح، توجد ثلاث قرى أخرى: الأخضر، على بُعد ساعة و45 دقيقة من كاف، والوشواش، وإثرة. فعلى بُعد ساعتين صوب الجنوب الشرقي بشرق تقع إثرة المبنيّة بالحجر، والتي يقطنها 300 من السكّان، أمّا الوشواش ففيها 200 شخص، والأخضر 150. بحيث أنّ عدد سكّان القرى الستّ في وادي السّرحان لا يتجاوز بأجمعه 1065 نسمة.

أمّا محاصيل الأرض، فهي باستثناء السّمح ذاتها الموجودة في الجوف، والصّناعات ذاتها الموجودة في تَيماء. وفوق ذلك هناك مورد الملح، الذي يشتريه البدو بقيمة ريال مَجيدي لِحمل الجمل الواحد، وهم يأبون الاعتراف للقرويّين بحقّ بيعه، إذ يعدّونه ملكاً لهم، ولو أنهم يدفعون المَجيدي فهذا كما يقولون من باب توفير عَناء جمعه وتكويمه.

أمّا المجال Magal أو جبل المجال، فيقع على بُعد ساعتين و45 دقيقة صوب الشمال الشرقي من كاف ومن عقيلة [المشعان] يستغرق الطريق 29 ساعة للوصول إلى القْليطة، على هذا النّحو: 10 ساعات صوب الشرق لاجتياز السَّبخات، و14 ساعة صوب الشّمال الغربي في أرض الصّوّان، وكذلك 5 ساعات صوب الشمال الغربي في البَلقاء.

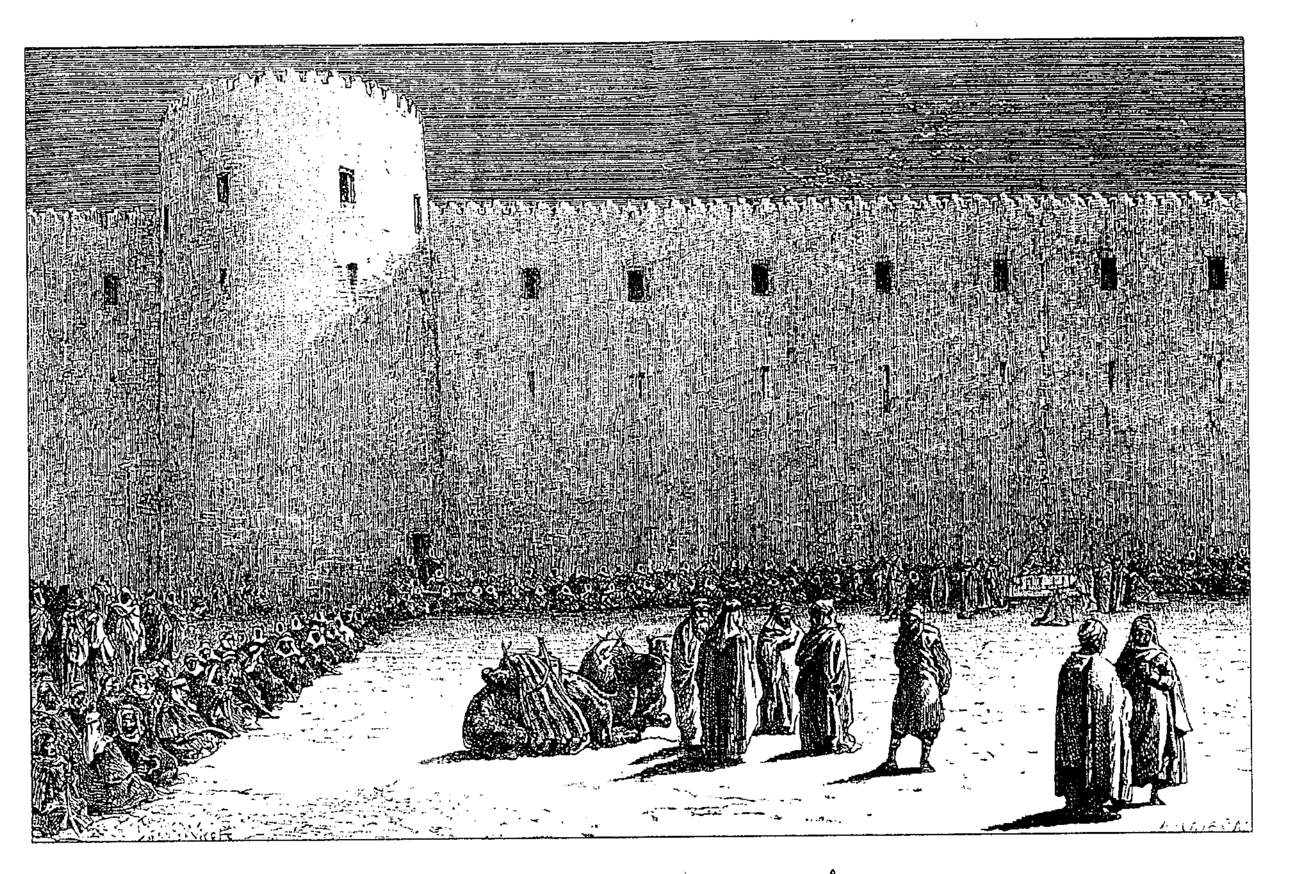
* * *

تمّ الكتاب

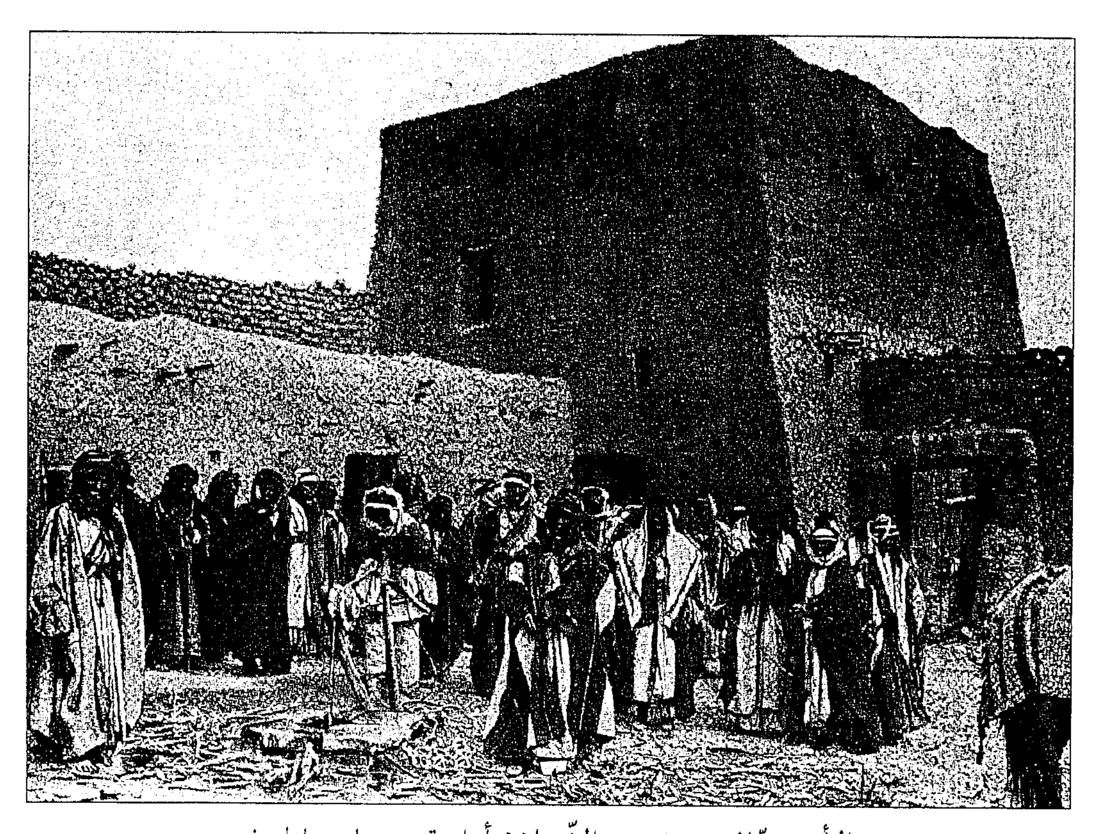


مدينة حائل، عن صورة فوتوغرافيّة قديمة
للرحّالة البريطانـي جورج رِندِل Sir George Rendel

سور مدينة حائل وأحد أبراجه، تصوير جيرترود بِل، مارس 1914 م



باحة قصر حائل، نُقيشة قديمة من كتاب رحلة آن بلَنت 1878–1879 م



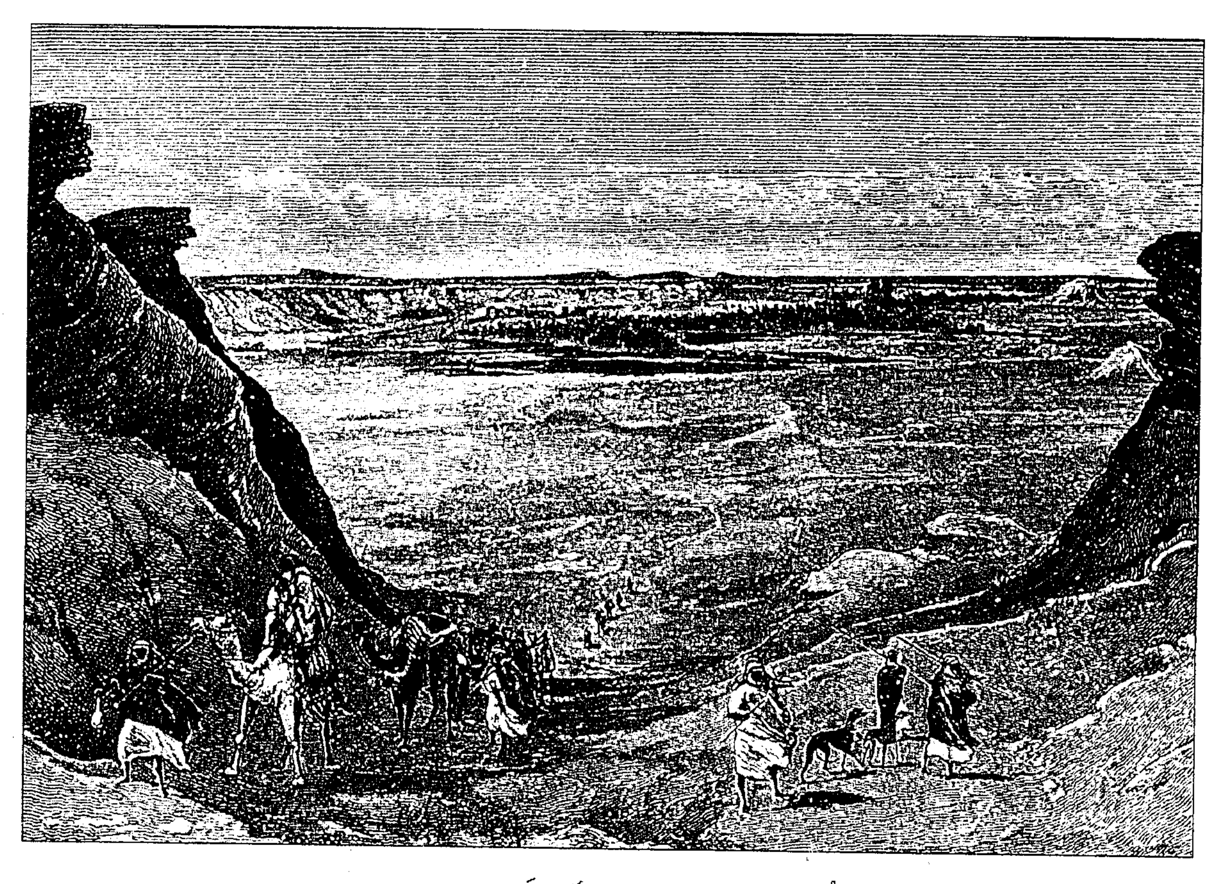
الأمير نوّاف بن نوري الشّعلان أمام قصر مارد بالجوف
صورة من كتاب: *Arabia Deserta* للرحّالة التشيكي ألويس موزيل



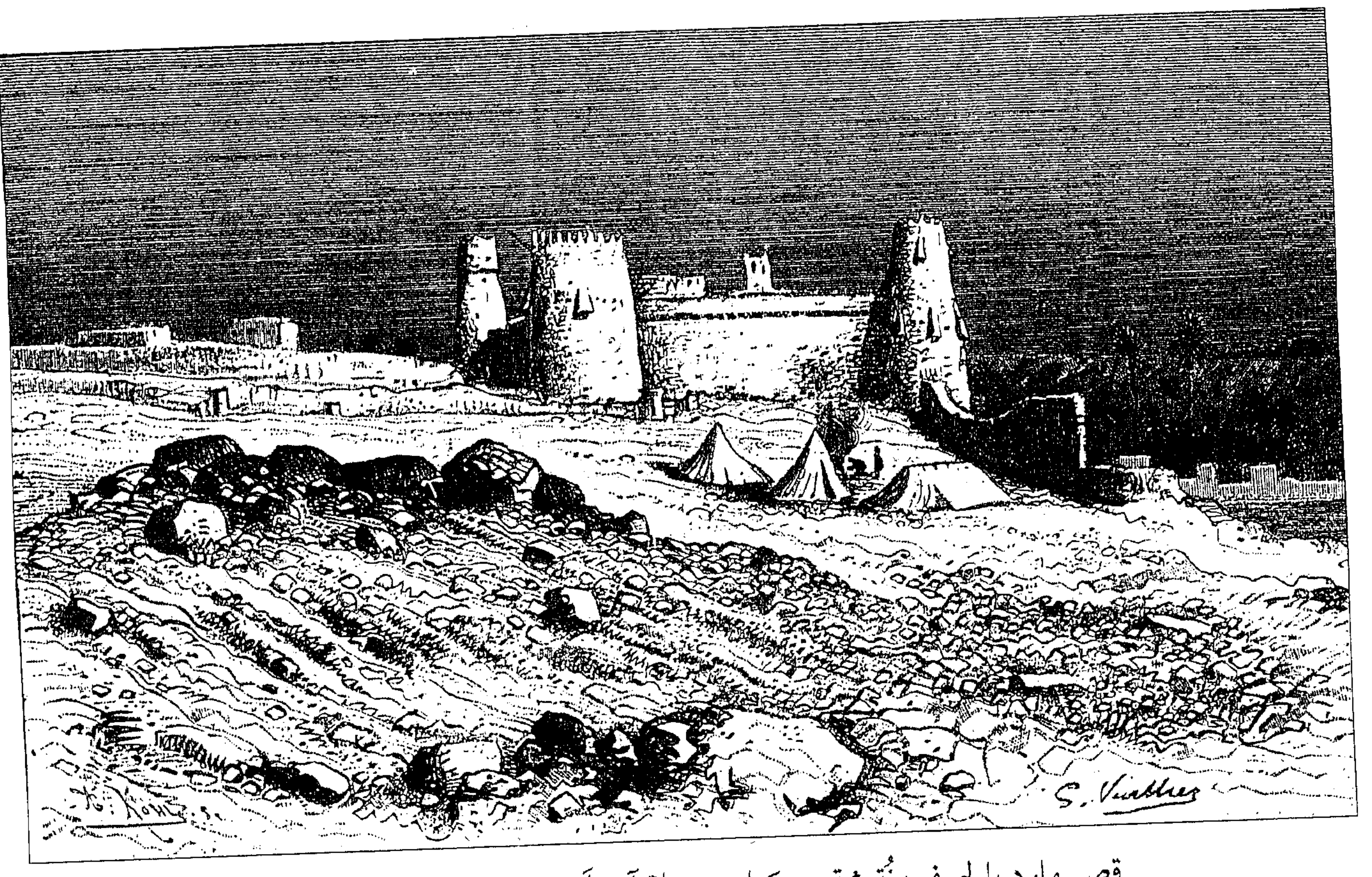
عطفة عشيرة الرّوَلَة الشهيرة

ما تزال إلى اليوم محفوظة في قرية الرّيشة بوادي السّرحان

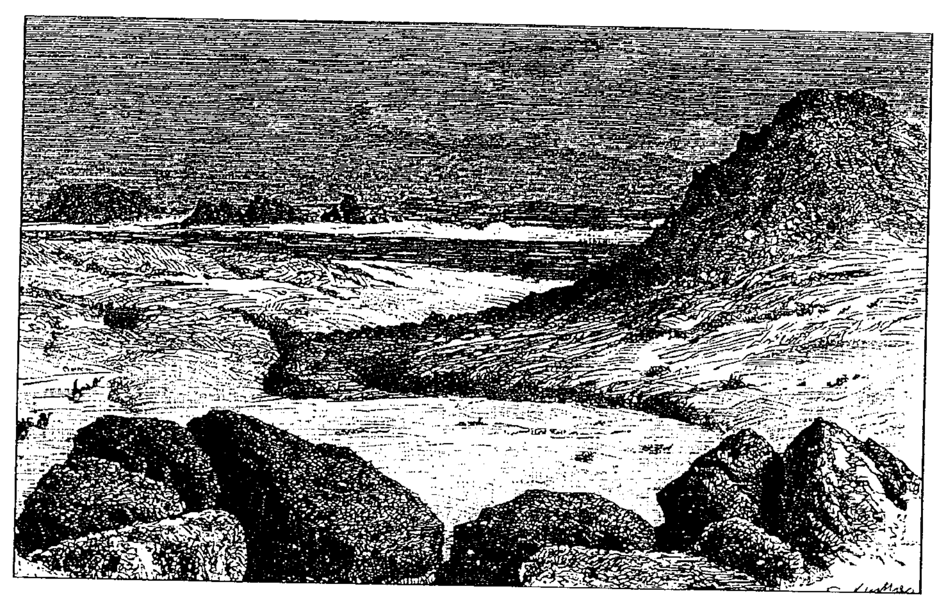
صورة عن كتاب: *The Black Tents of Arabia* لكارل شميت



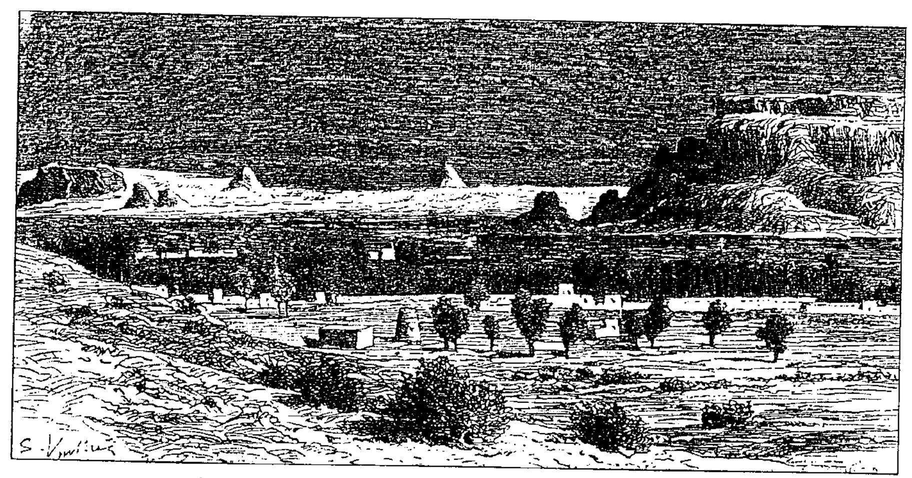
واحة الجوف، نُقيشة من كتاب رحلة آن بلَنت: *A Pilgrimage to Nejd*



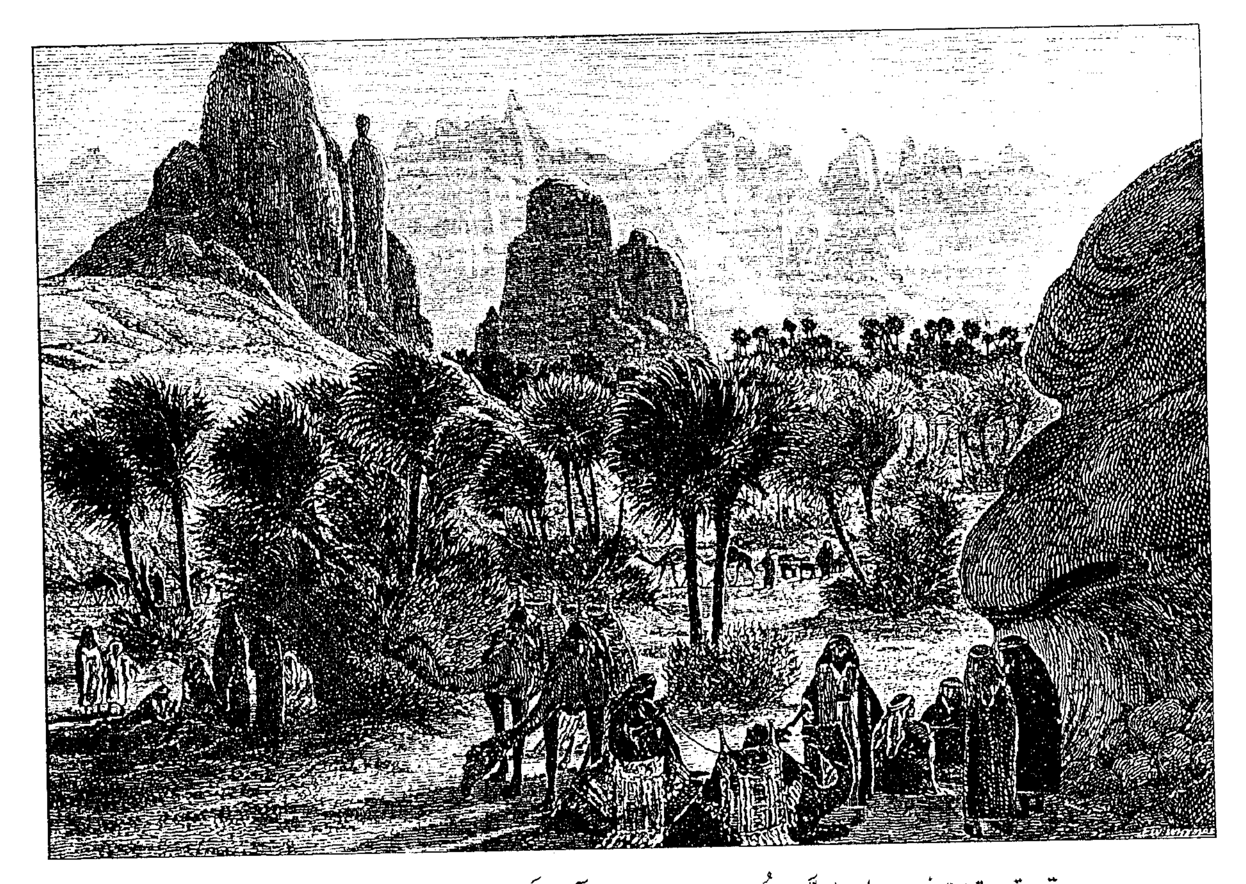
قصر مارد بالجوف، نُقيشة من كتاب رحلة آن بلَنت: *A Pilgrimage to Nejd*



صخور بلدة الجُبّة



منظر عام لبلدة الجُبّة، نُقيشة من كتاب رحلة آن بلَنت
A Pilgrimage to Nejd



قرية عقدة في جبل شمَّر، نُقيشة من كتاب آن بلَنت: *A Pilgrimage to Nejd*

تصويبات

للكتاب السّابق من السّلسلة

«ارتياد جزيرة العرب»

داڤيد جورج هوجَرث

- الصفحة 42 السطر 9: پترا بدلاً من يترا.
- الصفحة 59 السطر 15: پترا بدلاً من يترا.
- الصفحة 81 السطر 7: دي ڤارتيما بدلاً من دي قارتيما.
- الصفحة 142 السطر 12: پترا بدلاً من يترا.

* * *

فهرس الكتاب

* * *

وكان الفراغ من ترجمة هذا الكتاب وتحريره وتسطيره، على يد مترجمه، في إسكلة بيروت المحروسة، لعشر خلون من شهر ربيع الأول الأنور من شهور سنة ألف وأربع مئة وثلاثين لهجرة سيّد البشرﷺ. والحمد لله على توفيقه.

نجد الشمالي

رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم

كارلو جوارماني مستعرب إيطالي يجيد اللغة العربية. قام بهذه الرحلة في عام 1864 م متنقلاً بين العشائر بالجوف إلى عنيزة ثم حائل في القصيم، بحجة البحث عن الخيول الأصيلة. أما مهمته الحقيقية فكانت الاستطلاع السياسي الذي كلفه به إمبراطور فرنسا نابوليون الثالث الذي كان يحلم بإنشاء حلف مع إمبراطورية عربية يعمل هو على إنشائها. وكان قد أوفد لهذا الغرض قبل عامين الرحالة البريطاني وليم جيفورد بالجريف.

إن الدقة التي تتبدى في أوصاف جوارماني خلال رحلته هذه، وتآلفه الواضح مع كل شؤون العرب بأكملها؛ يوحيان للقارئ بإيلاء ثقة كبرى به. كما أن أوصافه الحية لمدن شمالي نجد والقصيم وجبل شمر: حائل، عنيزة، بريدة، تيماء، خيبر، الجوف، ولقاءه شخصياً بأمراء ذلك العصر: عبد الله ابن فيصل بن تركي آل سعود، طلال بن رشيد، وأخيه عبيد، وابن أخيه بندر، وأمير عنيزة زامل، يزيد كله في قيمة كتابه، ويجعل نصه فريداً وشائقاً يمتاز برواية جذابة للأحداث وتفاعل المؤلف معها.

السعر 45 درهما


9 789948 012252

